

الجيش العثماني في دولة أولاد مولا ناعلي السجلماشي

في دولة أولاد مولا ناعلي السجلماشي

للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته

أحمد بن يوسف الكنسوسي

الجيش العثماني

في دولة أولاد مؤلان على السجل المائي

للعلماء أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره

المتوفى سنة 1294 هـ - 1877 م

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته

أحمد بن يوسف الكنسوسي

ردمك 9981-948-00-4 (المجموعة)

ردمك 9981-948-02-0 (الجزء الثاني)

**الراية الحمراء المشرقة اللون
التي لها من الله التأييد والعون
في دولة مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام
بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله
بن مولانا إسماعيل رحمه الله**

قد أسلفنا كيفية العهد الشريف المبارك، وأنه أرسل من مراکش في ثامن ربيع الأول، فلما بلغ لحضرة فاس في سادس وعشرين من ذلك الشهر وافق ورود خير موت السلطان فكأنما كانا على ميعاد، فاجتمع أعيان فاس من الشرفاء والعلماء والقاضي الشريف مولاي أحمد بن عبد الملك العلوي (1) والمفتي العلامة سيدي محمد بن إبراهيم، والتاجر الأمين {شيخ الركب النبوي} (2)، الحاج الطالب بن جلول، والعلماء والأشراف، وكبراء الدولة من الوداية والعبيد، فقرأ عليهم العهد المبارك السعيد، فتأسف الجميع على موت الإمام العادل، وارتفعت الأصوات بالدعاء له والترحم عليه، وبالنصر والتأييد لخليفته المظفر الرشيد، فأخذ القاضي بيده وبياعه، ثم ترادف الحاضرون على تقبيل يده ومبايعته، ووجه من ينادي في المدينة والأسواق لإعلام الخاصة والعامة، فتسامعت القبائل بذلك، فوردت وفود التهنئة من الخواضر والبوادي والأعراب والبربر، وحضرت رؤسائهم الذين لهم الحل والعقد والأمر والنهي، مثل الحاج محمد بن الغازي الزموري، والحسن بن حم وعزيز، وعلى هذين تدور دوائر البربر كلهم في ذلك الوقت، فكتبت الكتب إلى الأقطار المغربية، فوردت بيعاتهم وهداياهم ولم يخالف أحد، وأرسل الله سواكب الأمطار، وكثرت الخيرات، واتضعت الأسعار، واستبشر الناس بطلعة هذه الدولة الميمونة اللاتحة الأنوار، التي أتمتها السعادة بدون استشراف ولا انتظار، قال كاتبه ووزيره أخونا في الله الفقيه أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس رحمه الله :

(1) أحمد بن عبد الملك العلوي المشهور بـ «ديزة» ت 1241 هـ 1825 م «الرفيات» ص 8 و «الانحاف» ج 1 ص 349 وقد حلاه صاحب الانحاف بقوله : قاضي الجماعة بالحضرتين فاس ومكناس، له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة والتاريخ والأدب والتوثيق والمعرفة الكاملة بصناعة الأحكام .

(2) ما بين المعترفين إضافة من (م).

مولاي بشراك بالتأييد بشراك
الفتح والنصر قد وافاك جيشهما
الله ألبسك الإقبال مكرمة
قراصة الملك المرحوم قد صدقت
أعدت للدين والدنيا جمالهما
وزارك الغيث غوثا في سحائبه
قد أكمل الله بالتوفيق سراك (3)
والسعد باليمن قد حيا محياك
وبالتقي والنهي والعلم حلاكا
لما تفرس فيك حيسن ولاكا
فأصبحا في حلى من حسن معناكا
فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا

فطلع السلطان لدار الملك وقبة النصر، التي لا يدرك محاسنها الحد
والحصر، وكان السلطان المرحوم قد عزل لكل واحد من أولاده محلا من
قصوره يختص به، فعين لمولاي الطيب مع أمه رقية بنت عبد الله بن الخضر
القصر المسمى بدار عياد الكبيرة، ولمولاي إدريس وأخويه مولاي عثمان
ومولاي يوسف وأمهم مشرف القصر المسمى بدار عياد الصغيرة، ولكن
ليس للقصور كلها إلا باب واحد وهو الباب الأكبر المعروف، فلما طلع
السلطان المؤيد لدار الملك فتح لقصورهم أبوابا إلى خارج وسد ما بينهم
وبين دار قبة النصر، وأما مولاي علي فإن والده العادل بنى له ولمولاي
إبراهيم دارين عظيمتين بفاس البالي، ولم يبق بدار قبة النصر إلا أخته وأمهم
مولاة الدار للامينة بنت سليمان، فاتفق اسم أبيها مع اسم أبي مولاة الدار
لسيدي محمد بن عبد الله للافاطمة بنت سليمان وكلتاها من شرفاء
الأحلاف أولاد مولاي سليمان بن إسماعيل، ومولاي سليمان والد هذه ليس
هو ولد مولاي إسماعيل لصلبه بل حفيده، بخلاف مولاي سليمان والد مولاة
الدار عند سيدي محمد فإنه ولده لصلبه، وذكرت هذا لأنه وقع فيه غلط لمن
يظن به الاطلاع على داخل الأحوال، وقال إنهما أختان متفقتان في أب
واحد، فلما طلع المؤيد بعد خروج مولاة الدار وبنيتها ورحلتا لدار مولاي
علي بفاس البالي لم يتركا في الدار ما يساوي درهما واحدا، هكذا ذكر لي
السلطان المؤيد أول ما لقيته يشكو بمولاي علي، قال : والله ما تركوا في
الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما، فترك لهم ذلك، بل زادهم ورفههم أكثر
من أبيهم.

(3) كذا بالأصل ومثله في (م) وفي (ش) أما (ف) ففيها (سراك).

فلما فرغ من مباشرة الوفود والتهاني التفت الى تمهيد أركان المملكة، فقيده على فاس وصيفه بوجمعة بن سالم الذي كان بوابا على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم بعد مدة قريبة لما أراد السفر قيد عليها سيدي محمد بن الطيب ولد عمه، وأما القاضي فأبقاه على عمله، ثم نهض نهوض العز والإقبال، وخرج من فاس يريد تفقد الممالك ومباشرة أحوالها فبلغ الى قصر كتامة ونزلت المحلة بظهر كدية مولانا إسماعيل، وهناك قدمنا عليه من مراکش ففرح بنا كل الفرحة، وبنفس وصولنا أمر بدخولي إليه لشدة تشوقه لخبر مولانا العادل المرحوم، فدخلت إليه وهو في قبته السلطانية، وجلست بين يديه نحو ساعتين، فسأل عن كل شاة وفاذة داخلية وخارجية، وبعد خروجي من عنده أذن لمولاي عبد السلام بن سليمان لأتينا أتينا في صحبتته رفقة واحدة، فلما خرجت وجدت الأحوال التي كنت أعرفها قد تبدلت، والأقوام قد تنكرت، وكان قدومي ودخولي على السلطان وفرحه بي قذى في عيونهم، وشجى في حلوقهم وصدورهم، ولما صلينا مع السلطان العصر وردت مكاتب قنصوات النصارى من طنجة، فدعاني السلطان فقرأتها عليه، فذهبت لمحل نزولي مع مولاي عبد السلام، فجاءني الفقيه الكاتب أخونا في الله تعالى سيدي محمد بن إدريس بتلك المكاتب وقال : إن سيدنا أمرني أن آتيك بها لتخبرني كيف كنتم تخاطبون هؤلاء النصارى، فأخبرته فوجدته هو أيضا قد استثقل قدومي^(*) مع أنني معه كنا كأخوين شقيقين، ولما صلى السلطان المغرب ودخل دعاني أيضا وسألني عن بقية الأخبار، وحدثني هو أيضا بما وقع له مع أولاد عمه السلطان العادل، وما ظهر منهم من كراهة ولايته، فقلت له : ياسيدي إن ذلك أمر طبيعي لا بد منه إن لم يكن ظاهرا فهو في الباطن كامن، لاسيما من الأحداث الذين لا عقول لهم، وحلم مولانا وفضله يسع ذلك ويرفق بهم حتى يأنفوا ما أزيل منهم، فقال : معاذ الله، والله لا يرون مني إلا الخير، وإنما أخبرتك بالواقع الذي يجر إليه الحديث، وهنا قال لي : إن مولاي علي وأمه نلامينة ما تركوا في الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما واحدا، ثم سألني

(*) وكتب هنا ولد الفقيه العلامة عبد الله الكنسوسي البيت المشهور :
 حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له خصم

عن كتاب العهد الذي كان عندي بخط مولانا الملك العادل المرحوم، وقد كان سمع خبره وما وقع من عمه مولاي موسى وما وقع من مولاي عبد السلام كان أخبره بذلك كله مولاي الوليد سليطن لأنه كان حاضرا لموت السلطان وقدم قبلنا، فلما سألتني عن مآل هذا الكتاب دهشت من إخباره بالواقع خوفا على مولاي عبد السلام، لأنه لما قدم من تافلات كما قدمنا وكنا مع جماعة منهم مولاي الوليد المذكور، فجعل مولاي عبد السلام يخبر ببيعة مولاي عبد الواحد ويعظمها، ويذكر من حضرها من الشرفاء وكبراء آيت عطة وآيت زدك، ثم التفت إلي وقال : أين الكتاب الذي عندك أيها الكذاب ؟ ما أكذبكم أيها الكتاب ! فقال له مولاي الوليد : والله ما كذب، وهل يجهل أحد خط السلطان، فلم أجد بدا من إخراجہ، فأخذه مولاي بوبكر وجعل يقرؤه عليه، فانتزعه منه ومزقه، فقام مولاي الوليد مغضبا ثم ردوه، فلما سألتني السلطان علمت أنه بلغه الواقع على حاله، فأخبرته فقلت يا سيدي : هذا من جنس ما ذكرت عن مولاي علي ومولاي الطيب، ثم إنني أحدث سيدي بالصدق وإن مولاي عبد السلام يحب سيدنا اليوم محبة تامة، ويشني الثناء الجميل على مقامه، ويقر بإحسان والده المرحوم حيث لم يقدم أحدا من إخوانه، ويحلف أنه لو قدم غير سيدنا ما فعل معهم إلا الشر، فقال : صدق هو كذلك، فلما قام السلطان لصلاة العشاء خرجت معه فازداد القوم علي حقدًا وحسدًا، واجتمعوا في تلك الليلة عند عبد الملك الجبوري وكان هو قائد المشور، والجماعة المذكورة هم الفقيه أخونا سيدي محمد بن إدريس، والفقيه الكاتب السيد المختار الجامعي، ومولاي الحجازي، ومولاي العابد، ومولاي الحبيب شريف من مدغرة، كان يكتب معهم، ومولاي الوليد، ولكنه من ناحيتنا، فاجتمعوا على ما يفعلون ويقولون في إبعادي عن السلطان، فلما أصبح جاءني مولاي الوليد وشرح لي ما وقع وقال لي : إنني قلت للسلطان وقال لي : قل له لا عليه فيهم، فإنني أعرفهم وأعرفه ومكانته وصدقه وأمانته، وقد صحبتته من الرباط إلى القصر مدة من شهر أو أكثر، جنبه إلى جنبي، وما رأيت مثله دينا ومروءة، فقل له يرجع معنا إلى الرباط ونرجع في قريب

فإنه لا يرى منا إلا الخير، فلما خلوت مع نفسي (4) ظهر لي أنه لا يمكنني معايشرة هذه الدائرة المتواطئة على بغضي وعداوتي، والواحد لا يقاوم الجماعة. ورأيت في تلك الليلة مولانا سليمان رحمه الله في المنام ودفع لي زمامات مطوية وقال لي : صائر داري يبقى على حاله، وأنت لا تذهب مع فرجي بيدي (5) وكأن فرجي أراد الخروج مع قوم لا أعرف منهم أحدا، فلما انتبهت ألقى الله في قلبي بغض مصاحبتني أولئك الناس، وضاق صدري حتى من رؤية أحد منهم، فذهبت إلى مولاي الوليد وكانت له مكانة تامة عند السلطان يدخل عليه بلا إذن، فرغبت منه أن يعتذر عني بكل ما قدر عليه، وقلت له : إنني لا محالة ذاهب إلى فاس مع مولاي عبد السلام ولا أرجع للرباط فارتحل السلطان للرباط وارتحلنا نحن لفاس، فلما بلغ السلطان لمحل المبيت سأل عني فوجد أولئك الأعادي سبيلا إلى مرادهم وقالوا ما شاءوا، وكان ما أراده الله سبحانه (6) ولم تفارقنا أطفاف مولانا سبحانه وبره وإحسانه وعنايته، فبلغ السلطان إلى رباط الفتح وأتته وفود القبائل الحوزية وأعيانهم ورؤسائهم، فعيد هنالك عيد الفطر ورجع إلى فاس ليتهايا للحركة للحوز، وجاء معه أشياخ الحوز وأعيانهم الذين قدموا للرباط، وهناك قدم عليه مولاي موسى مع أهل مراكش وكذلك مولاي عبد الواحد، ففرح بهم وعظم أقدارهم ولم يلم أحدا، ولكن عفا وصفح وباشر بالإحسان التام والكرامة الزائدة، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ولما رجع

(4) تعقيب على ما كتبه ناصر الفاسي في "البحث العلمي" فيما يتعلق بهذه المسألة لما ترجم محمد بن إدريس وزير مولاي عبد الرحمن وشاعره. كتب في أثنائها حول كلام الجيش عن الجماعة المتآمرة عليه قال ما نصه : "وتمن لا نستطيع أن نثق بتأكيدات أكنسوس ثقة كاملة. ومن المحتمل أن تكون حاشية السلطان لم تر بعين الرضا وصول شخصية يمكن أن تنافسه" اهـ. قلت : ومن أنت أيها الكاتب حتى لا تستطيع أن تثق بشيء صدقه ووثقه من هو أقرب منك ولنا إلى كتابة هذا التاريخ بل أعرف منك وأدرك بسير الأمور في ذلك العصر كالعلامة عالم الملوك وملك العلماء الأمر بوضع الجيش المولى محمد الرابع وكوزيره أبي العشرين الطبيب بن اليصاني وغيرهما اهـ البحث العلمي عدد 1 السنة 1 بتاريخ شعبان ذي القعدة 1383 يناير-أبريل 1964..

(5) جاء في طرة (شر) بإزاء كلمة (بيدي) ما نصه : "هو لقب لفرجي لأنه كان فرجيان أحدهما كبير وهو هذا والآخر صغير وبيدي بلسان غناوة هو الأكبر".

(6) يشار هنا إلى ما ذكره غريب في فواصل الجمان ص 11 بعد أن تكلم على ما فعله المؤقرون وإذا قال في أثنائه إلى أن حدث له ما حرك حفاظ سلطانه، وغير معين صفحه وامتنانه من اتهامه بالويل والتشيع إلى من له تشوف للملك وتطلع، واتفق أن السلطان وجده لذلك المتشوف محادثا، فصدق من كان في عقد إذايته لذلك نافثا، فاعتقل وامتنع ونجوهل قدره وامتنع.

ومن محمد الدنيا شيء يسره فسوف يصري عن قليل يذمها

إذا أقبلت كانت على المرأ فتنة وإن أدبرت كانت كثيرا همومها

ثم سرح وما كاد، بعد مقاساة الهرم والأنكاد

(قلت) وما رأيت أحدا غير صاحب الفواصل ذكر أن الفقيه سجن، والله أعلم.

لفاس أمر بشراء دار السيد عبد السلام شقشاق، وكانت مجاورة لقبة مولانا إدريس بينها وبين القيسارية فاشترت وأمر بهدمها وزيادتها في مسجد مولانا إدريس، فجمع الصناع والعملة وتأنقوا في بناء ذلك أحسن من المسجد القديم، وأوقف على مباشرة ذلك الشريف مولاي الهاشمي بن ملوك البلغيثي فبنى ذلك في مدة يسيرة على غاية الإتقان والإبداع وبولغ في تنميقه وترقيقه وتخريجه وتزويقه لا في أرضه ولا في سقوفه، ولا في سواربه الرخامية والزليجية، وكنت نظمت التاريخ المنقوش في خدود الباب المجاور لباب القيسارية ونظم الفقيه السيد عبد الواحد بن شيخنا القاضي أبي العباس سيدي أحمد بن التاودي (7)، التاريخ المنقوش على السواري الزليجية التي في المسجد الجديد، وكان ضمن فيه قول المتنبي في سيف الدولة :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجريشي شريف النسب

والبيت من المتقارب، والشعر الذي ضمنه فيه من السريع، فأنكر الناس عليه ذلك، وكتبت له بطاقة أداعبه فيها وأمازحه على عاداتي معه، ثم أنف من ذلك وغضب وظن أنني هجوته، وكان تعثره سوداء في آخر عمره فشكا إلى العامل سيدي محمد بن الطيب وكان صهره على بنته ويكى عليه بكاء شديدا، فهم ابن الطيب بالبطش بي وكان يتفاخر بذلك، فوجه علي فأتيت محل حكومته ووجدته قد دخل فكان ذلك من لطف الله بي لأنه ما وجه علي حتى سكر وأبرق وأرعذ وقال لأصحابه : إن فلانا يكرهنا ويكره من يحبنا ويكره السلطان، والله لأعاقبنه فنهاء من حضر من أصحابه كالسيد عبد الخالق الموقت، والسيد العربي الساحلي، وقائد مشوره القائد إدريس البواب، فلم يزد إلا غلظة وطفوحا والزبد متراكم على فمه، ثم غلبته الخمر ودخل للدار، فذهب أولئك الإخوان إلى عمه مولاي عبد الواحد وكان نازلا بقرية فأخبروه فجاء يجر رداءه مخافة أن يفرط علي أو أن يطغى، وأنا لما جاءني عونته أتيت ولا علم لي بشئ فأدخلوني إلى محل هناك، فجلس مولاي عبد الواحد ينتظر خروجه، فلما

(7) هو ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن التاودي بن سودة المعري الفرناطي الفاسي ت آخر رمضان عام 1253 هـ 1837 م "السلوة" ج 1 ص 120 "الوفيات" ص 70 "الاعلام" ج 8 ص 533.

خرج قام إليه ونهاه وزجره وقال : إن الطلبة يقع منهم مثل هذا ، والسيد عبد الواحد بن سودة رجل أحقق وأنت أحقق منه ، فسكن غيظه ، وكفانا الله شره ، والحمد لله ببركة مولانا عبد الواحد رحم الله الجميع ، ثم وجه السلطان ولد عمه مولاي مبارك بن علي عاملا الى مراكش ، وفي أثناء ذلك وردت قصيدة بليغة من تونس تهنئة لمولانا المؤيد بالولاية السعيدة من إنشاء عالم البلاد الإفريقية ومفتيها وبركتها أبي إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي وهي هذه :

أبروم خلق نقض مبرم عقده
لا تحسبن الله مخلف وعده
والشاكرين له رب ربغ رفده
فالوقت ينطق عن سعادة جده
وعليه تبكي الباقيات لفقده
منشورة طويت به في لحده
نورا مبيننا يستضاء برشده
وينوه ترفل في ملابس مجده
تبقى السعادة للورى من بعده
للخافقين سرى تضرع رنده
والأوليس متنعمون بشهده
واستمطروا نيل المنى من وده
في الناس يعدل عن مكارم جده
راق النواظر لؤلؤ في عقده
منهم فارث الجمع حق لفرده
ذهب الزمان بعمره وبزنده
حتى ولو وفى العيان برده
فضل عظيم لا يحاط بسرده
والشرق من مصر لغاية حده
أيامه للدين مطلع سعده

نصر من الرحمان جل لعبده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ
والله أعلم حيث يجعل نصره
فليبتسم ثغر الهنا مستبشرا
إن يمض مولانا سليمان الرضى
والعلم والتقوى وكل فضيلة
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى
لو لم يكن كفوؤا لما أوصى به
سعدت به الأيام ثم أراد أن
أعظم به نصرا يدوم سروره
أهدى إلى الأعداء أقتل غصة
فاستبشروا باليمن من مرضاته
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى
وتناسقت أسلافة كرما كما
لاغرو أن جمع المحاسن كلها
لا يأكف الخراص حيث يقول قد
فبسيف ما تنسخ يقدر أديمه
فلكم وكم من آخر زمنا له
يا أهل فاس والمغارب كلها
يهنيكم هذا الزمان فإن في

والعلم والتقوى وكل معظم
النور أوقد منهم أتراهم
الله يبقى نسوره متوقدا
ويخص مولانا الأمير بنعمة
ويديمه ظلا وريفا كلما
وحسام فتح كلما نهضت به
وقام بدر كلما اقتعد السرى
وعليه تسليم تأرج نده
ثم الصلاة على النبي وآله
عند الشريعة فهو بالغ قصده
يرضون إلا باستدامة وقصده
يفنى الزمان ولا فناء لخلده
لا تنقضي وعناية من عنده
حمي الورى هرعوا لجنة برده
عزماته فالنصر شاحذ حده
لم يسر إلا في منازل سعده
لكنه في الفضل عادم نده
والحمد في بدء الكلام وعوده

ولما بلغ مولاي مبارك إلى مراکش أساء السيرة في أهلها وفتح فاء
لأكل الحرام، واستولت عليه بطانة السوء فتكررت به الشكايات إلى أمير
المؤمنين، فكتب إليه ينهاء ويشنع عليه فكف عن غربه بعض الكف، فعزم
السلطان على إعمال الحركة إلى مراکش بعد دخوله إلى مكناسة وتمهيد
حالها وترميم ما تلاشى من قواعد الملك بها وإصلاح ما أفسدته الفتن
السالفة المتوالية عليها، فإن العبيد قد لعبوا في أيام الفترة كيف شاءوا
وبددوا بيوت الأموال التي فيها وأسرفوا في الاقتضاء بلا طائل ولا فائدة،
وكانت البرابر تنهب دولهم من أبواب مكناسة وهم متكئون في ظلال
الأسوار ينظرون إليهم، بل باعوا الخيل والسلاح وأكلوا أثمان ذلك
وأفسدوه حتى أشرفوا على الاضمحلال لولا أن الله تداركهم بمولانا أمير
المؤمنين المؤيد ما بقي منهم عين ولا أثر، فلما خرج من فاس وقرب من
مكناسة خرجوا للقاءه بالعلامات مرفوعة على العصي وليس معها إلا
شرذمة قليلة، فقال لهم السلطان : أين عبيد البخاري ؟ فقالوا هذه البركة
التي أسأرتها السيبة، وعلى الله وعلى الخلف، فما زال أعزه الله يجدد
مددهم ويزيد عددهم بالخيل والسلاح والرواتب المترادفة، والمواهب الواكفة،
مع أنه وجد بيوت الأموال التي هناك تتسابق فيها الفيران، وحاصل الأمر
أنه أيده الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزائن، وصارت بعد حسن
الشبيبة إلى حالة أشوه العجائز، تفانت رجالها، وضاق مجالها، من وقعة
أصرو ببلاد زيان إلى موت السلطان العادل مولانا سليمان، فلما قام مولانا

المؤيد لم يجد فيها إلا رمقا قليلا، وخيالا عريلا، وقد وهت دعائها،
وتداعت للسقوط وأشرفت على الانهدام، المفضى إلى الانعدام، فأمدّه الله
تعالى بالسعادة الخارقة للعادة، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال ولا معين
ناصر أمين، قريب، أو بعيد، فجعل يكابد تلك الشدائد بنهاية جهده
والسعادة تكتنفه أماما وخلفا ويمينا وشمالا، والتأييد من الله تعالى يمدّه،
والتوفيق يسدده، والعناية تساعدّه والخور يباعده، حتى أقام بناء الملك
الإسماعيلي على أساسه الوثيق، وعاد جديده أبهج وأنقى من العتيق، ثم
أقام بمكناس حتى سدّد أغراضه، وعالج أمراضه، وأزال علله، وجبر خلله،
ثم صرف همته إلى آيت يمور وكانوا نازلين في الوجبة الطويلة وسلفات
فأطغاهم نزولهم بتلك البقاع المضمونة، والمزارع الخصيبة المأمونة، فسعوا
الفساد في الأرض وأضروا بجيرانهم الزراهرة وأهل الغرب والسحيرة، فأمر
عامله القائد محمد بن يش الغرباوي المالكى العروى، أن يحتال على
فسادهم حتى يحصلهم، فكادهم ابن يش حتى قبض منهم نحو الأربعمئة،
ونقلهم السلطان للحوز، ثم توجه السلطان إلى رباط الفتح، ثم وجه أخاه
مولاي المأمون خليفة لمراكش وعزل مولاي مبارك بن علي لسوء أفعاله
وشكاية الناس به كما قدمنا، فلما مر أمير المؤمنين بالشاوية عزل وولى من
ولى وأعرض عنهم حتى يتفرغ لهم، وقتل الهاشمي الزياني، فلما بلغ دكالة
وجدها كلها رؤوسا يانعة تدعو إلى قطافها، فقتل من قتل، وقيد العباس
بن المزوار وفتك بالعونات، فلما بلغ مراكش قبض ابن الغازي الزموري
ووجهه للجزيرة، وأخرج من الجزيرة السيد أحمد بن سليمان الفاسي موقد
نار فتنة أولاد مولاي اليزيد فقتله وعلق رأسه بباب الخميس ونجى الله
تعالى السيد الطيب البياز فأخرجه من الجزيرة وسرحه ولم يكن على مذهب
ابن سليمان، بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور التي يتولاها، ولذلك
ولاه السلطان بعد ذلك وجعله أمينا على مرسى طنجة، ثم ولاه على فاس
بعد ذلك مدة مديدة، ثم شرع السلطان في غرس أگدال وجلب له الساقية
السلطانية وانتزعها من أيدي مسفيوة رغما على أنوفهم، وكانوا من زمان
سيدي محمد بن عبد الله السلطان المنصور يتغلبون عليها ويقطعونها ليلا،
فلما أعياها السلطان العادل مولانا سليمان أعطاها لهم على ألف مثقال في
كل سنة، وإلى ذلك أشار أخونا في الله الفقيه الكاتب سيدي محمد بن

أدريس في القصيدة الجيمية وهي :

وردت وكان لها السعود (8) مواجهها
ويدت طلائع بشرها من قبلها
وتسير ما بين الأباطح والرى
وتصوغ من صافي النضار سبائكا
هبطت إليك من الجبال وطالمسا
وأنتك راغبة تحجر ذيولها
تنساب مثل الأعفوان وتنثني
خطب الملوك نكاحها فتمنعت
فلتهنك الخود الرفيعة قدرها (10)
حمراء عباسية بدوية
وافتك وافية وقد صبغ الحيا
فكأنها بلقيس جاءت صرحها
عرفت أناملك الشريفة أبحراً
فأنتك طالبة الأمان لنفسها
لبتك إذ سمعت نذاك وأقبلت
ونزعتها بالقهر من غصابها

والحسن مقصور على مواجهها (9)
كالشمس طالعة لدى أبراجها
ترمي فريد الدر من أمواجه
حلت بها الأعطاف من ثجاجها
تعبت ملوك الأرض في إخراجها
وتفيض غمر النيل في أفواجها
كالغصن بين وهادها وفجاجها
وأنتك واهبة حلال زواجها
وليهنها أن صرت من أزواجها
نشرت ذوائبها على ديباجها
وجناتها وجرى على أدراجها
لكنسه صرح بغيسر زجاجها
غرقت بحار الأرض في عجاجها
لتنال بعض الطيب من ثجاجها
مرهوية تستن من إزعاجها
والسابقون رضوا ببعض خراجها (11)

فلما جاء مولانا أمير المؤمنين المؤيد انتزعها منهم قهراً وغرس
أكدالا ووجه على الأكارين والفلاحين من أجبالة وأهل تطوان، وجلب
الأغراس المتنوعة من كل بلد وكل نوع غريب وجنس عجيب وأمر الغراسين
فغرسوا والزراعين فزرعوا فلم يمض إلا مدة قريبة فأطعم إطعاماً خارقاً
للعادة، فلما بلغ إبان تعريشه أمر قبائل الجبل أهل الخشب فجاءوا بما لا
يحصى من الخشب فعرشت الأعناب الدائرة مع الأسوار والتي على
الممشآت كلها فجاء على أحسن الهيئات التي تبهر الأفكار، وتكل

(8) كذا بالأصل ومثله في (م) و (شر) وكذلك هو في مخطوطة الديوان بالمكتبة الملكية أما (ن) ففيها (الصعود) بالصاد.

(9) المراج : الكثير التخرج.

(10) في (شر) و (ف) : (منصبا) بدل : (قدرها).

(11) القصيدة أكثر مما أورده المؤلف إذ يبلغ عدد أبياتها 52 بيتاً.

الأبصار، ولا أظن الوهوط (12) الذي كان لعمر بن العاصي رضي الله عنه بالطائف يبلغ عشر أگدال، فإن الوهوط كان يعرّش في كل سنة بمائة ألف خشبة، كل خشبة بدرهم كما ذكره في القاموس، وأگدال لا أظن يكفيه مثل ذلك عشر مرات، وكنت أردت ذات يوم أن أعد جهة واحدة منه فغلطت وضاع الحساب، وكذلك المسرة التي كانت للموحدين لا إخال إلا أنها دون أگدال بكثير والله أعلم.

فلله در مولانا المؤيد ما أعلى همته، وأعظم حرمة، وأكثر نعمته، فإن السلطان الناصر المنصور سيدي محمد رحمه الله تعالى لو وجد السبيل إلى إدراكه لهذا ما كان يكتفي بالنيل أو رضوان أو يحتاج إلى حصيرة أو عافية، وربما أدرك المتأخرون ما عجز عنه كثير من المتقدمين كما قال ابن مالك في التسهيل (13)، ثم لما فرغ مولانا من شأن أگدال رجع لفاس لتفقد تلك النواحي وثور السواحل مع أن أقطار المغرب كلها قد عمها الهناء والسرور ببركة وجود مولانا المنصور المؤيد لاسيما بعد ورود ولده البار المبارك السعيد سيدي محمد، فإنه ورد من تافلات في طالع قد احتفت به السعود من كل جانب، ويوروده تهيأت لمولانا المؤيد جميع المطالب، وأكمل الله له جميع المرادات، وأقبلت لحضرته العالية جميع الإفادات، وأتم الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأفعم بالفتوحات والخيرات موارده ومعاطنه، وكان مولانا أمير المؤمنين المؤيد يذكر من يمن ولده هذا، وبركة وجوده أنه من يوم لاحت غرته، وأضاءت بنورها حضرتها، تحولت حالته من الضيق إلى السعة، ومن التعب إلى الراحة والدعة، وكان قبل ذلك من العيش في شدة شديدة، ومشقة عتيدة، فلما ولد عنده فاضت عليه الخيرات، من جميع الجهات، وكان لما حملت أمه به يترقب مولده ويتشوف إليه، ويتحين زيادته لديه، لأن وليا من الأولياء يقال له مولاي أحمد مشهور بالولاية، لما تزوج أمه هنأه بها وقال له : استوص بها خيرا فإذا ولدت ولدا فسمه باسم النبي

(12) كذا بالأصول المعتمدة والصراب : الوهط بالأفراد والرهط بفتح فسكون وطاء مهملة : المكان المظن المستوى الذي ينبت العضاء والسر والطنح والرهط كما في معجم البلدان قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج كانت لعمر بن العاصي قال ابن الأعرابي بالرهط يصنها :

"عمر بن العاصي بالرهط ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالرهط فقال : أحب أن أنظر إليه فلما رآه قال : هذا أكرم حال وأحسن ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه فقيل له : ليست بحرة ولكنها مسطح الزبيب وكان زبيبه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء، انتهى من معجم البلدان بتصرف.

(13) (التسهيل) كتاب لابن مالك في النحو.

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو سبب ربحك وسعادتك، وسيكون له شأن عظيم، فلذلك كان يستشرف إلى طلعتة الملازمة للبشرى، المقابلة بالرحب والسهل ألفا لا عشرا، هكذا حدث مولانا المؤيد الفقيه العلامة البركة مولاي الهادي إمام الحرم الإدريسي رحمه الله، وأخبرنا الفقيه المذكور بذلك مرارا، والولد المذكور هو أمير المؤمنين اليوم أدام الله عزه ونصره، وزين بدوام سعوده زمانه وعصره، فلما ورد الولد المظفر على الوالد المؤيد استبشر بثبات قدم عزه في مقام الملك الشامخ، والمجد الباذخ، فتهيا لإعمال الحركة للحوز بقصد تخريب القرية الشراذية وتشتيت شمل جموعها، ومحو آثارهم من ربوعها، فكتب لأخيه وخليفته مولاي المأمون أن يحشر القبائل الحوزية أعرابها وبرابرها، ويربط على زرارة والشبانات وأولاد دليم ومن انضاف إليهم، وخرج مولانا المؤيد من فاس بالعساكر السلطانية من العبيد والوداية وأهل الغرب وبني حسن وآيت ادراسن وزمور، وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم موجودة حين يمر عليها، فلما خرج من الرباط تعرض له الحجاج الذين نهبهم اشتوكة والشياطمة الذين في حوز آزمور، وشكوا إليه بهم، فصرف الوجهة إليهم حتى فتك بهم وشرد بهم من خلفهم، وتركهم عبرة للمعتبرين، فامتلات أيدي المحال بأموالهم ومواشيهم بعد ما نسف زروعهم نسفا، وكانت هذه الواقعة طالعة الفتح ومقدمة الظفر.

ثم ازدلف بتلك الكتائب المنصورة، والعساكر المحشورة، حتى نزل على تلك القرية المنسوية الى الشرود، تفاؤلا على رئيسها المخذول المطرود، فحاصرها مولانا المؤيد حصارا هائلا يذيب الحديد، وكان أهلها أولى بأس شديد، وحزم عتيد، فأوقع الله بينهم التنافر والخلاف، لما أراد الله بهم الإهلاك والإتلاف، فدخلهم الجزع، وتمكن منهم الفزع، فطلبوا العفو من أمير المؤمنين والتأمين، فعفا عنهم وأمنهم على شرط أن يخرجوا بأنفسهم وأولادهم وينتقلوا عن بلادهم، وفر صنمهم المعبود، بعدما أنفذ في الدفاع غاية الجهد المجهود، فوقع عليه البحث والاستقصاء فخفي أثره حتى ظهر بعد مدة بسوس الأقصى، وأما قبائله فاجتاحتها الجوائح، وأطاحتها الطوائح، وعاد أمرهم بمنزلة الهباء، والنعم التي أطفقتهم أيادي سبا، وأدركتهم دعوة مولانا سليمان السلطان العادل، التي تنشق لها الحجارة

وصمَّ الجنادل، والله تعالى قد يرجئ المتجاسر على حرماته، ويمهله ولكنه لا يمهله :

وهيهات أن ينجو الظلوم وخلفه سهام دعاء من قسي ركوع

فسلط الله عليهم مولانا المؤيد آخذاً بالشار، بسيفه الصارم البتار، فسقاهم كأس الردى وأراهم كيف يكون مآل الطغيان والاعتداء، وأشمت بهم الأعداء، فتركوا الديار بغير اختيار، وساروا إلى بلاد أزغار، في أسمال الذلة والصغار، تحملهم الإبل ثلاثة أو أربعة على بعير، الذكر والأنثى والكبير والصغير، وأما الأموال والمتاع، وذات الحافر والكراع، فقد سارت بها الجنود المجندة، وتركت عجائزهم ومشايخهم في البراح كالخشب المسندة، ثم لما ظهر مرابطهم بحيث ذكرنا بعد زمان مديد، وجه من يشفع له عند أمير المؤمنين فشفع فيه، وأبدل تلافه بتلافيه، وقابله بالتجاوز والصفح، ثم ولاه على قومه فعاملهم بالإساءة والقبح، فعادت محبتهم المفرطة، عداوة محبطة، فاستغاثوا بالسلطان راغبين في عزله، والإراخة من ولايته بنقض غزله، وتعوذ بالله من رجعة النجم بعد استقامته، ومواخذه العفو الكريم وانتقامته، ثم طلب من السلطان المؤيد أن يأذن له في الحج، فأذن له فحج ورجع، ثم ولاه أيضاً على إخوانه فلم يقبلوه، فعزله عليهم وسجنه مدة طويلة حتى ولي السلطان المظفر أمير المؤمنين نصره الله فسرحه، ولما ورد خبر هذا الفتح لفاس ومكناس، فرحت الناس، وزينت الأسواق، وركبت الخيل للمسابقة، واللعب، وضربت الطبول، وبرزت الزينة، ثم خرجت الأخبية والأبنية والمضارب لوادي فاس للتنزه، ونظم العلماء القصائد في التهاني لمولانا أمير المؤمنين، ووجهها القاضي العلامة مولاي عبد الهادي (14) لحضرة السلطان بمراكش، ولما أنشدت بين يديه بحضور البلغاء النقاد كالوزير الأعظم السيد محمد بن إدريس، والفقيه السيد عبد الله الديباني (15) فوق الأزدراء بالقاضي والفض منه، حيث وجه للحضرة العالية ما لا يناسبها من القصائد الركيكة الخالية حتى من الإعراب فضلاً عن الوزن فضلاً عن أسرار البلاغة التي تزف لحضرات السلاطين العظام،

(14) عبد الهادي هو ابن الفقيه مولاي عبد الله، الحسني العلوي السجلناسي المدغري وكان من الأئمة المعتمدين، والأعلام المشهورين توفي عام 1272 هـ - 1855 م "السلوة" ج 1 ص 117 "الإعلام" ج 8 ص 505.

(15) عبد الله الديباني : لم نلق على ترجمته

وذلك أن القاضي لما لم يكن من أهل هذا الشأن، لم يميز بين اللّجّين واللّجين، فصار كل من أتاه برقعة مكتوبة وقال له قصيدة أريد توجيهها للسلطان أخذها حتى جمع من ذلك شيئا كثيرا من الغث والسمين، والرخيص والثمين، وكان الفقيه العلامة الشريف سيدي محمد بن الطاهر الفلالي (16) حاضرا في الحضرة السلطانية، وكان يقرأ البخاري وكان بينه وبين القاضي منافسة تامة، فبالغ في تشنيع ذلك حين وجد سببا حتى أمر مولانا أمير المؤمنين بعض الحاضرين من الدائرة أن ينعي على أهل فاس ما فعلوه من توجيه تلك الأقوال السخيفة التي لا تليق نسبتها لحضرة فاس التي هي محل النفيس الفاخر من كل شيء، فنظم ذلك البعض ذلك كما أمر، وهو العلامة أبو محمد السيد عبد الله الديباني، ووجهه مولانا السلطان لحضرة القاضي، ووجه معه كتابا يقول فيه : إن من رد علي هذا القائل يقطع رأسه، فقرأ ذلك بحضرة القاضي بعد جمع أصحاب القصائد الموجهة كلهم، وإحضار الدراهم التي أمر مولانا السلطان أن يعطي منها لكل واحد على قدر شعره، حتى إن منهم من جعل له مائة مثقال، ومنهم من جعل له مثقال واحد، ثم إن القاضي أنف من ذلك ولم يظهر كتاب التفاضل وسوى بين العالي والسافل، والشارق والآفل، وكتب إلى السلطان بذلك، وكان مقبول الكلمة عنده، ومن القصائد قولنا :

كأن سميعها فنن مَروُحُ
يباكره هتوننا أو يـروح
فتروح في مضمئها فتروح
تذيل له المباسم أو تبيع
ويسرى بالجماد بهن روح
به من قبل وقعتها جروح
لعزة قدره شرف صريح
فساد لنا به الدين السميع
تشق له المجاسد إذ تنوح
وكانت لا ينهنهها قبيح
فسحقا حين يصرعه الجموح

يشائر لا تحيط بها الشروح
سقى ريع البشير بها غمام
تفديسه المحافل وهو يشدو
وتأمل أن تقبله الغواني
يشائر كاد يسمعها دفين
شفى المولى المؤيد كل صدر
وأدرك ثأر عصبته وأضحى
لقد حسم الفساد بكل أرض
وزر على زرارة كل خزي
وقد كانت تصر على ازورار
ومن كانت مراكبه جماحا

(16) محمد بن الطاهر الفلالي : لم نلف على ترجمته

أَتَبِـحْ لَهُمْ لَحْيُنْهُمْ جَهْلُول
يَقْشُرْهُمْ إِلَى الْعَصِيَّانِ سِرَا
يَحْدُثْهُمْ إِذَا مَا حَمَّ (17) خَطْبُ
هُوَ الدَّجَالُ فِي سَمْتٍ وَفَعْلُ
فَأَهْلَكَهُ الْإِمَامُ فَكَانَ عَيْسَى
فَصِـرَّ دَارَ مَنْعَتِهِ فَـلَاةُ
وَفَرَعْنَ الذَّمَّارَ عَلَى حِمَارٍ
فِيهَا لِسُومِ الذَّلِيلِ فَلَا وَهِيْنَ
وَوَيْسِرَ مَنْ حَيَاةٍ فِي هَوَانٍ
أَيْطَمَعُ فِي النِّجَاةِ فَلَا نَجَاةُ
إِذَا كَانَ السَّرَابُ لَهُ بِحَارَا
سَتَدْرِكُهُ الْعِزَائِمُ مِنْ إِمَامٍ
إِمَامٍ قَدْ أَعَادَ لَنَا سِرُورَا
أَعَزَّ اللَّهُ مَلِكَ بَنِي عَلِيٍّ
وَجَرَدَ مِنْ جَلَالَتِهِ حَسَامَا
وَقَدْ كَانَ الْخَلَائِقُ فِي ظَلَامٍ
وَأَصْبَحْتَ الْمَكْسَارُ بِأَسْمَاتٍ
أَغْرَ مَعُودَ لِلنَّصْرِ سَاعٍ
يَخَاطِرُ فِي مَنْسَالِ الْعِزِّ دَابَا
فَرَايَاتِ السَّعُودِ عَلَيْهِ نَشْرُ
أَبَا زَيْدٍ فَأَنْتَ لَنَا مَلَاذُ
فَقَدْ زَانَتْ مَآثِرُكَ اللَّيَالِي
وَهَذَا الدَّهْرُ كَالطُّوفَانِ مَوْجَا
وَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَانِ مَنْ لَا
كَمَا أَنَّ الشَّبَابَةَ حِينَ زَاغَتْ
عَصَفْتَ عَلَيْهِمُ بِالْبَأْسِ تَرْجِي
فَأَلْقَيْتَ الْجُرَانَ عَلَى ذُرَاهِمِ
فَجَاءَ الْعَفْوُ مِنْكَ وَهُمْ ثَلَاثُ

غَوَى لِلضَّلَالِ لَهُ جَنُوحُ
وَيُظْهِرُ أَنَّهُ الْبَسْرُ النَّصْرُوحُ
حَدِيثًا كَانَ مَصْدَرُهُ سَطْبِيحُ
فَمَنْ يَدْعُوهُ مَهْدِيًا وَقَبِيحُ
كَذَا الدَّجَالُ يَهْلِكُهُ الْمَسِيحُ
عَلَى أَطْلَالِهَا الْبُيُوتُ السَّنِيحُ
عَلِيلُ الْعَرَضِ جَوْجُوهُ صَحِيحُ
فَيَعْسُذُ بِالْفَسْرَارِ وَلَا جَسْرِيحُ
يَبْسُو بِهِ الْفَتَى مَسُوتٌ مَرِيحُ
سَيَدْرِكُهُ الْهَزِيرُ الْمُسْتَبِيحُ
تَخْوِضُ إِلَيْهِ سَلْهَبَةُ سَبُوحُ
تَدُكُ لَهُ الْمَعَاقِلُ وَالصَّرُوحُ
وَجَادَ لَنَا بِهِ الزَّمَنُ الشَّحِيحُ
بِصَوْلَتِهِ وَتَمَّ لَهُ الْوَضُوحُ
يَزِيلُ بِهِ الضَّلَالَةَ أَوْ يَزِيحُ
فَلَاخَ عَلَى الْخَلَائِقِ مِنْهُ يَوْحُ (18)
وَكَانَ عَلَى مَنَاطِرِهِمَا كَلُوحُ
إِلَى الْعِلْيَاءِ مَسْعَاهُ نَجِيحُ
بِرَأْيِ كُلِّ مَدْرِكَةٍ رَجِيحُ
وَسَاحَاتِ الْفَخَارِ لَدَيْهِ جُوحُ
وَجَاهُكَ فِي الْمَهْمِ لَنَا فَسِيحُ
وَلَاخَ لِعَدْلِكَ الْوُجْهِ الْمَلِيحُ
وَطَاعَتِكَ السَّافِينَ وَأَنْتَ نُوحُ
تَسْؤَمْنِسُهُ فَمُشْرِيسُهُ نَشْرُوحُ
وَهَبْ لَهَا مِنْ الطُّغْيَانِ رِيحُ
كَتَائِبُ كَالسَّحَائِبِ إِذْ تَلْسُوحُ
بِجَيْشِ كُلِّهِمْ بِطُلِّ مَشِيحُ
أَسِيرُ أَوْ كَسِيرُ أَوْ ذَبِيحُ

(17) نرى (ف) : (ط) بدل (ح).

(18) يوح بالياء المثناة اسم من أسماء النسر.

وقد قسمت بلادهم يعول
وكم نطحت مكايدهم قديما
فظننوا آل إسماعيل يرزوا
وما علموا بأنكم سيفوف
أبا زيسد إذا تبقسى عليهم
فلا تحلم فإن الجرح يكوى
فلا زالت بك الدنيا عروسا
ولنا أيضا باقتراح القاضي للقافية والوزن لبساط اقتضى ذلك :

فرحا يدوم لنا على الآباد
جاد الإله وذاك من أوصافه
لما أفاض على الأمير مواهبها
مازال ينصره على أعدائه
حتى أقام به قواعد ملية
فالدهر مبتهيج وكل زمانه
ملك مواطئه النجوم وخيله
ملك يذيب المرفقات جلاله
إن كان ينماع الحديد لبأسه
فليذهب الضليل طوع عنانه
بأغ تباشرت البلاد لفقده
وليهنأ المولى المعظم قدره
شيخ الجماعة عالم العلماء من
زاك تلت أيامنا آياتسه
وأغاث ربع الدين صيب علمه
يا أيها العلم الملوذ بظلمه
زفت لك العليا زف خريده

ودورهم كما قسم الوطيسح (19)
بنى سعد وزيسدان نطيسح
بغير الحزم طرفهم الطمسوح
بحدكم نجيعهم سفسوح
بصفح ريمنا نسد الصفوح
طريا بالمحاور أو يقيح
ومجدك من مفارقها يفوح

ورد البشير بمبرد الأكباد
بمسرة تسري بكل فؤاد
ظفرت مقاصده بكل مراد
سبحانه ذو الفضل والامداد
جلت مآثرها عن التعداد
آناؤه في الحسن كالأعياد
مستننة بمرايض الأسباد
ملك يهد رواسي الأطواد
أنى يلام الشارد الشرادي (20)
فالسيف حول النطع بالمرصاد
فلتهنأ البشرى لكل بلاد
قاضي قضاة العصر عبد الهادي
هو واحد في مجمع الآحاد
لتعسوذ من جنسة الإلحاد
فأنشق زهر العدل والإرشاد
من حر أزمان علينا شداد
فأتيتها بجواهر الإنشاد

ومما أعجبني من تلك القصائد المتكاثرة قول بعضهم وأظنه الفقيه العلامة
أبا محمد عبد الله الديماني أبقاه الله أمين.

(19) الوطيسح : حصن من حصون خيبر.

(20) هو المنصرم عليه في وقعة زانية الشرادي. حيث هنا المولى عبد الرحمن بهذه الدالية لانتصاره على الشرادي وجماعته.

بشري تقرر بأعين الإيمان
جاء الزمان بها على مقداركم
أين المفر لمن عتا عن أمركم
ألا هو (21) أمر الله غير منازع
يا من يطالب أمرهم بدلائل
إن كنت تجهل فالحسام معلم
كم من غوي قد عتا عن أمرهم
أين المفر لكل من شق العصا
لم يمنع الأعداء من مؤسمة معقل
لكهنم بآءوا بأخسر صفقة
جيش تسد وفوده مسرى الصبا
يا مالكا ملأ الوجود محاسنا
أجريت بين المعتفين مكارما
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف
إنسان عين الدهر أنت، وإنما
ذكراك في الأفواه يعذب كاللحم
أيقظت جفن الحق من إغفائه
ألقي لك الزمن العصي زمامه
فالدهر دونك دافع ومدافع
فاذا أشرت في الزمان لمقصد
أخلصت للرحمان في طاعاته
ألقيت رحلي في ذراك مخيما
وتركت أوطاني وجئت وإنما
يا ليت قومي يعلمون بأنني
لا زلت في أسعد مبسوطة

كالوصل ينسخ دولة الهجران
فتقاصرت عنها خطى الأذهان
أتسرى البغاث تفسوت للعقبان
لاح الصباح لمن له عينان
أتطالب البرهان بالبرهان
يشقى البرئ به ويشقى الجاني
كسرارة فسرى إلى الخسران
يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
لو أنهم صعدوا إلى كيوان
فكانهم عصبوا أبا غيثان (22)
وتهد وطأتسه ذرى ثهلان
لا تختفي عن أعين العميان
يسلو الغريب بها عن الأوطان
إلا بفضل نداكم الهتسان
تكميل شكل العين بالإنسان
وتخف كالشري على الآذان
وأقمت ميلة عطفه الكسلان
وعنا لطاعة أمرك الثقلان
وصروفه لكم من العبدان
كان القضاء لكم من الأعوان
فلذا دعيت بعابد الرحمان
فجريت في الآمال طوع عناني
من فرط حبك غبت عن أوطاني
من جودكم أرد الفرات الثاني
مقبوضة عنها يد الحدثان

ثم وجه السلطان أخاه مولاي المأمون بن هشام لاقليم سوس وجباية
زكواتهم، ورجع السلطان لفاس ووجه القائد محمد أميمون الجرواني عاملا

(21) كذا بالأصل ومثله في (ك) و (ش) و (ف) أما (م) ففيها : (الأمر أمر الله...) وبه يستقيم عروض البيت.

(22) كذا بالأصل ومثله في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها : غصبرا بالغين وهو الأنسب للسباق وأبو غيثان هو المحترش بن
جليل الخزاعي كان يتولى سدانة الكعبة قبل قريش وكان اجتمع مع قصي في مجلس شراب فأسكره قصي واشترى منه مفاتيح الكعبة
بزق خمر وضربت به الأمثال في الندامة وخسران الصفقة... انظر تاج الرنضي ج 4 ص 329 مادة غيث.

لطنجة، وعزل العربي السعيد، ووجه السيد الطيب البياز أمينا على مرساها، ووجه سيدي محمد بن الطيب لتافلات وكان واليا على الشاوية ودكالة وقبائل الحوز فعزله وتوجه للصحراء فأخفق مسعاها فيها ولم يجد شيئا فرجع، ووجه السلطان لوجدة فرجع كذلك بلا طائل.

ثم لما أخذ العدو الكافر بلاد الجزائر وذلك في محرم سنة ستة وأربعين ومائتين وألف جاء أهل تلمسان ووهران وأعيان تلك المملكة الى مولانا السلطان المؤيد، ورغبوا في الدخول تحت طاعته والاكتماف في كنف ولايته، فامتنع من ذلك وشاور في أمرهم أعيان الدولة وأهل دائرته، فاختلف الناس عليه في ذلك، فمنهم من زين له ذلك وقال له : إنما هي طعمة باردة، وسلطنة زائدة، كثيرة الفائدة، ومنهم من نهاه عن مقاربتها على كل حال، وهؤلاء هم أهل العقول الراجحة، والآراء السليمة، والطريقة الواضحة، فقالوا إن تلك الناحية تنور متقد الجمار، لا يصلح تملكها إلا لكل جاف جاهل حمار، كالأترار السفهاء الأغمار، وأنها ما أضيفت لهذه الدولة قط إلا أثرت فيها فسادا وخللا، وأظهرت فيها آفات وعللا كما علم ذلك في أخبار الدول السالفة، وكان ممن زين له في قبول ذلك القاضي مولاي عبد الهادي لعدم اطلاعه على أحوال سابقى الأمم، وأخبره بذلك بعض الناصحين ليرده عن ذلك، فكان في حاسة سمعه صمم، وكان مولانا السلطان المؤيد يعتمد رأيه في المهمات، والنواب العظام الملهمات، فقبل السلطان مرغوبهم، ووجه معهم المحلة من العبيد والوداية، وحراك القبائل الغربية مع ولد عمه مولاي علي بن سليمان، وكان مولانا المؤيد قد انتقى تلك المحلة ولم يتوجه فيها إلا الأعيان، وكانت كلها رؤساء، مثل الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر العقيلي، وابن فرحون، وإدريس بن حمان (عامل وجدة) (23) وأمثالهم من العبيد، وكان الوداية قد تناهوا في الصعود والعروج، حتى مالت بهم السروج، لأن مولانا السلطان قد بالغ في إكرامهم، وإعلاء شأنهم، وكان ذلك سببا في فسادهم وطغيانهم، فلما بلغوا تلمسان وجلسوا بلا شغل ولا قتال ولا ترويع وجدوا تلك البلاد كالغنم السائمة، التي مات راعيها وكل واحد يقول : أنا لها، فانتشأ من

(23) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

ذلك فساد البواطن، وتكدير المعاطن، فلما رجعوا رجعوا كذلك، فأنهي ذلك إلى علم مولانا المؤيد فأمهلهم أياماً ثم دعا ابن الطاهر العقيلي وكان هو قائد المغافرة، وعلى مركزه كان مدار ذلك الفساد، فلما وقف بين يديه وبخه وشنع عليه سوء أفعاله وعددها، ثم أمر بقبضه وتوجيهه للسجن، فخرجوا به وهو يضحك لأنه في صبيحة ذلك اليوم تحزبوا على أن من قبض منهم يطلقه الآخرون، فلما بعدوا به عن باب دار السلطان وجدوا الطاهر بن مسعود وحزبه جلوساً في الطريق، فقاموا وأطلقوه من يد من جاءوا به بعد محاربتهم حتى جرحوا إدريس البواب أحد القابضين له، فقامت حمية أصحاب السلطان لمدافعتهم فغلبتهم شيعة أهل الفساد، لأنهم قد استعدوا لذلك والناس غارون غافلون، فماجت فاس الجديد موج البحار، وبرزت ضباب الفتن بعد الانجحار، وزلزلت الأرض زلزالها، وأظهرت الدنيا أهوالها، ونكرت أحوالها، وأظلمت من فاس البالي أرجاؤها، وسبقت عند منقلب الدود عرجاؤها، وأشاع المرجفون أن السلطان قتله الوداية فتسارعت الغوغاء والهمج إلى الطيب الوديني عامل فاس يريدون قتله، فهرب ودخل داره وسد الباب، وتفرق من معه من الأعوان والأصحاب، وأما مولانا المؤيد فإنه لما وقع ذلك ركب وخرج من باب البوجات، وتبعه أصحابه ومن حضر معه من العبيد المسخرين وغيرهم، منهم من ركب، والجل على أرجلهم، فلما رأى الوداية السلطان خرج ركبوا وخرج أهل قصبة اشراقة بحذافيرهم وأدركوا السلطان عند قنطرة عياد، فنزلوا إلى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له، ويتبرأون من فعل السفهاء، وكلهم في الحقيقة سفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف، والشمس قد غربت أو كادت تغرب، فساعدهم على الرجوع فرجعوا به إلى قصبة اشراقة لدار ابن فرحون، ثم تلاحقت عقالهم وكبراؤهم فجاءوا وطرّدوا الغوغاء فركب السلطان فجاءوا به حتى دخل الدار العالية، فلما أصبح طلع أهل فاس الحاج الطالب بن جلون والأشراف والعلماء ورؤساء الوداية غير الطائفة المتمردة، وأخذوا بخاطر مولانا المؤيد فأظهر لهم الرضى والعفو، فسكن الحال بعض السكون، فجلس السلطان أياماً حتى اطمأنوا وظنوا أنه نسي فركب في غفلتهم وذهب لبستان أبي الجلود، فانحازت أصحاب السلطان كلهم لفاس البالي، العبيد والأحرار، ووجه السلطان لعبيد البخاري بمكناس

أن يقدموا عليه، فجاء القائد بوسلهام وأصحابه المسخرون والتباعة، فلما قربوا من فاس ركب الوداية وتحالفوا أنهم لا يتركون العبيد يدخلون، فحاربوهم حتي دخلوا رغما على أنوفهم، ومات من الفريقين عدد كبير، فدخل العبيد لقصبة أبي الجلود مع السلطان وأهل فاس، وبقيت الوداية وحدهم، ثم تهيأ السلطان للخروج فخرج على طريق قبقب على بلاد أولاد جامع، وكانت الوداية قد وافقهم بعض البرابر فتبعوا المحلة يوم خروج السلطان فنهبوا كل من تأخر، فبلغ السلطان دار ابن يش، ومنها توجه لمكناس (وقد اختصرت هذه القضية أشد اختصاراً، وليس لقصور في اللفظ ولا لانهصار، ولكن المجال فرج والمقال ^{٢٤} بر منفرج) (24)، فكتب للقبائل كلها للحوز والشاوية ودكالة وبنى حسن وأهل الغرب وزمور وآيت ادراسن، فاستعد السلطان للحركة إليهم غاية الاستعداد، فلما تهيأ لذلك زحف إليهم بتلك الجنود التي لا قبل لهم بها، وكانوا في أثناء المدة التي أقام السلطان بمكناس يستغفرون القبائل في الدخول معهم في حزبهم، فبعضهم يعدهم ويمنيهم، وبعضهم يردهم خائبين، وكان أولاد جامع ممن خالفهم وجاهرهم بالرد، فاستضعفهم الوداية وركبوا إليهم يظنون أنهم يستأصلونهم في ساعة واحدة، فأعان الله أولاد جامع فهزموهم هزيمة قبيحة، فقتلوا منهم عددا كثيرا وأخذوا كثيرا من الخيل والعدة ورجعوا خائبين، ثم لما أراد الله تعالى فضيحتهم والانتقام منهم، وجهوا طائفة منهم لابن الطيب وهو عامل بتازا وجاءهم مسرعا، ويأيعوه فبذلك تبرأ جميع الناس منهم لأن ابن الطيب مبغوض عند جميع المسلمين (فلم يوافقهم على ذلك أحد إلا ما كان من جماعة من أهل العدو أحداث أغمار استهوتهم الأوهام، وخانتهم العقول والأفهام، فخطبوا بابن الطيب يوم الجمعة بجامع الأندلس، وكان الخطيب لهم الشريف سيدي عبد الوهاب القادري (25) ولم يساعدهم أحد من أهل فاس البالي على ذلك، فانفرد الوداية بجريرتهم حتى أخذوا بسوء سريرتهم) (26)، فلما جاء السلطان نزل عليهم وحاصرهم ونصب عليهم المدافع والمهاريز، فكان الضرب عليهم من المحلة بعين قادوس ومن يستيون بو الجلود وبستيون باب الجيسه وبستيون باب الفتوح، والقتال عليهم كل يوم

(24) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما. وفي (ش) فرج مكان حرج.

(25) عبد الوهاب القادري ت 1282 هـ 1865 م «الرفيات» ص 70.

(26) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما.

من كل ناحية، ولا يدخل إليهم شئ من المرافق حتى أشرفوا علي الهلاك، فوجهوا للحاج الطالب بن جلون وطلبوا منه أن ينظر في الصلح مع مولانا المؤيد، فكان يتردد بين السلطان وبينهم أياماً، والسلطان كان عزم على المقام عليهم حتى يحو آثارهم من الوجود، ولو أقام عشرة أعوام، وأراد البناء عليهم وجاء اللواحق وشرعوا في البناء، ثم لم يزل الحاج الطالب وقواد العسكر ورؤساء الأجناد يرغبون من السلطان في قبول التوبة منهم والصفح عنهم حتى أنعم بذلك علي شرط الخروج من فاس الجديد، فقبلوا ذلك علي أن يمهّلهم ريثما يتهيأون، فأمهّلهم وخرجوا للاستشفاع بالصبيان والألواح والمشايخ والعجائز، ومعهم سلطانهم المذكور، فأظهر لهم مولانا المؤيد العفو والقبول، ثم ارتحل لمكناس وأطفأ الله نارهم التي أوقدوها، فلم يحترق بها أحد غيرهم [ومن ساعدهم من أهل العدو] (27)، «وقد أعرضنا عن شرح حقيقة هذه القضية الهائلة فإن شرحها يفوت المقول وبذهل العقول» (28)، ثم بعد ذلك أمرهم مولانا بالارتحال متفرقين، فرحل الوداية للعرائش، وأهل سوس للرباط، والمغافرة للحوز، وذلك بعد ما رجع السلطان لمراكش، ثم قبض على الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر وابن فرحون وأمثالهم من مساعير الفتون، وأما إدريس بن حمان فهو مومن آل فرعون من أول الأمر إلى آخره، وهو محل نظر السلطان وعيبة أسرارهم معهم، فأنجاه الله تعالى وأبقى السلطان عنايته عليه، ورفع له منار العز في قومه حتى مات وسدل ذلك الرواق على أولاده، ثم لما استقر السلطان مولانا المؤيد بمراكش أمر بقتل الطاهر بن مسعود وابن الطاهر في الموضع الذي أطلق فيه الأول الثاني، وكان الذي وقف على قتلهما الحاجة زويدة^(*) إهانة لأمرهم، ومن حلم مولانا ورحمة الله التي جبله الله عليها وملأ بها باطنه لم يواخذ غير هذين اللذين هما أصل الفتنة، وقد كان أراد العفو حتى عن هذين لأنه نوى أن لا يواخذ أحداً كما حدث عنه بعض جلسائه، قال : وكل من عاقبه السلطان على هذه الفتنة إنما كان بالحاج رجلين عينهما فأعرضنا نحن عن تسميتهما غفر الله لهما.

(27) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(28) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(*) الحاجة زويدة عريفة الدار العالية بالله.

ثم وجه السلطان وصيفه ابن عبد الصادق لسوس وكان واليا على
مراكش فأمره أن يترك خليفته بمراكش الحاج عمر النجار، وذلك بعد فراغ
مولانا المؤيد من إقامة العرس المبارك الذي ما سمع مثله منذ أزمان، وهو
عرس ولده البار مولانا محمد أمير المؤمنين المظفر، فقد احتفل به غاية
الاحتفال، وأظهر فيه من الأبهة الملوكية، وزينة الحياة الدنيا السلطانية،
الخارقة للعوائد، الدالة على ضخامة الملك وفخامته، مما تذهل العقول عند
سماعه، وتكل الألسن عن وصفه، وكان ذلك بحضرة مراكش، وأمر
السلطان أهل فاس والقري والمدائن كلها أن يوجهوا العلماء والأشراف
والأعيان والتجار، وأكابر كل حرفة، فجاء أمين الأمناء وقهرمان الدار
العالية السيد علال الشامي، وحشد كل من يحسن شيئا من أنواع الطبخ
من أهل فاس وأهل تطوان وأهل الجزائر المستوطنين بفاس، وكل أهل
الموسيقى وأنواع الملاهي والطرب والآلات المعدة للأفراح والسرور، فلما
وردوا مراكش هبى لهم محل متسع من بساتين السلطان بالقصبة يسع
العالم، فاشتغلت كل طائفة بما هي بسبيله، وقد فرشت القباب والمنازه
والمقاعد والمجالس بالفرش المنضدة، والستور المزخرفة، والبسط الديباجية
المذهبة، وأقيضت نعم الله وبركاته الواكفة على الحاضرين، الخواص
والعوام، ولم يحجب فيها أحد، واستمر الحال على ذلك عدة أيام حتى سئم
الناس من ترادف الخيرات، وتكرر المفرجات المسرات، وكثرة الغيث والمطر،
قد يعد من الخطر، وبالجمل، فهي وليمة تجلى الله فيها بصفة الإحسان
والرضى، وأشرق نور جماله على الكون فأضأ، وانهلست مواهبه فطبقت
الفضا، ونودي لها كل حسن بلسان الكمال فأجاب النداء، وأهانت هذه
الوليمة وليمة بوران وقطر الندى، ومن بركات هذه الوليمة أن مولانا المؤيد
بفراغه منها استوى على كرسي السعادة والراحة، وأتته جميع المقاصد من
غير أن يوجف عليها خيلا ولا ركابا أو يمد إليها الراحة، فإنه صدر ولده
العروس، السلطان المظفر المحفوظ المحروس، فألقى إليه جملة أمره بأزمته،
وفوض إليه كلية ملكه برمته، فكفاه جميع المهمات، قام دونه في النوائب
والملمات، فتمهدت الأقطار بيمن إمرته، وسعادة غرته.

ولما زهد مولانا المؤيد في إيالة الجزائر، وتخلى عنها بعد ظهور
شؤمها، وخستها ولؤمها، طمع فيها كل فتان مغرور، كولد محيي الدين

المعسكر موقد نيران الشرور، وكان مولانا المؤيد في أول الأمر ربما أعانه وأمده، لأنه يظن أنه في تلك الناحية لأهل الإسلام عدة، وأن طلب الحق هو الذي أنهضه وأعدده، ففما أمره حتى بلغ أشده، وبرقت له بارقة فتعدى طوره وتجاوز حده، حتى إنه من فرط جهله، طمع في مملكة المغرب كله، وكان يصرح بذلك جهاراً، ويظهره في محافله إظهاراً، فجعل يستهوي بعض القبائل الريفية والجبيلية. وشاع ذلك حتى تحققه مولانا المؤيد فوجه محلة لتلك القبائل يستكشف باطن الحال مع القائد محمد بن سالم الأحمر المالكي العروبي، فقتل غيلة ورجعت المحلة، فازداد بذلك طمع المغرور، فجعل يحبو في تلك النواحي إلى تازا حبو الخائف المطمئن، تارة يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يتيامن وتارة يتياسر، ثم دبر مكيدة، ووجه شرذمة عتيبة، وأمرها أن تظهر أنها منه فارة هاربة، مع أنها مستبظنة أفاعيه وعقاربه، فجاءوا حتى قربوا من فاس ونزلوا، فطلبوا التأمين والأيواء، وزاد هو في حبوه وزحفه حتى نزل بالقعدة الحمراء، وهو يخفي أموراً ويظهر أمراً، فلما تفتن مولانا المؤيد لتلك الدسيسة أمر باجتياح تلك الشرذمة الخسيسة، فسارت إليهم الخيل والرماة، فدافعت بالقتال الشديد عن الأموال والحرمات، حتى إن منهم من قتل بنته وحليلته مخافة أن تؤسر وتهان بعده، ويتقابل اثنان منهم وقد أطلع كل منهما مكملته، فيقول كل منهما لصاحبه أخرج في وأخرج فيك فيموتان معاً، فلما حيل بينهم وبين ما يشتهون، وسمع المغرور ما وقع بقومه تأخر ويش من نجاح تلك المكيدة، فرجع إلى برابر الريف الصم البكم، فاشتغل فيهم بالإغواء يعدهم ويمنيهم، ويبعدهم من الخير وإلى الشر يدنيهم، فاشتد أمره فيهم وتمكن ناموسه، فخرج إليه أمير المؤمنين السلطان المظفر سيدي محمد بأمر والده بالعساكر المنصورة، والقوة القاهرة الغير المقهورة، فلما نزلت المحلة السعيدة بقرية، خنس إلى الكيد على عادته ودأبه، فنادى في تلك البرابر الريفية، فجمعهم وأمرهم أن يتأهبوا في ليلة عينها لهم لتبئبت المحلة، وقال لهم : إنه لا قدرة لنا على مكافحتهم نهارة، فجاء من أخبر مولانا المظفر، فأخذوا أهبتهم، فجاء المغرور في أثناء الليل بحرب شديد، فلم يصادف إلا النار والحديد، فرجع يجر ثياب الصفار والذلة والمهانة، بعد إنفاذ غاية الغلظة والمتانة، فأصبح في حوالي المحلة من جشتهم وجيفهم ما لا يعد ولا

يحصى، فأقلع عن محله متأخراً، فتبعتهم المحلة فضربت بقربه ثم صدمته صدمة الختام، ففر في سدفة العجاج والقتام، وترك مضاربه وخيامه، واستقبل ليالي الخزي وأيامه، وتوجه نحو بر النصارى، واتخذهم أعواناً على أهل الإسلام وأنصاراً، ورجع مولانا المظفر ترف بالويتة رياح النصر، وتقدمه السعادة التي لا نهاية لها ولا حصر، فلما بلغ حضرة مراكش أنشدته القصيدة النونية (29)، المتضمنة للتهنئة بالمظفر وبلوغ الأمنية.

وكانت خلافة مولانا المظفر عن أبيه مولانا المؤيد كخلافة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن أبيه مولانا عبد الله سواء بسواء، فقد أدرك كل منها في أيام أبيه ما لا يقدر قدره، وخلد كل منهما من المآثر وشيد كل منهما من المباني والمصانع ما تعجز الأقلام عن وصفه، أما سيدي محمد بن عبد الله فقد تقدمت آثاره في رايته وراية أبيه، وأما مولانا المظفر فإن آثاره في أيام أبيه لا تحصر، فمن ذلك إجراء الأنهار، وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها فتركوها بائدة مع كونها في أبواب ديارهم، ومناط استنباطهم واختيارهم، فنهض إليها مولانا نصره الله فأحيها بعد مماتها، ونسخ آياتها، فصير القفار رياضاً ناضرة، ذات أزهار عاطرة، وثمار حاضرة، وغلل متكاثرة، وفاخرت بها مراكش غوطة الشام، وأنست بني مروان ملوك بني مولانا هشام، فمن ذلك تكميله ما أنشأه والده المؤيد من أغراس أگدال، فإنها في زمان المصيف تنالها المعطشة الفادحة، لأن البرك والصهاريج التي كان يخزن فيها الماء ويدخر من الشتاء للمصيف كما كان ذلك في أيام مسرة الموحدين قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين التي تجلبها السيول إليها حتى بطل الانتفاع بها، وأكبرها البركة العظمى التي بدار الهناء، وكان يقال لها البحر الأصفر، لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشأوها جعلوا فيها الزوارق والفاك الصغار للبتفرج والتنزه بها، وفي ذلك الصهريج غرق أحد ملوكهم وهو عبد الواحد بن المأمون كما تقدم في لوائهم، وطول هذه البركة اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة كما أخبرنا من قاسها، وهي أيضاً مردومة عاطلة، وكانت دائرتها المربعة بمنزلة سور قصبة، فجاء من بني في وسطها قرية

(29) لم نلق عليها فيما تبقى من شعره.

بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء مولانا محمد المظفر فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة، حتى صارت كالرعى والهضاب العالية، لاسيما البحر الصغير الذي هو البركة الكبرى، فاجتمع على ذلك عوالم من المخلوقات حتى أفرغوا ما فيها وعادت البرك الى حالها الأول الذي وضعت لأجله، وهو اختزان الماء لوقت المصيف، وبذلك كمل المراد من أگدال وصار آمنا من العطش والهلاك، ومن ذلك أيضا إحياء عين أبي عكاز خارج المدينة بخرج إليها على باب الطبول، وتلك العين أيضا من آثار الموحدين، ولها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا، فقام إليها مولانا المظفر ففجر لها عينا غدقا وأجراها إلى البركة التي صار طينها المتراكم طبقا طبقا، فأمر نصره الله بإفراغها وتنقيتها وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها، فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاة، تغني الزارعين، وتبهج الناظرين، وبني نصره الله حولها قلعة عجيبة يأوي إليها الحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هناك من الخيل الإناث المعدة للنتاج عددا كثيرا، ومن ذلك أيضا إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الصغير الذي بدار الهناء المتقدم الذكر، وهي أيضا من آثار الملوك الموحدين أبناء عبد المؤمن بن علي، إلا أنها تعطلت منذ أزمان، فقيض الله لإحيائها مولانا السلطان المظفر، فأجرى لها العيون والأنهار، وجمع الخلائق لإخراج الجبال التي في جوف البركة وإلقائها خارجا، ورتب العملة في إصلاح ما اختل من حيطان دائرة البركة، وفي أقرب زمان عادت كأحسن ما كانت عليه، فأمر نصره الله بغرس ما دار حولها من الفضاء المتسع بأنواع الأشجار من الزياتين والتيون والفواكه الصيفية والخريفية، ضاهى بها أگدال الذي أنشأ والده المؤيد، فلما رأى مولانا المؤيد ما ابتكره سيدنا ومولانا المظفر تعجب من تسخير الله له ما عجز عنه الأولون والآخرون، وعلم أن قدرة الله تعالى لا تحد بحد، ولا تقيد بقيد، ومن ذلك أيضا إجراء النهر المسمى بتارقي المستمد من وادي نفيس، فإنه ضاهى به النهر القديم السلطاني المسمى بأسكجور، وهذا النهر للمحمدي الجديد أنفع منه وأوسع مجالا، فقد أحيا الله به تلك البساتن، التي بين مراکش ووادي نفيس، وصار النهران به القديم والجديد بمنزلة الفرات ودجلة بأرض العراق ببركة مولانا المظفر، وقد كنت خاطبته نصره

الله لما أبطأ بفاس في بعض حركاته بالقصيدة الرائية وذكرت فيها المصانع المراكشية تشويقاً له واستدعاءً وهي هذه :

هل اذكّرت أحبابهن العشائر
وطرفي من طول التفرق ساهر
عشاراً وتحكيها الجياد الضوامر
سرى من حواليتها الخليلط المجاور
هويتهسم والله ربي قادر
عداة بأيديها الصفاح البواتر
لغايته لا شك فالأمر قاصر
فتنزاح بعد الانصداع الدياجر
فقد جاء نصر الله والفتح ظاهر
محمد سيف الله للدين ناصر
ومن أهله يرضى الفتى من يوازر
تراثهم ملك السورى والمفاخر
أوائله مشهورة والأواخر
وأخواله مثل البذور زواهر
سواه إذا دارت عليه الدوائر
رءوس الأعادي لا تقيها المغافر
أماماً وخلفاً حيث ما هو سائر
لها عسزه ناه لهن وآمر
لها النقع غاب والسيوف أظافر
تناقلها في الناس باد وحاضر
فما هو راء فهو بالنجح سافر
صحاحا ونالت ما تروم المكاسر
دعاك اشتياق في الجوانح ثائر
فكلهم من فرط حبك سادر
يزايل عنها الصبر من هو صابر
تحار برآها الأنيق النواظر
تحف بها الأدواح وهي نواضر
ظباء تجاريها لها والجآذر

لك الخير تحدوه إليك البشائر
أراهم على شحط المزار هواجعا
تحن إليهم كل حين ركائسي
وترقص ما بين المرباط كلما
أما والذي لو شاء قرب دار من
لقد نال منا البين ما لا تناله
ولكن إذا ما الأمر بالغ وانتهى
وقد آن من نور الصباح انصداعه
إذا ما بدا وجه الإمام محمد
محمد نور الله في الأرض كلها
سليسل أمير المؤمنين وزيره
وشبل ملوك من ذؤابة هاشم
يجاذبه أنسى تلفست سؤدد
فأعمامه مثل الشموس ضواحيا
هو الملك الجحججاح ليس لمعتف
هر السيد المرهوب يفلق بأسه
يسير فتغشاه السعود مطيعة
وتختفق الرايات فوق كتائب
أسود على جرد إذا احتدم الوغى
هو العالم البحر المحيط علومه
تضيء وراء الغيب أنوار رأيه
به جبر الله المغارب فاغتدت
أسيدنا يا كهفنا يا إمامنا
دعاك إلى هذي المواطن أهلها
دعاك إلى أرض البديع منارة
مبان كما شاء الجمال تكونت
قياب على سمت السعادة شيدت
فمنها التي في النيل تلعب حولها

قد ابتهجت في جانبها المشاور
قد اعتدلت أهواؤها والعناصر
مفتحة تفتت فيهما الأزاهر
يلذ بها للسامعين المزاهر
يردد فيها الطرف والطرف حائر
منسارة عز ترتضيها المنائر
فليست تظاهيها البحار الزواجر
وليس يحاكيها زرود وحاجر
وبهجتها إلا بأنسك حاضر
فكم حاز إدراك المنى من يبادر

وفي مدخل رضوان أخرى تصويت
وأخرى على أرض المصلى مطلة
وفي وسط الزهراء ذات مجالس
ودار الهنا حول الخليج مقاعد
وفي ابن عقيل للمقبل مسارح
كذلك أگدال الصغير الذي له
إذا انفجرت تلك المنارة أو جرت
وليس لفاس مثلها برياضه
ولكنها لا يستتم جمالها
فبادر أدام الله عزك وصلها

ومن ذلك أيضا إجراء النهر الذي جلبه من تاساوت إلى بسائط القفار
التي بين بلاد زمران والرحامنة والصراغنة وهي المسماة بفيطوط من جملتها
كدي قملالت فعاد ذلك كله رياضاً مخضرة، وبساتين ذات أزهار مفتحة،
ومزارع مضمونة، ومحارث مأمونة، وغابات من الزياتين ظليلة، تنظر
الأبصار إلى غايتها فتراجع كليله، وينى فيها مولانا المظفر قصبة عامرة،
يصرف فيها الفلاحون والوكلاء نواهيده وأوامره، وكانت تلك الفياقي مفازة
مخوفة، ومهلكة للسيارة بشدة العطش موصوفة، تضل فيها القطا، وتقصر
فيها الخطا، فأحياها الله وأمنها ببركة مولانا المظفر، وعمرها بعد الخلاء
بيمينه الموفر، إلى غير ذلك من الآثار العظام، التي أثلها وخلدها، والمباني
والمصانع التي شيدها، ومرادنا بذكر هذا بيان الشبه الذي أشرنا إليه بينه
وبين سميّه جد أبيه، الذي ليس له سواه شبيهه، وسيأتي ذلك في رأيه
المرفوعة بيمين السعود، الظافرة بالعز الموعود، ثم إن مولانا أمير المؤمنين
المؤيد وجه ولديه مولاي سليمان ومولاي الرشيد لأداء فريضة الحج وزيارة
سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، ولما عزمنا على السفر المبارك أمر وزيره
الأعظم الأجل الأكرم الفقيه لسان الدنيا البليغ أبا عبد الله سيدي محمد بن
إدريس أن ينشئ قصيدة على لسانه يخاطب فيها جده خاتم الأنبياء صلى
الله عليه وسلم، ويشكو إليه بحال الزمان وأهله، فكتب إلي الوزير رحمه
الله بما نصه :

بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صدر الأفاضل، ومظهر

الفضائل، الفقيه العلامة الأخ في الله، والمحِب من أجله فلان حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد، فإن مولانا نصره الله أراد توجيه ولديه لحج بيت الله الحرام، وأمرني أن أنظم قصيدة على لسانه توجه معهما لحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكون مضمونها التوسل إليه بالرحم والشكاية بهذا الزمان الذي قل فيه المعين على الحق، وترادفت فيه الأهوال، وتقلب الأحوال، وقد علمت ضعف أخيك وكثرة ما يعتريه من الأمراض، ولا سيما هذه المدة، فإني من يوم ورود هذه الحضرة المباركة، اشتد بي صداع لازم، ويكثر آخر النهار من الزوال إلى أنصاف الليل، عافاك الله، وأريد من أخي أن ينوب عني في ذلك ويكفيني مثونته كفانا الله وإياك جميع النوائب، واعلم أن سفرهم في أول الشهر الداخل والسلام، انتهى.

فلم أجد بدا من الامتثال فأنشدت القصيدة اليائية (30) وهي هذه :

<p>أركبا سرى إذ شام برقبا يمانيا تألق في ظلمائسه فكسأنسه زجرنا به الآمال فابتسمت لنا وروع أحشاء تحن لمعهد وما زال هذا البين يوقد لوعة فؤاد دعاه الحب من بعد كبرة ولكن أدواء الهوى إن تمكنت ألا حي مغنى للحبيب وإن تأى ونحن وقد جف الكتاب معاشر رعى الله أهل الحب من كل حادث نرد على الأعقاب صوب مدامع ولولا عيون الكاشحين لأخلفت وهيهات إطفاء الجوى بجوانح يهيج الصبا إن هب من أرض حاجر عذير غرير في الهوى لعبت به إذا غردت في الأيك وهنا حمامة</p>	<p>ليهنكم أنا بلغنا الأمانيا مباسم تحكي في سناها اللآيا وضامت كما أضحى يضيء الدياجيا تقضت به عهد الشباب تقاضيا أبت في فؤاد الصب إلا تماديا وما للهوى بعد المشيب وماليا لواعجها لم تلف منهن شافيا وماذا على صب يحيي المغانيا رضينا الهوى فليقض ما كان قاضيا ولا راعهم عذل لمن كان لا حيا حذار رقيب ليس يبرح واشيا مدامع نجريها الغمام الغوادي تذوب إذا ما الركب أصبح غاديا كوامن أشواق تزيل الرواسيا صبايات ذكراه الربوع القواصيا تذكر نجدا والنقا والمطاليا</p>
---	---

(30) نسبت هذه القصيدة في المحاف أعلام الناس لابن زيدان للرزيير محمد بن أدريس وهي من إنشاء صاحب الجيش كما أشار إلى ذلك هنا، قلت وكم لها من نظير.

وبيتا عتيقا في أباطح مكة
إذا ما دنا الركبان منها تجردوا
وأيقن كل أنسه ببلوغه
وأضحى أمينا من عذاب إلهه
هنيئا لقوم ناظرين جمالها
قضوا تفثا بعد الإفاضة وانثنوا
وراحوا على إثر الوداع وحصبوا
وما فصلوا حتى تراءت بعيدة
وهبت رياح * عاطرات بليلة
فجدت على الأين الركاب وهيمنت
ولما دنا أرض الحبيب ترجلوا
وعفر كل في التراب وجوههم
وخرت ملوك الأرض فيه جلالة
ألا يا بقاعا في البقيع وواديا
فوالله لا أنسى زمانا قطعتسه
ويا وافدا قد أنزلنه عناية
نك الله ما أهنا وأكرم موطنا
فَعَنِّي لخير الرسل أد رسالته
فقل بعد إهداء السلام تحية
إليك رسول الله من أرض مغرب
عن ابن هشام الأسير لنفسه
عن ابن هشام الذي قد تقاعدت
عن ابن هشام الذي ليس يرتجي
يحاول إصلاحا لأمتك التي
رجوناك تكفيننا المخاوف كلها
رجونا لديك النصر في كل حالة
رجوناك ترعانا من الفتن التي
فليس لهذا السرح غيرك كالي
وليس لنا إلا بلمسة أحمد
وحاشاك من ينمى إليك تلمه

رفيعا من الديباج مازال كاسيا
وطافوا بها شعشا ظمساء بواكيا
لذاك الحمى نال المنى والأمانيا
ومن بعد سخط يستبيح المراضيا
عكوفنا لديها يحمدون المساعيا
لطيبة يزجون القلاص النواجيا
على مرح يطوون تلك الفياfia
من الغور أنوار تنير المحانيا
كما فاح روض بالأزاهر حاليا
ركائبهم كيما تنال التدانيسا
وأظهرت الأشواق ما كان خافيا
تراب به خير الورى كان ماشيا
لمن بان فيه يسحبون النواصيا
به خيرة الرحمان حيث واديا
بمغناك حيث السعد كان مواتيا
هناك فأضحى بالكرامة راضيا
ثويت به حياك ربي ثاويا
وإياك تنسى أو ترى متناسيا
تعم ضجيعيه الكرام المواليا
عن المذنب الجاني أتيتك شاكيا
وأهوانه يبغى لديك التفاديا
به عنك أشغال أصارته غانيا
سواك فحقق فيك ما كان راجيا
رجوناك تنفي عن حماها الأعاديا
فما زلت من كل المخاوف كافيا
على من غدا بالغى في الناس باغيا
غدا أهلها فيها الأسود الضواريا
فكن يا رسول الله للسرح كاليا
دعاء إذا ما الغير أصبح داعيا
وتسلمه إن أصبح الهول داجيا

وحاشا ندى كفيك وهو مفجر
ألا يا رسول الله إني خائف
ولي رحم موصولة بك أبتغي
ومثلك للأرحام يرعى ذمامها
فرحمك للرحم القريب وعطفة
وعونا لنا من صولة الدهر إنا
فقد أحكمت فينا المقادر حكمها
وقد ألزمتنا أن نعاشر معشرا
على قلة الإنصاف والخير فيهم
سوابق للأطماع ينتهبونها
عزائمهم في نيل ملء بطونهم
فلا عون إلا من عنايتك التي
ولا ملجأ إلا إلى عزك الذي
بجاهك يا قطب العوالم كلها
فوجه من النصر الإلهي عاجلا
وصلى عليك الله في كل لحظة

على سائر الأكوان يترك صاديا
وأنت مجير الخائفين الدواهي
لها صلة تولي لديك التراضيا
ولا شك ترعى لي كذاك ذماميا
فأولى بعطف منك من كان دانيا
بغيرك لا نرجو من الدهر واقيا
سياسة أقوام تحاكي الأفاعيا
يسرون شيئا غير ما كان باديا
وكثرة أقوال تطيل التناجيا
كواسل عند الروح تخشى التلاقيا
فندعوهم روى بطانا بواطيا
بها نتقي هذي الذئاب العوادي
نلوذ به حصنا من الضيم عاليا
ويامنح الأمداد نرجو الأمانيا
لنا مددا مادام عزك باقيا
بكل صلاة لا تروم التناهي

وفي هذا العهد وجه السلطان المؤيد ولده البار المظفر لناحية وجدة
لحياطة البلاد وحفظ الإيالة من العدو الكافر الفرنصيص لأنه تكالب على
من جاور قبائل إيالة الأتراك التي التقمها أعوانه، فخرجت العساكر من
مكناس وفاس وما أضيف إليهما من الأعراب والبربر مع مولانا المظفر،
وكانت الرؤساء من تلك المحلة غير مؤتلفة، والأجناد الداخلة في العسكر
من زرارة الشبانات وأولاد دليم غير ناصحة لأمرائهم لسوء أفعالهم، فلما
بلغ مولانا المظفر بلاد أنجاد، ونزلت المحلة بالعيون جاء أهل البلاد
العارفون بمكايد الروم، المباشرون لحربهم، المطلقون على عوائدهم، وقالوا يا
سيدنا : إنه يجب أن تبقى المحلة ههنا ولا تتعداه، وتكون الخيل تغير على
الأعداء وترجع لمأمنها، فقال لهم : نعم ذلك هو الذي يكون عليه العمل إن
شاء الله، ثم جاء رؤساء المحلة وقالوا له : هذا خور ووهن لا يليق مع
القدرة والصولة وكثرة الجنود التي لا يطيق أحد مقابلتها، والذي يليق هو
أن تربط المحلة بطرف بلادنا، وتغير على العدو في بلاده، فوقع الخلاف في

ذلك وغلب من لا رأي له على أهل الآراء والتجارب، فزادت المحلة إلى حيث أرادوا، فنزلوا غير مباليين ولا مكترئين، غارين آمنين، كأنهم في ديارهم، واغترروا بكثرة الجنود، وظن الرؤساء أن قلوب الأتباع متواطئة، وأنهم معولون على صدق اللقاء، وجاءت العيون وأخبروا أن العدو في غاية الاستعداد، وأنه عازم على أن يسوق إليهم بكرة غد، فلم يبال أولئك الرؤساء بأخبار العيون، وقالوا : إنهم مرجفون يعظمون شأن الكفار ويوهنون شأن المسلمين، فأصبحوا متكئين على أرائكهم، يطبخون أغديتهم، فلم يرع الناس إلا طائفة من خيل المحلة كانت راكبة، فجاءوا يستبقون وقالوا : إننا رأينا جيش العدو بأبصارنا مقبلا، وسمعنا طبولهم، فلم يفرغوا من ذلك الحديث حتى أطلت رايات العدو، وعاجلت الناس عن إسراج مواكبهم، فضلا عن حمل مضاربهم، ومولانا المظفر ما أخبروه بحقيقة الأمر إلا في هذه الحالة، فجاءوه بمراكبه، فلم يرد الركوب لئلا تفر المحلة إذا رآوه ركب، فقليل له إن المحلة وسرعان زرارة والشبانات ومن وافقهم ساروا وقد قطعوا مسافات وبلغوا مأماتهم، وباتوا معولين على الفرار، فكان مولانا المظفر آخر من ركب من المحلة فرجعت المحلة إلى فاس على كثرتها بلا قتال ولا وقوف ولا التفات، بل جل من نهب المحلة أولئك الخونة الهرب لإنكاء قوادهم وأمرأئهم.

وفي عام ستين ومائتين وألف هجم الفرنصيص على ثغر الصويرة غدرا والناس غافلون، فرمى عليها من البمب آلافا، ودخل الجزيرة التي فيها المساجين : أهل الجرائم، فأخذهم ولم يتجراً على دخول الصويرة، وإنما وقف في البحر ينظر إلى المسلمين ينهبون إخوانهم المسلمين، وذلك أن الشياظمة والغوغاء الأخلاط البطالين الذين بداخل البلد لما رأوا العدو دخل الجزيرة لم يشكوا أنه يدخل البلد، فمدوا أيديهم في متاع الناس، وكان ذلك أولا في أهل الذمة، ثم عم غيرهم فضاعت في ذلك أموال التجار، ودخلت في ذلك دار الأعشار التي فيها ذخائر السلطان وأموال بيت مال المسلمين، وخرج الناس جافلين نحو البادية، فكل من دخل بلاد الشياظمة نهبوه وفضحوه وسلبوا الحرمات، ولم يتركوا شيئا من المحرمات، ومن دخل بلاد حاحة الغالب عليه السلامة والأمان على المحارم والأعراض، وقد ظهر بهذا الفعل من المسلمين أن الدين قد بلغ الغاية في الضعف نسأل الله البر

الرحيم أن يجبر كسر هذه الملة ويرحم ضعفها، والذي يدل عليه حال عوام الأعراب سكان البوادي اليوم أنهم لولا ما يتقنون من سطوات الملوك والحكام لا يفرقون بين الحلال والحرام، ولا يدينون دين الحق إلا بالسنتهم، وهذه المعرة التي وقعت بالصويرة وقع مثلها لأهل الأندلس، لما أخرجهم النصاري إلى هذه العدو ونهبهم إخوانهم الذين يقولون بالسنتهم إنهم مسلمون، قال المقرئ في نفح الطيب ولما كان إخراج النصاري لهم بهذا العهد القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان ووهران، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله سبحانه في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهكذا ببلاد تلمسان وفاس وقليل من نجا من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم انتهى. ثم لما أقلع العدو وأخذ المساجين الذين بالجزيرة تراجع الناس إلى عقولهم وإحساسهم، وانتبهوا من منام غفلتهم، وأمر السلطان المؤيد عمال حاحة والشياطمة أن يردوا الناس إلى منازلهم، ووجه السلطان أمينه المحتسب بمراكش مولاي إبراهيم البوكيلي المعروف بالسوارت، ووجه معه مالا كثيرا يفرق علي من سلب ولم يبق له شيء يصلح به بعض شأنه، ويستعين به علي الرجوع حتى يستقيم حاله، وعلى أهل الذمة كذلك، فعاد الناس إلى منازلهم، وسكن الحال واطمأن الناس بحسن مراعاة مولانا السلطان المؤيد وبرحمته وإحسانه، «ومن بركته وحسن نيته لم يمر إلا زمان يسير جدا حتى عادت الصويرة كما كانت أو أحسن، وزادت عمارة وامتلات بالتجار من المسلمين وغيرهم» (31).

وبعد هذا بقريب، ورد أحد الشيبين حجة بيت الله الحرام على مولانا السلطان المؤيد فاحتفل بوروده فوق ما يوصف، وركبت القبائل كلها التي يمر عليها بأمر السلطان من قبيلة إلى أخرى، كلما بلغ قبيلة لقيته بخيلها ورماتها وهداياها، ولم تترك شيئا من كل ما تفعل عند ملاقة السلطان، وهكذا من فاس إلى مراكش «فلما بات بقنطرة تانسيفت ركبت العساكر السلطانية والجنود» (32)، وخرج أهل مراكش بحذاقهم فرحا وسرورا وتبركا برويته، فكان يوم دخوله من الأيام التي أظهر الله فيها

(31) ما بين العلامتين ساقط من (م).

(32) ما بين العلامتين ساقط من (م).

تعظيم حرماته، وأفاض فيه على سدنة بيته العتيق أعظم رحماته، فأنزله مولانا المؤيد في أعز أماكنه، وأبهج رياضه ومساكنه، ووالى عليه سوابغ النعم، وسحائب الكرم، وأقام مدة طويلة ثم رجع إلى فاس في ظلال المبرة والإفضال، وغاية العناية والاحتفال، فأقام بفاس وتزوج بها حتى أدركه هناك أجله «بطنجة بعد خروجه من فاس قافلا لبلاده» (33) وختم عمله، وبعد ذلك بقليل ورد بعض لغوات الحجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لحضرة مولانا المؤيد، ففعل به مثل ذلك الاعتناء وزيادة، وكلاهما أحق بغاية التشريف والسيادة، إلا أن هذا واسمه زكرياء لم تطل إقامته فأكرمه مولانا وبلغه مقاصده ورغائبه، وملاً بكل خير حقائبه.

وفي إثر هذا وفد رجل ادعى أنه ولد السلطان مصطفى العثماني، وأنه إنما جاء يطلب من مولانا أمير المؤمنين المؤيد أن يكتب لعمه السلطان عبد المجيد يقبله ويؤمنه ويقبل شفاعته فيه، فأكرمه مولانا غاية الإكرام، كما تكرم الملوك العظام، وأظهر غاية الفرح به وبقدومه، وقابله من كل خير بموجوده ومعدومه، وأكرمه مولانا بإيصاله إليه في حضرته، وملاقاته، ومشاهدة عزيز طلعتة، وكان يركب لزيارة الصالحين ومقاماتهم، ويزعم أنه ملتمس لبركاتهم وكراماتهم، ثم أجازة السلطان علي وفادته بأعظم الجوائز، ثم انصرف وقد حاز بالاحتيال ما هو حائز، فلما بلغ جبل طارق ظهر أنه نصراني بطريق من البطارق.

وبعد هذا وردت قصيدتان بديعتان بخط عربي رفيع في غاية ما يكون من الفصاحة والسلاسة، من نفائس الأشعار، إحدى القصيدتين في مدح مولانا أمير المؤمنين المؤيد، والأخرى في مدح وزيره الفقيه العلامة أبي عبد الله بن إدريس، وهما من إنشاء نصراني من مالطة، يقال له فارس الشدياق، فكان ذلك من عجائب ما يروى، وذكر لنا أن فارساً هذا تعلم العلوم الأدبية من النحو والتصريف والبيان والمنطق والعروض وغير ذلك من علوم الإسلام بدمشق، وتضلع من ذلك حتى بلغ الغاية التي لا تدرك لأهل اللسان العربي، فضلاً عن المتوغل في العجمة الفادحة،

(33) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (م) و (ف).

فسبحان القادر على ما يشاء، وشأن الشدياق المذكور ودأبه وعاداته استجداء مواهب ملوك المسلمين بأشعاره ومدائحه العجيبة، فأدرك بذلك أموالاً طائلة، وله مكانة عند كل دولة، وهو اليوم عند سلطان العثمانيّة على مطبعة اصطنبول.

وفي هذا العهد عزل السلطان المؤيد عامل فاس الرئيس الأجل السيد الطيب البياز الأنصاري الخزرجي، وولى السيد علال الشامي، ولم يعزله لريبة أو نقيصة، وإنما ظعن في السن وضعف عن مباشرة الأحكام، وفيما قرب من ذلك مات أمير الركب النبوي الحاج الطالب بن جلون، وكان ركناً شديداً من أركان الدولة رحمه الله تعالى، وكان له أموال لا تحصى، وتجارات منتشرة في آفاق الدنيا براً وبحراً، في السودان ومصر والشام، وبلاد أجناس النصاري، في كل بلد وإقليم له شركاء وعمال، إلا أنه لما توفي لم يظهر من ماله ما يناسب سعة حاله، وذلك لأنه أصابه داء السكّة فحيل بينه وبين بيان أمواله وتعيين متاعه، فأقام كذلك ينظر ولا يتحرك منه عضو إلا إذا حركه محرك نحو عشرين يوماً على ما قيل، فتهب أهله وعبيده وإماؤه ومن يدور به كل ما ظهر له على وجه الأرض في مساكنه، فكانوا ينتهبون ذلك وهو ينظر ولا يقدر على منعهم، فلما مات لم يوجد في حوزة إلا الشيء اليسير بالنسبة لحال أمثاله، نعم بقيت له الأصول الكثيرة لأنه كاد يملك نصف أملاك فاس من ربايع وعقار، وجل ذلك حازه السلطان في مقابلة ما في ذمته من متاع المخزن، لأنه كان يخوض في مال السلطان طويلاً وعرضاً، رحمه الله تعالى آمين،

وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من محرم فاتح أربعة وستين ومائتين وألف مات الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم، إمام عملة البراع، ومقدم حملة ذلك الشراع، مقلد الدولة بقلائد النشار والنظام، في المواقف العظام، والمزري ببدائعه، وأوابده وروائعه، ببديع الزمان، والفتح بن خاقان، أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا، كلما لاح نجم وأضأ، فولّي مكانه الفقيه النجيب، الوجيه الحسيب، ذو الأخلاق العاطرة، والأنامل الواكفة الماطرة، والرأي الأصيل والأمر المحبوك، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك، أبو عبد الله السيد العربي بن المختار

الجامعي (34) ثم لما قدم مولانا المؤيد لحضرة مراکش آخر قدمة قدمها عام خمسة وسبعين ومائتين وألف (35) عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب الحبي التزيه السيد محمد الصفار التطواني (36). وفيما قبل هذا العهد وقعت فتنة إبراهيم ولد يسمور اليزدكي، وهو رجل مكار خداع من قبيلة آيت ازدك من قبائل الصحراء، وكان يتظاهر بمحبة أهل الخير والأشراف، ويبالغ في ذلك، وكان يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويظهر بذلك نصيحة السلطان، حتى اشتهر بذلك وكثر الثناء عليه، وقبائل الصحراء عائدة إلى لفين، لف آيت عطة وأتباعهم،OLF آيت يفلمال، والغلبة في الكثير لآيت عطة، ولما ظهر إبراهيم هذا ظهرت له بعض الغلبة على آيت عطة الذين يتأفلالت، وكان ذلك أمرا غريبا، فمالت القلوب إليه حتى إن مولانا السلطان المؤيد ولاه على تأفلالت وقبائلها الصحراوية وكان هذا الظالم مبسوط الكف بالعطاء، لا يمسك شيئا، فاستغوى بذلك أكثر الناس خصوصا البله من الشرفاء لأنه كما تقدم يبالغ في إظهار محبتهم بالإحسان إليهم أكثر من غيرهم، فاشتد بذلك أمره، وشمخ قدره، فسرت فيه نخوة الرياسة العظمى، ونصرت راياته على كل من خالفه، فيغير على هؤلاء ويعطي هؤلاء، وكان يحدث نفسه وخاصته سرا أنه يملك المغرب، وهو يدعي أنه إنما هو في طاعة السلطان، فلما تحقق عند مولانا المؤيد مكره وخداعه، وأيقن بما تبطنه من الفساد، جعل يكتب له بالأمر التي يعلم أنه لا يريد لها، يختبر بذلك ما أظهره من الطاعة، ينظر هل يمثل أمره أم لا ؟ فكان يخالفه في ذلك، وكلما أمره بأمر لا يوافق غرضه نبذه وراء لهره، ويقول للناس : انظروا هذا الحمق، وهل يأمر بمثل هذا عاقل، ثم سار ينقص أمور مولانا المؤيد ويصرح بذلك، فلما تفتن له الكذابين على لمة تعالى قصوده من كل ناحية حتى اجتمع عنده من الشياطين عدد كثير، عدونه ويمنونه، ويزينون له المخالفة، فطبق أقطار المغرب صيته، وجعل

(34) محمد العربي الجامعي بن المختار استكتب بالصدارة، وشباهه في عنفوانه إلى أن تأدب وتدرّب، وجرب من أمور السياسة ما جرب، ففرغت له العدلية من الصدارة، وشارك صدرها في اسم الوزارة ثم أحله السلطان مولاي عبد الرحمن محل الصدر، حسب «فواصل الجمان» لفريط ص 61 إلى آخر قصته المذكورة في الكتاب المذكور، توفي عام ثيف وسبعين ومائة وألف هـ.

(35) كذا بالأصل وهو الذي في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها 1271 وانظر تفهيد ابن اليصني في المقدمة.

(36) الصفار التطواني الفقيه المدرس العدل المفتي الكاتب الوزير، وهو التطواني الوحيد الذي تولى الوزارة مع ثلاثة من سلاطين المغرب المرلى عبد الرحمن وابنه المرلى محمد وابنه المرلى الحسن. تـ 1298 هـ 1880 م ودفن بقبة الولي الصالح سيدي يوسف بن علي بمراكش «تاريخ تطران» مجلد 7 ص 78 «فواصل الجمان» ص 70 «الإعلام» ج 7 ص 34.

أمره يزداد كل يوم شدة وظهورا ومالت قبائل البربر كلها إليه اتباعا للفساد الذي جبلوا عليه، واهتم مولانا المؤيد بشأنه كثيرا، فبينما هو كذلك إذ قيض الله له من قتله من إخوانه، وأقرب الناس إليه، فكفى الله تعالى مولانا المؤيد أمره، ورد كيده في نحره، وأخذه من حيث أمن، وافتضح بمقتله افتراء المفترين واغترار المفترين، والحمد لله رب العالمين.

ثم وجه مولانا المؤيد أولاده لبيت الله الحرام، وزيارة قبر جده عليه السلام، وهم مولانا علي، ومولانا إبراهيم، ومولانا عبد الله، ومولانا جعفر، وولد عم أبيهم مولاي أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله، وكانوا وفدوا عليه للوداع لحضرة فاس، ثم خرج لمكناس، ومنه كتب لهم وأمرهم بالانصراف بالسلامة، وبالع مولانا المؤيد في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم له مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم، لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة، المرافق العديدة، ووجه معهم من الأموال كثيرا لأشراف الحرميين، وللخواص المعينين من الأئمة والفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار الأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد الرزيني التطاوني، والسيد محمد البارودي الطنجي (37) ووجه معهم قاضي مكناس الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة الفاسي (38) المري، مع جملة من الطلبة الذين يقرأون عليهم، فركبوا من مرسى طنجة وكل جنس من النصاري يرغب أن يكون ركوبهم عنده في قرصانه، وقد هياؤا القراصين العجيبة فكان ركوبهم في قرصان النجليز فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم سلطان مصر بغاية الفرح والسرور، وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهىها، وأبهجها وأشهاها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب، وفرش الحرير والديباج، والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة الملوكية، التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول إلى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين

(37) كذا بالأصل وفي غيره (التلمساني)

(38) المهدي بن سودة المعروف بابن الطالب المري كان فقيها محدثا أصليا ببيانها منطقيا نحريا مشاركا. وكان يقرأ البخاري في الأشهر الثلاثة مع المولى عبد الرحمن ثم مع ولده سيدي محمد ثم مع ولده المولى الحسن ت 1294 هـ 1877 م. «السلوة» ج 1 ص 303 «الإعلام» ج 7 ص 283 عفى الله عنه.

السلطانية التي يتعجب من رؤيتها، وتنقل أخبارها، فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة {ومنها إلى مكة} (39)، فقصوا مناسكهم، وشفوا غلتهم، من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة، من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا إلى أعظم المقاصد وأسنائها، التي هي لنفوس المؤمنين غاية مناهي، زيارة شفيع الأمم، في الموقف الأعظم، وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الآفاقيين، فمات من أصحابهم جملة، ومات أحد الشرفاء أولاد السلطان بمكة، ومات آخر منهم يوم دخول المدينة المشرفة، وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمه، وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبتته بمن مات «ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسموات، ووافقتهم السعادة في» (40)، ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشراف البقاع وأكرم الحجر، وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونال كل واحد ما كان يأمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير، وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب، في المسافة التي بين المدينة والينبوع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع، لولا لطف الله لاستوصلوا عن آخرهم، وهلكوا حتف أنوفهم ومناخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجائب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد محاته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته، ولا تنتهك حرمة، فلما بلغوا للينبوع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم، فركبوا قافلين، ورياح السلامة تسوقهم، وأرياح التجارة والسعادة تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة، وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيل السلطانية والعساكر، وخرج أهل مراكش في زينتهم، وكان يوم لقائهم يوما مشهودا، وموسما من المواسم المعظمة معدودا وكان أبو الحسن مولانا علي بن أمير المؤمنين مركز ذلك الركب السعيد، وبياض

(39) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(40) ما بين العلامتين ساقط من (ك).

غرته، ومناط رضا أمير المؤمنين وموقع نظرتة، فوجهت له ذلك اليوم هذه القصيدة تهنئة بكمال حجته، وسلامة رجعتة وهي هذه :

نضت عن محياها المحجبة السترا
وقامت تجر الذيل من نشوة الصبا
وياحتت بأسرار الغرام تهتكها
ومن فضحتة في هواه دموعه
وأضرمت الأشواق بين ضلوعه
تسابقه في جريها عبراته
فكيف يوارى بعد ذلك سره
فذاك الذي لا يختشي لوم لائم
يهيم به مستعذبا لعذابها
فتاة زهاها حسنهما وجمالها
تمس كفصن البان رنحه الصبا
وما هو إلا أن أتاهها مبشر
هنيئا فنجم السعد قد لاح طالعا
فمن كان يرجو أن توافيه المنى
فقد عاد مولانا أبو الحسن الذي
سليل أمير المؤمنين وشبله
علي الذي قد شرقت ثم غربت
ومن كعلي في المكارم والندى
ومن كعلي في مصادمة العدا
(فتى ذخرت منه الليالي ذخيرة
له همم أعلى من النجم قدرها
وقد عاد من أرض الحجاز مهنا
وفساز بحسج واعتمار وزورة
تسنم أثساج البحار إجابة
ولما استقل البحر منه بثله
وهبت له باليمن من كل جانب

وأبدت على خوط الأراك لنا بدرا
كما ريع ظبي عندما استشعرا الذعرا
وتلزمنا في الحب أن نكتم السرا
وأرهبه التبريح من أمره عسرا
ضراما فلم يسطع خلاصا ولا صبرا
ومن ذا يرد السيل إن وجد المجرى
وقد عاد منه السرب بين الوري جهرا
وذاك الذي في الحب قد بلغ العذرا
فلا يرتجي وصلا ولا يشتكي هجرا
فلم ترض سدا للبراقع والخمرا
تخال بها سكرها وما شربت خمرا
يقول لمن في الحي يهنيكم عشرا
وأصبحت الآمال يانعة خضرا
فقد آن أن يرضى وحقت له البشرى
يقول أنا سعد السعد ولا فخرا
وصارمه إن حاول الفتكة البكرا
علاه فلم تترك حجازا ولا مصرا
إذا ما الغمام الجون قد منع القطرا
إذا اقتادها جردا محجلة غرا
سيوسعها جبرا إذا صادفت كسرا (41)
فما قيصر قد نالهن ولا كسرى
بأفضل سعي فيه قد ريع التجرا
لخير الوري أعظم بما ناله قدرا
لداعي الهدى مستسهلا مركبا وعرا
عجبنا لبحر حامل فوقه بحرا
رياح من الإقبال دائمة المسرى

(41) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) .

إلى أن أحلته السعادة منزلا
وطافت به بين المقام وزمزم
وشاهد هاتيك المواقف كلها
وقال له الإسعاد ها أنت والمنى
ومن بعدما حاز الرغائب كلها
دعاه اشتياق المستجن بطيبة
تلوح له الأنوار من نحو يشرب
فود لو أن الريح كانت تقلبه
فما زالت الأكوار والعيس ترمي
فلما تبدت للحبيب دياره
وخرت وجوه العاشقين على الثرى
هنالك تعتز الملوك بذلها
هنالك حيث الدين لاحت شموسه
منازل حن الجذع فيها لأحمد
منازل كان الوحي فيها منزلا
مواطن كانت تحت باطن أخصص
ألم تك أهلا أن تداس بأوجه
تراب يهين المسك نفح أريجيه
فلو ديف من ذاك التراب وضمخت
أمولى الموالى يا علي بلغتك ما
دخلت على باب السلام مسلما
كذاك على الشيخين سلمت بعده
وصليت بين القبر والمنبر الذي
شفيت غليلا واقتضيت مآريا
[وجاءك نصر الله والفتح فارتقب
وأعطيت كنزا من مواهب رينا
والبسك المولى الكريم ملابسا
بعز أمير المؤمنين وسعسده

بمكة في مشواه قد وقع الإسرا
وقبل ما في الركن واحتجر الحجرا
ونال من الخيرات مرتبة كبرى
ودونك فالدنيا تحييبك والأخرى
وودع بيت الله واستكمل الأمرا
فصار يجوب البيد والمهمه القفرا
وتهدي إليه الريح من أرضها العطرا
على منتها أو كان قد صاحب الطيرا
به ودواعي الشوق موقدة جمرا
جرى الدمع واحتاجت صبايته الحرى
سجودا لمولانا الذي أوجب الشكرا
ويترك فيه الكبر من ألف الكبرا
وحيث بدا الإيمان واختزل الكفرا
وزلزلت الأحزاب إذ مكرت مكرها
وكانت لها الأملاك زائرة تتسرى
به وطئ المختار فيالعرش إذ أسرى
وتجعل في الأجفان تربتها الغبرا
ويرخص أثمان اليواقيت والتبرا
به عاهة كانت بتضميخها تبرا
رجوت من الفخر الذي جاوز الشعري
على سيد الأكوان خير الورى طرا
ضجيعي رسول الله في الروضة الغرا
لديه يحط الوزر إن أثقل الظهرا
جلاتل لكن لا تباع ولا تشرى
لمطوى نصر الله أن يعقب النشرا] (42)
فأعظم به كنزا وأكرم به فخرا
من العز لا تبلى ولا ربهها يعرى
وأيامه اللاتي عرفنا بها الخيرا

(42) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

فَنَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَمُدَّ ظِلَالَهُ وَنَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَطِيلَ لَهُ الْعَمْرُ (43)

وفي هذا العهد كتب السلطان وهو بمكناس لولده وخليفته مولانا المظفر سيدي محمد وهو بمراكش يأمره بقبض أحد عاملي الرحامنة القائد علال بن عبد الله، فقبضه واستخلص منه أموالاً كثيرة، ثم بعد مدة قريبة سرحه ووجهه عاملاً على قطر السوس الأقصى، وكان في قبضه مفسدة لقبيلته وإيالته، لأنه كان ضابطاً حازماً قاهراً للمردة منهم والشياطين، فلما قبض انفسح لهم المجال، ولكن في قبضه مصلحة أخرى هي أرجح من دفع تلك المفسدة، وهي أنه كما ذكر بعضهم حصلت منافرة بينه وبين عامل الحضرة المراكشبة أبي العباس السد أحمد بن عمر بوسته، فلما قبض علال بن عبد الله، وقيد غيره أظهر ذلك الغير الموافقة والمحبة والمساعدة في غالب الأمور، وانحسرت العداوة المفضية إلى الأضرار والضغائن فيما ظهر، واستقامت الأحوال، وجرت المصالح مجراها بين المتجاورين، وهذه المنابذة التي تحصل بين عمال الرحامنة وعامل الحضرة سببها أن الرحامنة ذاقوا لذة الولاية على المدينة في بعض الأزمان الماضية، فلم يكن عندهم أعدى من عامل مراكش، وسار كل من ولي على الرحامنة لا تكمل لذته وولايته عند نفسه إلا بالولاية على المدينة، وولايتهم على المدينة هي الطامة الكبرى، وما فطمهم عنها مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان إلا بتوفيق الله وسعادة الجد، وكان علال بن عبد الله لما علا أمره في الولاية، وشمخ قدره فيها قوى طمعه في ولاية المدينة كما ذلك عاداتهم كما أشرنا إليه، وكان عامل المدينة أبو العباس بن عمر لولا سعة أخلاقه ووفور عقله ودهائه وتحمله لأذى الرحامنة، لظهر منهم الفساد الكبير، والعتو الخارج إلى غاية الطغيان الذي لا دواء له، فما زال القائد السيد أحمد يداري علال بن عبد الله حتى انتقم الله منه، وعزله مولانا وكفى الله

شره.

(43) كان المدوح بهذه القصيدة أميراً عالماً وكان تلميذاً وصديقاً محباً لمؤلف الجيش وتلميذه في علوم التنجيم والتوقيت والتعديل وكان ملازماً له ملازمة الظل وفي الاعلام للمراكشي وهو يترجم هذا الأمير ما نصه : ولصاحب الجيش المذكور محمد الكنوس في المترجم مولانا علي أمداح كثيرة جمعت نحو سقر. توفي عام 1299 هـ 1881 م كما رأيت منقوشاً على رخامته بضريح الغزواني بحومة القصور قال في الاعلام المراكشي ز 9 ص 242، انه كان يحضر مع أخويه مولاي العباس ومولاي الرشيد عند العلامة قاضي مراكش الطالب بن الحاج في سرد صحيح البخاري بين المشاء بن بهامعة ابن يوسف. كما قال عنه ص 249 انه أخذ عن سيدي الحسن الصالح المراكشي مع أخويه مولاي الرشيد ومولاي برعزة كانوا يردون عليه لمسجد أبي حسن القريب من داره بحارة الصورة في أيام والدهم (يعني المولى عبد الرحمن) هـ وكانت أيامه من عام 1238 إلى 1276 هـ. قلت ومن جملة شيوخهم العلامة الأديب أبو مهدي عبد الله بن محمد بن أحمد أكنوس كانوا يحضرون درس الشيخ خليل صباها. كما وثقت عليه في رسالة كتبها لتلميذه المولى الرشيد. هـ

ولما توجه مولانا المؤيد للغرب في هذه المرة الأخيرة استعداد غاية الاستعداد، بالجنود والعساكر المنصورة، فمر في طريقه على قبيلة زمور وبني حكم ومن انضاف إليهم، فاكتمسح أرضهم وديارهم وخرب مساكنهم واستباح زروعهم المخزونة والمحروثة، وقد ناهزت الحصاد فلم يبق لهم من الأقوات أخضر ولا يابس، وأما أرواحهم ففروا بها إلى قنن الجبال الرواسي، وهكذا كانت عاداتهم معه في كل مرة كلما حرك لهم لا يقفون أمامه إلا في الوقعة الهائلة التي أوقعها بهم في صدر ولايته، فإنهم ظنوا أنهم يقدرون على مقابلته فاستعدوا غاية الاستعداد بكثرة الخيل والرماة، واستهانوا بكل من جاورهم من أهل الفساد من الأعراب والبربر، فوقفوا وقاتلوا قتالا شديدا، فكانت جولة بعد جولة، ثم انهزموا أقبح انهزام، وقتل منهم ما لا يحصى، وقطعت رؤوسهم ووجهت لأسوار البلاد، وعلقت بها، وقبض منهم عدد كثير من الأسارى، وعمرت بهم السجون حتى هلكوا فيها، ثم بعد ذلك ما قابله قط ولا وقفوا أمامه، مع أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، فلما دواخهم في هذه المرة وسلبهم كل ما ينتفعون به ذهب لحضرة مكناس ولم يطل المقام بها فذهب لفاس فأقام بها ما يقرب من سنة ثم رجع لمكناس فاستعد أيضا لغزو زمور فخرج إليهم وزحف إليهم بالجنود المجندة، وفعل بهم مثل ما كان يفعل كل مرة، وكذلك هم فعلوا مثل فعلهم المعهود من الفرار بالأنفوس وترك الأموال والديار، فرجع لمكناس، قال بعض الكتاب من خاصة الدائرة المولوية الذين حضروا معه إنه في بلاد زمور في هذه الحركة، ابتدأت علة التي لازمتها حتى انتقل لحضرة الرضى والكرامة في الدار الآخرة، فلما رجع لمكناس أطال المقام بها خلاف عادته، فإنه كان لا يدخلها إلا عابر سبيل مستوفزا للرحيل حتى قيل إنه إنما كان يتجنبها لأنه مخبر أنه بها يقبر، والله أعلم، وكان في إقامته بمكناس هذه المرة مواعد كل مسرة، ومواسم لأنواع الخيرات والأفراح ومحافل للاتيساط والانشراح (44) فأقبلت لحضرته جميع المسرات، وتباعدت عنه جميع المناحس والمضرات، كأن الدنيا أقبلت في زينتها توادعه، وتنفي عنه كل ما ينازعه ويصادعه، فأقام الأعياد الثلاثة، كما تقام الأعراس، فحضرها

(44) ما بين العلامتين هو ما في الأصل وقد اختلفت النسخ الأخرى عن الأصل بالزيادة والنقص وتبديل الشكل ولكن المنصوص فيها كلها من الخبر قريب من قريب في المعنى.

جميع أعيان الأمم ووجوه الناس. ولا سيما العيد الأنور النبوي، كما هو عادة هذا الملك الشامخ العلوي، إلا أن مولانا السلطان المؤيد كان يزيد فيه على غيره من أسلافه الكرام بغاية الاحتفال، وكانت له فيه عادة لم يدركها أحد من موالينا أسلافه الملوك العظام الأماجد الكرام، وهي أنه في صبيحة المولد الشريف، إذا فرغ المداح من إنشاد الأمداح النبوية، والقصاصات المصطفوية، يختم ذلك المجلس بإنشاء قصيدة مبتكرة مصدرة بمدح سيد الوجود، وهو في الحقيقة عين المقصود، ثم يستشفع به وبجاهه عند الله تعالى لحضرة أمير المؤمنين، والدعاء له بكل خير والسلامة من كل ضير، مع ذكر محاسن دولته، وتواتر نعم الله على كريم حضرته، ويكون سماع ذلك في ذلك الزمان وذلك المحل من الأبهة المعظمة، والجلالة المفخمة، وكان مولانا المؤيد أخذ ذلك من أخبار أعظم السلاطين في غير هذه الدولة كدولة السعديين خصوصاً المنصور الذهبي، فإن له في ذلك شأنًا معروفًا، ومقامًا بفخامة القدر موصوفًا، وكدولة بني مرين، خصوصاً أبا الحسن وولده أبا عنان، فقد جعل ذلك شريعة من جملة الافتراض والاستئذان، وكدولة بني زيان ملوك تلمسان، خصوصاً واسطة عقدهم أبا حم، فله في ذلك ما خرق الاعتقاد، ولا يمكن عليه الازدياد، وأما بنو مروان بالأندلس فلا يسأل في ذلك عن مبالغتهم وإعجابهم، وإطنائهم وإسهابهم، فاقتنى مولانا المؤيد أثرهم في زيادة التشريف لما شرفه الله، وتعظيم حرمة رسول الله صلى عليه وسلم، ولا تكون تلك القصيدة إلا من إنشاء وزيره رئيس الكتاب، وإمام خدمة أشرف الأعتاب، أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس هكذا أخبرني رحمه الله بتكرر هذه الثلاثة في نسبته، وربما حصل له عذر يمنعه من إنشاء تلك القصيدة المعتادة في تلك الليلة، فاستنابنا في إنشائها على لسانه كما تنبه على ذلك بحول الله تعالى، فمما أنشده في بعض الأعياد قوله :

فالسَّمْعُ مشتاق إلى أنبائه
والنازِلين الجَزَع من جرعائه
ومجال أفراس الهوى وظيفائه
فتكت عيون العين في أحشائه
لما سقاه الوجد من صهبائه
قادت له مرسله العيون لدائه

أعد الحديث عن الحما وظيفائه
وصل الحديث عن اللوى وعقيقه
فهناك معترك النواظر والنهسى
كم من صريع هوى بأفنية الحمى
ومتيسم لعب الغرام بقلبه
وأسير وجد في إसार جمالهم

إن القليل من الغرام ودائمه
 يا صاح إن وافيت منزلة اللوى
 ولقيت أسراب الظباء رواتعا
 فاحفظ فؤادك من ظبا تلك الظبا
 وإذا بسدا سلع فعرج نحسوه
 وإذا مررت بحي قومي حيهم
 وأخلع نعالك في مقدس وادهم
 فهناك طابت طيبة من طيب
 وهناك روضة خير من ركب المطا
 وهناك قبر المصطفى من فضله
 وهناك من أسرى الإله بذاته
 وحباه قريبا لا يضاهاى خصه
 وأراه من آياته وصفاته
 وكساه من إجلاله وجلاله
 أوليس آدم قد توسل باسمه
 وغدا يكون وما تكون بعده
 أو ليس كل الرسل من نوابه
 قد بشروا أتباعهم بظهوره
 أخذ العهد عليهم أن يؤمنوا
 يا أمة المختار طولوا رفعة
 ولتكثر أمداحه في ليلة
 قد فاقت القدر الرفيعة منصبا
 كم آية شفت القلوب بنعتها
 فدنت إلى الأرض النجوم محبة
 وبدا الرجوم من النجوم لطرده
 خمدت به نيران فارس واعتري
 غارت بحيرة ساوة وأساءهم
 وله من الآيات ما عجز الورى
 والوحي أعظم آية قد نالها
 أسرارها لا تنقضي وعلومه
 كم معجزات قد تواتر ذكرها

مثل الشهيد مضرجا بدمائه
 وممرت ما بين العذيب ومائه
 حول الحمى يرحن في أرجائه
 فلكم كمي صيد في أحياه
 وتنشق الأرواح مسن تلقائيه
 وصل السلام على الحمى وطلبائه
 واحطط رحالك خاشعا بفنائيه
 طاب الوجود بطيب طيب ثنائيه
 وأجل من لاذ الورى بعلائيه
 غمر الوجود بجوده وعطائيه
 ليلا فنال الفوز في إسرائيه
 بمصون سر الحسب في إيحائيه
 ما كلت العقلاء عن إحصائيه
 ما حارت الأفكار في إنهائيه
 بعد الخطيئة فاهتدى لدوائيه
 من ذي احتباء تحت ظل لوائيه
 وجميعهم هاد بنور ضيائيه
 وتوطأوا طرا على عليائه
 إن أدركوه وينصروا لدعائيه
 واستبشروا طرا بنيل ولائيه
 رد النهار لها سنا لألائيه
 وسما الزمان بها على آنائيه
 رفعت بها الأخبار عن شفائيه
 ويدت قصور الشام من بطحائه
 رام استراق السمع من أعدائيه
 إيوان كسرى الكسر من اعلائيه
 ما قد رأى في النوم من أسوائيه
 في وصف بعض البعض من أجزائيه
 وأدل معجزة على استعلائيه
 لا تنتهي أبدا على استقرائيه
 دلت على تصديقه وسنائيه

كالظبي في تكليمه والضرب في
والماء في تفجيريه والزاد في
والصم في تسليمه والجن في
والشمس ردت بعدما عزيت له
وكذا الحصى قد سبحت في كفه
نطق الدراع له وأفصح معلنا
أرسي على الإحصاء باهر فضله
من ذا يروم مديحه وإلهنا
هل بعد مدح الوحي مدحة ماح
علقت آمالي بجاء محمد
ورجوت من رب المفاز بجاهه
وعلقت من آل النبي بذمة
من طهر المولى وخص المصطفى
وخدمت واسطة الأئمة منهم
مولى الخلائف عابد الرحمان من
أحياءه الدين الخفيف وزانه
وأعاد أرض الغرب روضا ناضرا
ونفى عن الإسلام كل ضلالة
وأشاد مغنى الملك فاستعلى به
وأعاد في جسم الخلافة روحها
من حاز مجموع المكارم مفردا
الحلم من أوصافه والعلم من
والعدل من أحكامه والفضل من
والنصر من أحزابه والشكر من
والحسن من قسماته والأمن من
والجسد من أترابه والمجد من
والسيف من عزماته والعيث من
والزهر من نفحاته والزهر من
والحق في أفعاله والصدق في
والسر في كلماته والبر في

تسليمه والجذع عند بكائه
تكثيره والنخل عند دعائه
تعليمه والفحل في استعداده
والبدر شق له بأفق سمائه
ورمى بها فأصاب أهل نوائه
عن سمه وأبان خافي دائه
وسما عن الإدراك كنه علاقته
أسماءه قد شق من أسمائه
فاقرأه تلق ثناءه في أثنائته
وقصرتها قصدا على عليائه
والظن ألا أخيب عند رجائه
تدني القصي إلى كريم فنائه
شرفا وجللهم كريم كسائه
نجل النبي المهتدي بضياؤه
رحم الإله الخلق عند ولائه
بسنائه وحيائه ووفائه
برخائه وسخائه ورقائه
وأضاء نور العلم في أرجائه
وقضى حقوق الله في أعدائه
وشبابها وكساها ثوب بهائه
وروى حديث الجود عن آبائه
ألأفسه والفهم عبء ذكائه
إنعامه والفصل من ندمائه
أصحابه والبحر من أسمائه
حسناته واليمن من وزرائه
أثوابه والسعد تحت لوائه
سطواته والغيث من نظرائه
بل صفاته والفخر تحت رداؤه
أقواله والصدق من عرفائه
جنباته والأجر في استرضائه

وزرى بطيب المسك نشر ثنائه
وتنافس الأملاك في استصفائه
شكرا فقامت لها ببعض أدائه
خلع الجمال عليها حسن روائه
وشى حلاها الفكر في إنشائه
نظمت على همز الروي وهائه
بحلى الكمال سما على أكفائه
في أن يمتعنا بطول بقائه
وعلاءه ويشيننا برضائه
وترنم الحادى بحسن غنائه
والتابعين الحق من خلفائه

فاق الثواقب والمناقب والخلسى
قد فاخر الأعصار عصر وجوده
غمرتني أنعمه التي قد أعجزت
وأتييت من حر الكلام بمدحة
وجلوت عذراء المدائح غادة
أهدى البيان لها عقود جواهر
وأتى بكاملها الرفيع لكامل
والله أسأل بالشفيع محمد
ويديم نصرته ويثبت عزه
صلى عليه الله ما حي الحيا
وعلى الأماجد آله وصحابه

وهكذا كانت سنة مولانا المؤيد في ختم أمداح الليلة المباركة، بمثل
هذه القصيدة الفريدة، من إنشاء وزيره الأعظم المذكور، ولم يتخلف قط إلا
في المدة التي عزل فيها وقام غيره مقامه من حرم مراضع الأدب، ونسلت
إليه الجفاوة من كل حدب، ونعاه الدست السلطاني مع وجوده وندب، فلما
عاد الوزير الأعظم إلى نصابه، واسترجع حقه من غصابه، عادت الدولة
الشريفة إلى شبابها، وتمسكت بميتين أسبابها، وجرت سنة التعظيم والتشريف
على مجراها، ونالت من المحامد كبرها وصغرها، ولم يزل قائما في مركزه
الأعز الأسنى، ملازما لعادته الحسنى، الى أن توفاه الله تعالى عام أربعة
وستين ومائتين وألف، فأصبح الدست العالي من تلك الحلية عاطلا، وغريم
الزمان بقضاء تلك الديون مماطلا :

وكان رحمه الله تعالى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف بعد انتقالنا
من الحضرة الفاسية إلى الحضرة المراكشية لما أثقلته أعماله السلطانية
وأشغاله، وازداد سبحة في بحارها وايفاله كتب إلي ما نصه :

الأخ الشقيق، الأود الحقيق، فلان بن فلان حفظك الله وسلام عليك
ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فهذا شهر المولد الشريف قد أطل، وقد
علمت أن من عاداتي التطفيل على حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالقصيدة المدحية التي تختتم بها الأمداح في صبيحة المولد الشريف، في

ذكر الليلة المباركة وبعض أوصافه عليه السلام ثم التخلّص إلى مدح أمير المؤمنين والدعاء له بكل خير، وقد اختبرت فكري في هذا الشهر فوجدت به كلاً لا عن ذلك وعجزاً لتوالي الأشتغال المولوية، واستغراق النهار كله في حوائج المسلمين، فأردت من فضل أخي أن ينوب عني في ذلك بإنشاء قصيدة علي ذلك النمط، نغتنم جميعاً أجرها، ونحتسب أنا وأنت ذخراً عند الله تعالى، وإن تفضل أخي بكفاية ذلك في كل سنة يكون فيها مولانا نصره الله معيداً في هذه الحضرة فإن شأنك التفضل بالخير والإعانة عليه، ولا نحتاج إلى إعادة الطلب، والله يبقيك إمام هذه العصاة، سباقاً إلى غاية الإجابة والإصابة، وعلى المحبة والسلام. فما رفعت إليه في العام المذكور هذه اللامية :

يا ناسي العهد إن العهد مسئول
وفضل ذيلي بويل الدمع مبلول
منى وللشوق ترويع وتهويل
تمنع وضمير الغيب مجهول
والوعد عند حسان الدل محطول
بيضساً يلاحظها سمر بها ليل
فحبهم في صميم السروح مجبول
كأنني طافح بالسراح معلول
في وجهه من أحبائي قماثيل
وليس أن الهوى زور وتخيل
أهل الخشوع لهم ذكر وتهليل
غرامهم فأننا من ذاك متبول
وفي الصباية لي عرق وتأصيل
فعاذل المبتلى بالحسب معذول
إذا دنا من ربيع النور تجليل
بين المواسم تعظيم وتبجيل
عيد ولا زمن بالفضل مشمول
وأين من غرة في الفخر تحجيل
أبوابه وأتانا العز والسل
على الخلائق طسراً فهو مبدول

عهدي لكم جيرة البطحاء موصول
أشيم برقاً سرى من نحو ربكم
فيلهب الشوق أحشاء مروعة
يا ليت شعري والأيام شيمتها
هل من وفاء بوعد من أحبنا
أو هل ترى مقلتي داراً عهدت بها
سقيت حبهم قدماً على ظمأ
يا حبذا في هواهم ما غدت به
لا أجتلي أحداً إلا تمثّل لي
وذاك أن قد سرى في الكون سرهم
فوالذي سجدت في شطر كعبته
لقد سرى سريان الروح في جسدي
يا لائمى إن فرط الحب معذرتي
فكيف أصفي إلى اللاحين إن عذلوا
مهلاً فلي كبد تهتاج لوعتها
شهر تشرف بالإسلام حق له
شهر تعاظم مجداً أن يماثله
شهر غدا غرة في كل مكرمة
فيه تكون كون الفضل وانفتحت
فيه تفجر كل الخير منبجسا

فيه البشائر قد لاحت أشعتها
وزخرفت لعباد الله جنته
في ليلة المولد الأسمى وسهرته
قولوا وتبها على الأكوان واقتضروا
أهلا بمولد خير المرسلين ومن
بمولد الصفوة العليا الرسول إلى
سر العوالم والأرواح عنصرها
أواح موسى بن عمران مبشرة
يا من بدا روحه للخلق مبتدأ
يا دعوة الحق يا مجلى المحامد يا
لك اللواء لواء الحمد يشملنا
لك الشفاعة والخوض المعد لنا
لك المقام الذي قد عز مدركه
إن لم يطق حملها موسى الكلیم فقد
لك الوسيلة والجاه العظيم إذا
يا من يخلص من أضحي لمدحته
هذي مدائح راج أن يكون له
صلى عليك مفيض الجود منك على
وآلال والصحب ما زمت على مرح
يا حاشر الخلق يا ماحي الضلال ويا
كم آية لك لا تحصى ومعجزة
ومن توهم أن يهدى لغايتها
إن كان من جودك الدنيا وضرتها
يا واضع الإصر عنا في شريعته
قد جئتنا بحنيف كله نسره
فيه الخبائث بالأحسرى محرمة
تركنا وسبيل الحق واضحة
بآل بيتك والذكور الحكيم لنا
هذا حفيدك سلطان الملوك أبو
سبط الخلائف باني العز في شرف

فيه تعيين للخيرات تسهيل
واستبشر الملائ الأعلی وجبریل
يا أمة سعدت بالمصطفى قولوا
فقولكم لمكان الصدق مقبول
له على الكون تسييد وقبول
كل الوجود وما للحق تبديل
من ذكره في قديم الذكر منقول
ببعثه ويقرب البعث إنجيل
وجسمه لمناظر الوحي تكميل
من نطقه كله وحي وتنزيل
من ظله عند هول الحشر تظليل
لك الجنان جنان الخلد تنفيل
برؤية ما لها في الصدق تأويل
عائنت ربك والتقدیس مسدول
ما أنت فوق نطاق العرش محمول
على جناب كريم منه تطفيل
من الرسول بإذن الله تنويع
كل الخلائق والتعميم تسجيل
إلى زيارتك العيس المراسيل
من مدحه لرضا الرحمان توسيل
باب المحاول منها الحصر مقبول
فذاك أثول والأوهام تسويل
فالقول كالصمت والإكثار تقليل
فضلا ومن قبلنا بالإصر مغلول
ميسر واضح الأحكام معقول
وللأطاييب ذات الحسن تحليل
أعلامها ومحيا الدين مصقول
كل اعتصام إذا ما اغتالت الغول
زيد إمام بنصر الحق مشغول
عال على مجده للناس تعويل

قوم تداركت العليا سعادتہ
ما زال مجتهدا في الله منتصرا
حتى استنارت نجوم للهدى فلها
فهو المؤهل للسماح يجردها
وهو الذي سنة المختار قد حييت
هسو المؤيد بالإسعاد همتہ
ففضله روضة غناء دانية
وبأسه في ديار الكفر صاعقة
يا خزي من حاد عن منهاج طاعته
إن سار يوما الى الهيجاء تتبعه
من كل أروع في إقدامه بطر
يجرها كعديد الطيس عابسة
يعنى به النصر لا ينفك يلزمه
وعزمه نافذ لا شئ يحجبه
وتلك سنة رسي في عزائمہ
وللسعادة أسباب مقدره
من أسرة زين الأقطار ملكهم
تملكوا فأتت كالسروض دولتهم
بنو عليّ أدام الله عزهم
وابن الإمام هشام نال بعدهم
أنته واسطة بالطوع حين غدا
يا أيها الملك الأتقى المحيط به
بقيت للمولد المبرور تشهده

وفي عام ثلاثة وخمسين ومائتين وألف
أرائح أنت نحو الحي أو غدا
واذكر لأهل النقا عهدي القديم به
واسأل مناخ المطايا عند كاظمة
واستخير الدمنة الخضراء من إضم
إن كان مثواهم وادي العقيق فها
كم لي على الغور إن لاحت بوارقه

لما غدا وإليه الأمر موكل
بالله والسيف في يمناه مسلول
والحمد لله تقويم وتعديل
من بعد ما عز للتجديد تأهيل
به وقد غالها نسي وتعطيل
لبنية العز تشييد وتطويل
قطوفها وجنى كفيه معسول
فيها لحزب ذوي الأهواء تنكيل
ويلمسه إنه والله مثكول
أجناد جرد أبابيل أبابيل
وسيفه من قراع الهام مفلول
وماله غير وجه الله مأمول
كأنه علة والنصر معلول
فكل ما يبتغي في الحين مفعول
وما لسنة رب الناس تحويل
في سابق العلم لا كسب وتحصيل
كأن ملكهم تاج وإكليل
ظلالها العدل والإحسان عشكول
فهم لمغربنا عز وتفضيل
ما فاتهم ولأخرى البيت ترفيل
للعقد واسطة وهم أكاليل
من الجلالة إجمال وتفصيل
وعزه بجلال منك مكفول

رفعت إليه هذه الدالية :

بالله فاستنجز الأظعان أو عادي
وحي أهل النقا حييت يا حاد
هل من معاد بها يوما لميعادي
عمن عهدت بها أيام اسعادي
دمعي من البين يحكي ذلك السوادي
أنروح نسوح حمام فوق مباد

أهفو إليه وأشواقني تقربني
 وكم أحسن إلى نجد فينجدني
 وأها لنجد ومن حلوا بأجرعه
 مرابع كلما هاجت نواسمها
 آه لأجيدكم سألت أباطحه
 ونحن نسدي أحاديثا ونلحمها
 لا والبناء الذي طاف الحجيج به
 ذاك المجلل بالديباج تأمن في
 ذاك الذي رفعت كف الخليل له
 لا والذي وجه الله العباد إلى
 ذاك المعظم في البطحاء يقصده
 مالي وقد سارت الركبان معتذر
 لكن للذنب تعويقا لكاسبه
 سار الموفق والزلفى تسوق به
 وأثقلتني أجرامني ومجترحي
 وليس لي حيلة أرجو المفاز بها
 خير البرية روح الكون عنصره
 محمد حجة الرحمان علة ما
 لا شئ من هذه الدنيا وضرتها
 من أجله دارت الأفلاك وابتهجت
 لولاه ما بعث الرسل الكرام ولا
 لولاه ما أمسك الله السماء ولا
 لولاه ما أخذت أرض زخارفها
 ولا لساكنها أجرت مذانبها
 فهو النبي الذي حققت نبوءته
 وهو الذي طاف جبريل الأمين به
 ثم انثنى عنه جبريل وزج به
 سما إلى العرش كي يحظى برؤية ما
 وجاوز الحجب إكراما وسر به
 في حضرة العز أدناه وأشهده

منه وبعده مني كل إبعاد
 جفن سفوح قريح أي إنجاد
 مراتعا لظباء بين أساد
 هاجت على القلب أشجاني وأنكادي
 من المطايا بأعناق وأجباد
 من الصباية لا إسداء أبراد
 مجردين بلا ظلم وإلحاد
 ساحاته الطير من أشراك صياد
 قواعدا عندها رفد لو فساد
 شطريه ما بين ركاع وسجاد
 كل الأنعام بأزواج وأفراد
 والحال موسعة من فضلة الزاد
 عن الورود إذا ما استخدم الصادي
 والحظ يقتاد منه خير مقتاد
 وأقعدتني ذنوبي شر إبعاد
 إلا مديح البشير الشافع الهادي
 من نوره كل تكوين وإيجاد
 في الكون من رحمة تبدو وأمداد
 إلا منوطا بأحمد وحماد
 حور الجنان ابتهاجا غير معتاد
 تنسزل الوحشي تنزيلا لإرشاد
 أرسى بحكمته أرضا بأوتاد
 وازينت بين أغوار وأنجاد
 ولا استقرت بأشباح وأجساد
 وآدم بعد في طين وأثأد
 أعلى العلى بين أملاك وحفاد
 في وحدة النور أو في نور أفراد
 هناك من آية كبرى وأحماد
 أهل السماوات ألقاهم برصاد
 منه الجمال بلا كيف لإشهاد

وجاء بالصلوات الخمس أمته
ما زالت الأمم الأولى تبشرها
وكل ما أنزل الرحمان من كتب
يا أحسن الخلق أخلاقا وأطولهم
يا أكرم العرب بيننا في مفاخرة
أجر عبيدك من يهدي قصائده
يا خاتم الرسل يا أعلاهم شرفا
غرست نخلا فأضحت وهي ثمرة
أجريت منها زلالا باردا فغدا
وسبحت عندها الحصباء يسمعها
رميت أهل حنين بالحصى فغدوا
ويوم أصبحت الأصنام ناكسة
ويحر ساوة قد غاضت منابعا
وحنن الجذع إذ فارقت جانبه
وظبيبة كلمتك أن تسرحها
وظللتك الغوادي من هواجرها
يا دعوة الحق ياسر الهداية يا
خلفت فينا عتادا نستعد به
هذا الكتاب الذي يهدي لقارئه
وآل بيتك أبقى الله مجدهم
هم الأمان لأهل الأرض حبهم
كل الدوائر قامت من مراكزهم
فمنهم كل غوث يستغاث به
ومنهم كسل سلطان تنال به
مثل الإمام أبي زيد إمام هدى
موفق قد تولى الله نصرته
مبارك أتقده الله العباد به
أغر أشرقيت الدنيا بطلعته
مؤيسد بمسابات فأنصلسه
إن سار يوما فريح النصر تصحبه

فهن قرة أبصار لعباد
أرسالها بظهور منه مرتاد
يثني عليه بترتيل وترداد
في الجود باعا ويا نجلا لأجواد
من غالب خير آباء وأجداد
إليك محكمة كنسج زراد
كم آية لك لا تحصي بتعداد
من عامها ببنان ذات ازفاد
منه الرواء لأجناد ووراد
من كان حاضر ذاك اليوم في النادي
ما بين مستأسر أعمى وشراد
إذ لاح وجهك بدرا عند ميلاد
والنار بعد وقود ذات أخماد
وقمت تخطب يوما فوق أعواد
فاسترضعت خشفها في جانب الوادي
فسرت ملتحفيا أبراد أبراد
من أنقذ الخلق من أشراك إلحاد
لكل هول وغي أي اعداد
منه الشفاء لأرواح وأكباد
حصنا حصينا لنا من كل إفساد
ينجي من النار إن شئت لأوغاد
على سموت من التقوى وأبعاد
ومنهم كل أقطاب وأفراد
مصالح الدين والدنيا لمرتاد
وأين مثل أبي زيد لقصاد
ولايسة ذات إعزاز واعضاد
من الردى بعد اشفاء واجهاد
بالعدل والأمن في نهد وأوهاد
تغزو العدا وهي في أثناء أغماد
تهفو براياته في كف بنساد

والسعد يقدم أجنادا يقدمها
ما زال ينشر إحسانا ومرحمة
حتى استلانت قلوب الناس سيرته
نذاك مراکش الغراء حضرتته
يا مالكا ورث العلياء عن سلف
يا ابن الملوك الأولى كانت رعيتهم
لا زلت ترفل في عز وفي دول
تفيض أبهر جود في مواسمنا
ودم كما شئت مسرورا تقيم لنا
تهنيك ليلتنا هاذي ولا برحت
هي ليلة المولد الباهي وبكرته
من ليلة شرف الله الوجود بها
يا شاديا يجتلى مدح الحبيب لنا
وناده بلسان غير محتشم
يا من على الرسل والأملاك كلهم
يا معجزا للبرايا في فصاحته
قم بابنك ابن هشام في الأمور كما
فإنه يسرد الأشياء موردها
بجاه وجهك حقق ما يؤمله
وكن له ناصرا وامدد عساكره
ثم السلام كعرف الزهر ينضحه

والرعب يردفها منه بأجناد
في الناس من غير إجحاف وإلهاد
واستدعنت كل قاسي القلب معناد
محسودة الفضل في مصر وبغداد
عالي المجادة يرويهها بإسناد
يضحون من عزهم في ظل أطواد
موصولة أبدا من غير انفاد
فيضا تهين به أبناء عباد
مجالسا ذات إنشاء وإنشاد
تأتيك في كل إقبال وإسعاد
وليلة يومها عيد الأعياد
وتلك خير ليال دون أفتاد
ردد لنا مدحه يا أيها الشادي
نداء ذي وله في القلب مزداد
والإنس والجن طرا فضله باد
يا خير من مازين الظاء والضاد
تقوم في الأمر آباء بأولاد
في نصر دينك دأبا خير إيراد
من كل خير لأولاد وأحفاد
بالفتح في حال أرباب وإسآد
صوب الغمام عليك طول آياد

وفي عام ستة وخمسين ومائتين وألف عيد السلطان ببلاد دكالة عيد
المولد الشريف، وكنت هيأت هذه القصيدة فلم يتيسر من يذهب بها حتى
أرهب العيد، فلم توافه إلا في اليوم الذي قبل الليلة، ولما أبطأت عنه شرع
في إنشاء ما يقيم به العادة، فلم يكمله حتى وردت عليه هذه، ومن عجيب
الاتفاق أن التي شرع في إنشائها موافقة لهذه في رويها وبحرها، وهذه هي
التي وجهناها وقرئت :

سكران لكنه لم يشرب الراحا
أرى هواك وإن أخفيت براحا
ودمع عينك لا ينفك سفاحا

راح الفؤاد بأثر الركب إذ راحا
مالي وكنت كتوما للهوى زمنا
كم ذا وقوفك بالأطلال تسألها

لا ينفع الصب تسأل الربوع ولا
قم بالغرام قيسام العارفين به
وانهض على ذمم الأشواق في مرح
ولا تقل عند سير القوم معتذرا
يا قاطنا في غرور من أمانيه
ناداهم هاتف الاسعاد من حرم
تاتي إليه الورى شعشا مجردة
من كل معترف بالذنب ملتزم
ومن قريح ضلوع في المطاف له
وذى هيام عن الأكوان في شغل
فازوا لعمر ك بالأمر الذي طلبوا
بشراهم لم يبالوا بعدما نعمت
قد انتهى بهم الجبد الذي ركبوا
لبنية يسعد الأشقى برؤيتها
لساحة تأمن الطير المخاف بها
لبلدة لاح نور المصطفى وبدا
أرض بها ولد المختار سيدنا
شمس الهداية نور الحق رحمته الـ
سر الندى حجة المولى ودعوته
من جاء بالعدل في الأحكام ينشره
لا يمكن العد في آيات مولده
إيوان كسرى غدا إذ ذاك منكسرا
وبحر ساوة قد غارت ينابعه
والشهب تنقض والأصنام ناكسة
وأُنزل الله في الإنجيل حليته
وكسل حبر وكهان وذى خسر
ثم استفاضت وضاءت بعد ذاك له

يزيد إلا صباية وأتراحا
إن الغرام مجد ليس مزاحا
إلى السرى راكبا وجناء سرداحا
(سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا) (45)
قد أفلح الظاعنون اليوم إفلاحا
يعمم الزور أفراحا وأرباحا
مغبسة تبتغي عفو وإسجاحا
لثما للتلزم شوقا وإلحاحا
تضرع ساكب العينين نواحا
مستوحش لم يزل في الأرض سياحا
وأدركوا لثأى (46) الدارين إصلاحا
أرواحهم ما أمض الكد أشباحا
فيه مجاهل تغوى السُفر تجيحا
ويفتدى في ظلال الأمن مرتاحا
يا فوز من حل يوما تلکم الساحا
فيها السرور على الأكوان إذ لاحا
محمد ساطع البرهان وضاحا
مهداة من أوضح التوحيد إيضاحا
أسعد به ما حيا للكفر جحجاحا
نشرا يغادر جور الظلم متزاحا
من كان للعد للآيات طماحا
وملك مالكة في الحين قد طاحا
ونارهم كرماد ليس لفاحا
والجن تنفر عند الرجم جماحا
كما قد أنزل في التوراة ألواحا
بقرب ميلاد خير الخلق قد باحا
آيات صدق كما أوقدت مصباحا

(45) هو عجز بيت صدره :

(يا واصلين إلى المختار من مضرا)

والبيت واحد من أبيات أربعة لأبي العباس أحمد بن العريف الصنهاجي المرفي الشهير المتوفى سنة 536 هـ.

(46) الثأى : القصاص.

كشقي صدر بلا وصم ولا ألم
ورد أعين من سالت عيونهم
والجذع حن حنينا حين فارقه
وجاءه الشجر الفينان منقلعا
والغيم عند هجير الشمس ظلله
وأفصح الحجر الصفوان معجزة
يا من به قد أفاض الله من كرم
لولاك في الأرض ما اخضرت منابتها
ولا تمايل روض في خمائله
أنت الذي جعل الرحمان طاعته
أنت الذي جعلت من يمين غرته
يا عدتي يا مجيري يا معاذي يا
يا سيدي يا رسول الله دعوة ذي
يا سيدي يا رسول الله دعوة من
يا سيدي دعوة من شاعر غزل
يشكو إليك بنأي منك يجرحه
ينوح للذنب في أقصى مغاربه
يرجوك يا رحمة الرحمان تلمحه
كيما يوافي ذراك الرحب وافده
فليس والله بعد الشيب ملعبه
يا رب بالمصطفى يسر لنا سببا
يا رب بالمصطفى وانصر خليفته
خير الملوك إمام العدل من ضحكت
من أيد الدين بالتقوى وشيده
من ألبس الله إجلالا وأصحابه
واختصه بسعود لا تزايله
فهو الذي من ملوك الأرض ننسبه
آثاره فضحت آثار كلهم
إذا ذكرت سجايه وسيرته
حمدا لمن صان دين المسلمين به

وشق بدر غدا في الأفق ملتاحا
فهم أحد من العقبان ألاحا
والماء من كفه الفياض قد ساحا
يجر في الأرض أغصانا وأدواحا
ظلا بمثل رشاش الطل رشاحا
بأن أحمد خير الخلق إفصاحا
على العوالم الطافا وأمناحا
ولا همى الغيث بالأنواء نضاحا
ولا تفتق زهرا ولا فاحا
عنوان منجاة من لولاه قد جاحا
صلاته لجنسان الخلد مفتاحا
كهفي إذا جار خطب الدهر ملتاحا
فقر لفيض نذاك يبسط الراحا
يرجوك توسعه فوزا وإنجاحا
لجاء قدرك لا ينفك مداحا
والنأي ما زال للعشاق جراحا
فارحم غريبا لخوف الذنب قد ناحا
منك العناية بالإسعاد تلماحا
يشتد منشرح الأحشاء مفراحا
إن كان قد وجد الإنسان نصاحا
حتى تحبر في مرآه أمداحا
من لم يزل ذكره كالمسك نفاحا
آثاره في زمان صار مكلاحا
وكان لولاه بالأهواء صحاحا
مهابسة لبغاة الغي مكشاحا
لو باشر الصخر عاد الصخر تفاحا
درا نفيسا بجيد الدهر ملتاحا
والدر ما زال للحصباء فزاحا
أنستك معتصما منهم وسفاحا
مجردا دونه قضبا وأرماحا

وخصنا بمشول في مجالسه
وزان موسمنا هذا بطلعته
يا من لعزته الملاك خاضعة
هذا الفرنج يرجي أن تساعده
لو لم يكن لك بالإذعان معترفا
حياك ربي أبا زيد وأفسح في
وأكمل الله ما ترجو وتأمله
وحاط أبناءك الأنجاد كلهم
محسدا أسعد الله الرعايا به
إذا دعوت أمير المؤمنين به
مرافق الرفق يطفئ من لطافته
محمد هو أهل أن تتوجه
لا زال آل هشام ظل مجدكم
ولم تزل صلوات الله عاطرة
ما أنعمت هذه الأمداح سامعها

ندير من خمرة الأفراح أقداحا
معاشرا لشفيق الخلق مداحا
بالعزم يأتي الذي يرضيه (...)(47)
على مهادنة للسلم جناحا
لكان قد مسح الخنزير تمساحا
إيامك الغر ذات الخير إفساحا
فإنه لم يزل بالسؤل سماحا
أخص أبلج للأتصار فتاحا(48)
من بزوهو ثني السن قراحا
دعوت برا إلى الخيرات مجتاحا
نار الذي لم يزل للشر قداحا
تاج الرضا منك إشارا وإرجاحا
ممسدا في رياض العز نشاحا
تهدي إلى المصطفى كالزهر فواحا
وأعجزت في مجال الحسن وشاحا

ولما توفي الوزير الأعظم بهاء الدولة، أخونا في الله أبو عبد الله
سيدي محمد بن إدريس عام أربعة وستين ومائتين وألف رحمه الله،
انقطعت هذه السنة الحميدة، والخصلة السعيدة، وبوفاته رحمه الله تهدم
ركن عال من أركان الدولة، وظهر أثره في أخلاق مولانا السلطان المؤيد،
وقد قال لبعض جلسائه ذات يوم : والله من يوم مات ابن إدريس ما وجدنا
مثله ولا من يقاربه(49)، وهكذا وقع بعد عزله وتأخير وولاية الفقيه الوزير
الرئيس السيد المختار بن عبد الملك الجامعي وذلك عام سبعة وأربعين
ومائتين وألف، فإنه ظهر كل الظهور أثر فقده من الباب المولاي، وعرف
مقدار كفايته وبركة غرته السعيدة، وتنكرت الأحوال السلطانية عما عهدت
من لين الجانب، ولطافة السياسة، ومباشرة الخلق بالخلق الجميل، فلما توفي

(47) بياض بالأصول وجاء الشطر في الطبعة القاسية هكذا :

بالعزم يأتي الذي يأتيه وضاحا

(48) كذا جاء هذا العجز في الأصول أما القاسية فجاء فيها كالتالي :

لا سيما من سما مجدا وأفلاحا

(49) يوجد بالنسخة الأم هنا كلام شطب عليه المؤلف بسبب سهر وقع فيه فيما يتعلق بترتيب وزراء المرلى عبد الرحمان ونيه عليه
في تليد ابن اليماني السالف الذكر وقد أصلح المؤلف ذلك السهر فيما وضعناه من كلامه بين القوسين الآتيين.

الوزير الرئيس السيد المختار بمراكش عام 1251 هـ قدم مولانا المؤيد الفقيه السيد محمد بن علي الحاحي النكنافي مدة قريبة والسلطان يتوسم وينتقي من وجوه الدولة المتأهل لحمل ذلك الوزر الثقيل، فلم يجد بدا من أن يتمثل بقول القائل :

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر (50) ولا حك الجرب مثل الظفر، ولما لم يجد من يضيف إليه الأمر ويسنده خاطب نفسه بلسان الحال وهو ينشده :

أرى اليوم دستا للوزارة فارغا أما فيكم من مخبر أين صاحبه فقالوا هو القرم ابن إدريس ماله مثيل ومن ذا في الرجال يقاربه فأعاده مولانا إلى محله، ورمى إليه زمام الباب السعيد كله، فاستقامت الأحوال، وتبينته وأخذت الأرض زخرفها وزينته، فلما توفي في التاريخ المذكور ظهر لمولانا المؤيد مطلع الرغبة بكثرة اللعان، بعدما أمعن النظر فيمن يصلح غاية الإمعان، فقلد الوزارة والحجابة، رئيس العصابة، وأضاف إلى النصل مقبضه ونصابه، وظهر له أن مرماه صادف موقع الإصابة، فأجرى أحكام القضية مجاريها، وأعطى القوس باريها (51) وهو الفقيه الأجل الكاتب، الذي تفتخر به المناصب والمراتب، الشاب الحازم النجيب، ذو النظر السديد والخلق العجيب، أبو عبد الله السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي فقام بما حمل أحسن قيام، وأنزل الأمور في مراكزها، واضطلع بأعباء المنصب كما يجب، فاستقامت شئون الحضرة العالية كل استقامة، ولم يقدر أحد أن يتعدى مقامه، فلم يزل كذلك برهة من الزمان، حتى ظن أنه قد أعطي من صروف الدهر ملايس الأمان، وكان قد أعجبتته نفسه غاية الإعجاب، وطغت عليه لمكان الجدة والشباب، فكان ربما رد على مولانا السلطان المؤيد بعض القضايا وأنكرها، وشنع عليه في الباطن وربما أظهرها، ومولانا لما جبل عليه من المروءة والحياء، يتحمل له ذلك حتى أدركه من ذلك غاية السامة والإعياء، فلما كان عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف بنفس دخول مولانا المؤيد حضرة مراكش عزله بلا

(50) هذه القرينة عجز بيت لأبي قراس الحمداني صدره :

ولسد غوري ما سددت اكتفوا به

(51) هذا الاصلاح وارد في المخطوطة الملكية أما مخطوطة كلية الآداب والمخطوطة الشرقية فبقي قبيها السهر على ما هو عليه ومثلها في ذلك طبعة فاس.

سبب ظاهر، فلم يفهم أحد ما أوجب ذلك، والموجب ما أشرنا إليه، ومع ذلك فإن سيدنا ما نقص له من حاله شيئاً ما عدا التأخير عن الحجابة، فلم يزل ملازماً حضرتة وبابه، وخطته التي هي الكتابة، وقيل إنه أعطى ما تيسر عليه من المال من غير تكليف ولا إلزام، وولى السلطان حجابته الفقيه، العلامة الوجيه، الكاتب النزيه السيد محمد الصفار التطاوني، فلم يزل كذلك حتى توفى الله السلطان آخر المحرم فاتح عام 1276.

فصل في ذكر ما خص الله به السلطان المؤيد من المآثر والمفاخر والمحاسن التي ما نالها أول ولا آخر

قد تقدم لنا في صدر هذه الراية المباركة أن السلطان العادل ما مات حتى أشرفت الدولة العلوية على الانتشار، والاضمحلال والاندثار، وذلك أن البرابر الذين هم روح جسد العصبية، بالبلاد المغربية قد اتفقوا في وقعة زيان وبعدها باتصال على أن لا يتركوا للمخزن صولة ولا استبداداً، وكان الحاج محمد بن الغازي هو رئيسهم في ذلك، لأنه لما وقع منه ما وقع من الغدر والفرار في تلك الوقعة كما شرحنا، خاف على نفسه أن يواخذ بذلك ممن يقوم من الملوك، فاستعان على مكروه وتدبيره بالشيطان بوبكر أمهاوش، فريض له رؤوس قبائل البربر كلهم، حتى جمع له اتفاقهم على أنهم لا يتركون المخزن تقوم له قائمة، فتحالفوا على ذلك، وربما دخل معهم من جاورهم من قبائل العرب الذين لهم بال وقوة كبعض بني حسن، مثل الصفافعة والتوازيط، ومثل زعير وجل أهل تادلة، فلما أراد الله سبحانه نقض مبرم كيدهم، وتدمير تدبيرهم بعث الله تعالى من حضرة فضله وكرمه هذا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وأمدّه من السعادة بالجنود التي لا تحصى ولا تعد، ولا تغالب ولا ترد، فكان في جميع أموره كلما توجه لأمر عسير تيسر، وانجبر منه ما تكسر، وكلما حاول شيئاً مغلقاً انفتحت أبوابه، وعوض من خطئه صوابه، وكلما تعلقت همته ببعيد ولو بمناط الشريا تقرب ذلك البعيد إليه، وألقى بنفسه لديه عليه، حتى يكون بين يديه، هذه عادة الله التي عوده، وتأيبده الذي أيده، وهذا كله بالمشاهدة والعيان، ومن

لمتفق عليه الذي لا يختلف فيه اثنان، من أول ملكه إلى آخره، فما خالفه أحد في أمر إلا كبه الله على مناخره، وأدل دليل على ما ذكرناه أن البرابر الذين تقدم حديث مكرهم والتماؤ على معاندتهم للمملكة وغدرهم، لما أراد الله تعالى فصم ما عقدوه، وهدم ما شيدوه، جعل لذلك سببا قويا، ولطفا خفيا، وقد قلنا إن منشأ ذلك الفساد هو ابن الغازي الزموري، وقد قدمنا أنه تلميذ مولاي العربي الدرقاوي، وأنه لا يخالفه في أموره كلها، وكان مولاي العربي كما قدمنا محبوسا عند الوداية في أيام فتنة أولاد مولاي البزيد، ولما فتحت فاس وسقطت رايتهم، جاء صبيان من أولاد مولاي العربي إلى مولانا السلطان العادل يرغبون في تسريح أبيهم، فحلف بالله أنه ما أمر بقبضه ولكن الله قبضه، وهو لا يسرحه حتى يسرحه الله الذي قبضه بغير أمره، فأحسن إلى الصبيان وكساهم، فلما مات مولانا العادل وتولى خليفته المؤيد دعت الضرورة ابن الغازي إلى تسريح شيخه لأن أولاده قد نزلوا عليه وألحوا عليه، فلم يجد بدا من إظهار الطاعة، والدخول مع الجماعة، فورد على السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بإخوانه وبيعتهم وهديتهم، فلما رآه البرابر الذين تحالفوا معه خالف ما تعاقدوا عليه ظهر لهم أنه غدار مكار كذاب، وهو كذلك، فنبذوا ذلك العقد وسارعوا إلى طاعة السلطان بأنفسهم وأموالهم، فسبحان من إذا أراد شيئا هيا أسبابه، وفتح بابه، وأما ابن الغازي فإن مولانا السلطان المؤيد من لطف سياسته، قابله بغاية الإحسان، وأفاض عليه سجال الامتنان، وجعله عمدة آرائه، ومستند أموره من أمامه وورائه، فكان لا يقطع أمرا دونه من قنطار إلى موزنة، بعدما سرح له شيخه ورفع قدره، وشرح بذلك صدره، فأوصاه الشيخ على طاعة السلطان، ونهاه عن شق العصا واتباع الشيطان، ومن مبالغة السلطان المؤيد في الإحسان إلى ابن الغازي أنه زوجه زوجة عمه السلطان العادل ابنة بوسته، (52) وكانت من حظايا مولانا العادل، وذلك من حسن السياسة العجيبة، فإن ابن الغازي لما رأى السلطان سمح له في تزوج حظية عمه ظن أنه نسي ما فعله من غدره وتسببه في إهلاك تلك الجنود المجندة من عساكر المسلمين وأمير المؤمنين، وهدم قواعد المملكة

(52) جاء بهامش الأصل بخط ابن المؤلف سيدي عبد الله ما نصه : "تزوج ابن الغازي بكثوم بنت بوسته أم مولانا عبد العزيز بن سليمان".

التي لولا أن الله سبحانه جبرها بولاية هذا السلطان المبارك الغرة لما كان لها قيام إلى آخر الدهر، فلما اطمأن هذا الظالم الغادر، وأمن من مكر الله، لما أرخى له مولانا المؤيد عنانه، وأفاض عليه مبراته وإحسانه، وذهب معه لمراكش في ظلال الكرامة التامة، ورجع معه إلى قاس، ثم عاد معه أيضا إلى مراكش وهو لا يزداد إلا تقريبا وإيثارا ورفعة شأن وضخامة جاه، فلما استقر في حضرة مراكش تعرض له عبيد البخاري ليلا وهو نازل من الحضرة العالية، فضربوه بالرصاص فأخطأوه وأفلت، وأصبح يسب ويرق ويرعد، ولم يطلع لدار المخزن أياما غاضبا على الدولة كلها، وأخبر السلطان أنه يدبر الهروب سرا، فأمر السلطان بالقبض عليه وتوجيهه للجزيرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام، فبقي بها زمانا ثم أصبح ذات ليلة ميتا ولم يدر سبب موته.

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر (53)

وعلى كل حال قد انتقم الله منه، وأراح المسلمين من شره ومكره، وواخذه بسوء عمله، ولعذاب الآخرة أشق، وهذا كله إنما ذكرناه دليلا على سعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن سعادته أيضا أنه لما ولي وجد بيوت الأموال فارغة قد أكلت الفتن المتوالية ما كان فيها، فإنه من حين وقعة زيان انقطعت الجباية، ومنع القبائل ما بأيديهم، فرجعت المملكة إلى بيوت الأموال في ضرورياتها ورواتبها ولوازمها المتكاثرة، ولا سيما عبيد البخاري فإنهم وجدوا بيت المال على طرف الثمام، (54) بين أيديهم، فجعلوه نصب أعينهم، وغاية معولهم، حتى نسفوه نسفا، وأظهروا في ذلك على مولاي الحسن الخليفة عليهم جرأة وعسفا، فما مضى من ولاية مولانا المؤيد إلا زمن قريب حتى أذعنت القبائل للحق، وأدوا ما فات من واجب الزكوات، وعادوا إلى المعهود من الجبايات، وترادفت الخيرات على المملكة من كل جانب. وما ذلك إلا بسعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن ذلك أيضا أن الجيش البخاري لم يبق من خيلهم عند موت السلطان العادل إلا ما لا عبرة به كما قدمنا في أول هذه الراية، فأحياء مولانا المؤيد حتى عادت له

(53) البيت من رائية ابن عبدون في رثاء بني الأفطس التي مطلعها :

الدهر يجمع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصود

(54) يقال : هذا منك على طرف الثمام أي قريب سهل التناول.

الصلوة، وقامت به الدولة، إلا أنه لم يأمنهم على اختزان الأموال في جوارهم وبين ديارهم، بل أخذ حذره منهم في جميع أمره، والسعيد من اتعظ بغيره، ومن مآثر هذا السلطان المؤيد التي ادخرها للمعاد، وآثاره التي شيدها في البلاد، وذلك ما افستح به ولايته وهو بناء ما تهدم من مرسى ثغر طنجة، وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان، ومن ذلك أيضا شراء دار شقشاق المجاورة لحرم مولانا إدريس بفاس وزيادتها في مسجده، فكمل بذلك رونق ذلك الحرم الشريف، وتم بهاؤه وحسنه، ومن ذلك بناء ما تهدم من سقالة الشجر السويري فإنه وجه على العملة البنائين من بر النصاري، وكان يلزمه من ذلك في كل يوم من الأموال ما يتعجب منه حتى أزال فسادها من الأساس الواغل في البحر، فجاءت في غاية الإلتقان والحصانة، ومن ذلك المساجد التي جردها بحضرة مراكش كجامع الكتبيين مرتين، مرة على يد ابن العادل، (55) ومرة على يد الشريف مولاي إبراهيم البوكيلي (56) المحتسبين، فإن ذلك الجامع كان قد تداعى للخراب لولا إصلاحه له، ومن ذلك الزيادة في جامع سيدي أبي إسحاق على يد مولاي إبراهيم المذكور، ومن ذلك هدم جامع الوسطى وإعادة بناءه على شكل بديع وهياة عجيبة على يد القائد السيد أحمد بوستة، ومن ذلك بناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولا، ومن ذلك بناء جامع القنارية والزيادة فيه على يد القائد المذكور، ومن ذلك وهو أعظم من ذلك كله إصلاح جامع المنصور، فإنه كان ما بقي منه إلا الاسم مع ضخامة بنائه الأصلي الذي كانت تضرب به الأمثال، وكان قد أشرف على اضمحلال آثاره، فأمر مولانا المؤيد رحمه الله عامله المذكور السيد أحمد بوستة بالوقوف على إصلاحه، فاستفرغ ذلك العامل جهده في ذلك ليلا ونهارا، وأنفذ الجهد والطاقة فيه حتى عاد إلى شبابه الأول، ومن ذلك إصلاح فبة الشيخ أبي العباس السبتي، ومن ذلك صيانة سور أكدال بالسور الهائل الذي لا تؤثر فيه الأيام بتطاولها على يد مولاي إبراهيم المذكور أولا، ثم على يد القائد بوستة المذكور ثانيا، وأما إنشاء غرس أكدال فقد تقدم لنا خبره في أول هذه الراية السعيدة، ومن ذلك أيضا

(55) ابن العادل هو السيد عبر محتسب مراكش.

(56) مولاي إبراهيم البوكلي محتسب مراكش.

بحضرة فاس العليا عمارة عرصة للامينة (57) التي كانت خرابا تألفها
الوحوش مع أنها في باب الدار السلطانية، وفي سرّة حضرة الملك، وقد
كانت في الدولة المرينية التي أنشأت تلك البلدة من أصلها على هيئة،
جامعة للمحاسن الغير المتناهية، فيها ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها،
وجلالة سلطنتهم وفخامتها، فيها مقاعدهم ومنازلهم العالية، ومجالسهم
المشرفة على بساتين المستقى المجاورة والموالية، يشقها نهر فاس عرضا،
ولكن لا يسقي لها أرضا، يدخل من الجهة الغربية، ويخرج من الناحية
المشرقية، ومرادهم بالدخول التمتع بالتنزه على ضفتيه وإقامة مواسم الأنس
حول ضفتيه، وأما سقي العرصة فقد رفعوا له الماء بالدواليب السامية
النحاسية، وأجروه في القواديس والقنوات الرصاصية، وبالجملة فقد كانت
تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من الابتهاج المرتبة
العليا، ثم أخذت عليها الأيام بصروفها، ومحت من تلك الرسوم جميع
حروفها، فرآها الملوك قبيل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها، ولا أنقذوها من
أحوالها، مع أنها في أقرب جوارهم، وفي عقر ديارهم، فعطف الله عليها
هذا السلطان المبارك، فأعاد بعد الممات محياها، وأبرز من ظلمات العدم
جميل محياها، فأقام دولابها الذي هو كالفلك الدوار، حتى تفتقت في
جنباتها الأزهار والأنوار، ولبست حلل الزينة تلك الأبراج والأسوار،
ورقصت فيها الأدواح بدون اختيار، لما تغنت على فروعها سواجع الأطيّار،
والتحفت خمائلها الملابس السندسية، المطرزة بالأزهار الزخرفية، وتبخرت
من جداولها بخلاخل النضار، فكان عندها موقف استحسان النظار، أما
غوطة الشام فقد نعاها هزارها الغرد وأما المسرة فليست إلا على ضفة
نهرها المطرد، وأما أبو الجلود فقد طوى جلوده، لما رفع هذا الدولاب
العالي بنوده، وذلك بسعادة مولانا المؤيد، وهذا بعض مآثره التي شيد.

وأما أوصافه الجبلية التي طبع عليها، ومال في كلية أموره إليها،
فلا تحصى ولا تعد، ولا ترسم ولا تحد، من ذلك الكرم والشجاعة والحياء،
والحلم والصبر والوفاء، وطهارة الباطن، التي عنوانها نزاهة الظاهر، وعدله
في القضايا التي وصلت إليه على حقيقتها، وقيامه بنوافل الخيرات من

(57) جاء بهامش الأصل بخط سيدي عبد الله ولد المؤلف ما نصه : "هذه آمنة بنت السلطان المريني كانت فقيهة عالمة أدبية لها
سطرة وجاء وهي مذكورة في جذوة الاقتباس لابن القاضي".

الصيام والقيام والمحافظة على أداء الصلوات، وحسن الظن بالله، والتوكل على الله في جميع الأمور، هذه الأخلاق كلها كانت فيه على الكمال بالمشاهدة التي لا تحتاج إلى برهان، ولو ذهبنا إلى ذكر ما وقع له منها نطال بنا الحال، وسلفه فيها وإمامه وشيخه هو عمه السلطان العادل مولانا سليمان رحمهما الله تعالى، فإن مولانا المؤيد كان من عاداته المقررة ألا يخرج عن سنة عمه وطريقته غالباً، فكان يبحث ويسأل في الأمور العارضة نه كيف كان يفعل في مثل هذا، فإذا أخبر به جعل حكمه في ذلك الأمر فصل قضيته، وما علمنا أنه خالفه في شيء إلا في النزر القليل، ولا يخالفه إلا إذا ظهرت له مصلحة تحقق وجودها في زمانه دون زمان السلطان العادل، وذلك صحيح في قواعد السياسية المدنية، فإن التمدن الذي سببه العمران تختلف أحكامه باختلاف الأعراف المنتقلة بحسب الأزمان، فرب أمر كان يصلح في زمان كان العرف فيه مناسباً لذلك الأمر ولا يصلح في زمان آخر إذا تبدل عرفه وحدث عرف آخر، وهذا مشاهد بالضرورة حتى في الأحكام الشرعية فضلاً عن المدنية، ومما خالف فيه مولانا المؤيد عمه العادل قضية تجديد العمال إذا كثرت الشكايات بهم من رعيته، فإن مولانا السلطان العادل رضي الله عنه ما كان يتوقف في ذلك والعمال عنده محمولون على الظلم والطغيان، ولا يحتاج في إثبات ظلمهم إلى بينة، لا سيما إن طالت ولايته، وربما يستشهد بقول المالقي في قصيدته السياسية :

لا تنكر الظلم ممن دام في عمل فإن طول مداه فيه أطفاه .

وهو والله العظيم صادق في ذلك، ناصح للملّة وأهلها، إلا أنه نشأ عن ذلك النهج الذي اعتمده فساد آخر، وذلك أنه لما اشتهر عند العامة أن السلطان لا يحتاج في الشكاية بالعامل إلى بينة صار كل من أراد عزل عامله اجتمعت شُرذمة منهم وشكوه إلى السلطان فيعزله، ثم إذا لم يوافقهم العامل المجدد على مرادهم فعلوا مثل ذلك، وهكذا فلا يستقيم للحكام حكم على الرعية، وبذلك يحصل الخلل وانحلال الأمور المدنية، فكان الضرر الناشئ عن تبديل العمال بأدنى سبب أقبح وأشد من الضرر الناشئ عن الصبر على ظلم العامل، وهذا هو الذي حمل مولانا المؤيد على مخالفة

عمه، وكان يقول : الرعية أظلم من العامل، وظالم واحد أخف من ظلم العدد الكثير، وسبب هذا هو ما أشرنا إليه من اختلاف الأعراف باختلاف الأزمان، وإن كان الذي ذهب إليه مولانا العادل هو الحق الموافق للسياسة الشرعية، فقد ذكر المقرئ في نفح الطيب أن الإمام الأجل الكامل المكمل أبا عبد الله سيدي محمد بن عباد (58) شارح الحكم كتب إلى عامل فاس في زمانه على قضية يرشده فيها إلى فعل ما هو الأصلح، فخالفه العامل فيها ولم يعبأ بقوله، وكان ابن عباد رضي الله عنه هو الإمام في جامع القرويين فصلى السلطان ذات يوم الجمعة بالقرويين بقرب مخالفة العامل للشيخ، فكان من جملة ما قال الشيخ في أثناء خطبته أن قال : من الأمور المستحسنة ألا يبقى العامل أكثر من سنة، فسمعه السلطان فعلم أنه هو المخاطب بذلك، فعزل العامل في عشية ذلك اليوم، انتهى بمعناه. وهكذا في كل ما خالف فيه مولانا المؤيد عمه إنما هو لمصلحة أوجب الزمان اعتبارها، وكذلك مولانا السلطان العادل خالف والده في أمور عديدة مما اقتضته المصلحة الزمانية كما ذكرناه، من ذلك أن مولانا السلطان سيدي محمد كان ظهر له أن اشتغال طلبة الفقه بقراءة المختصرات في كتب الفقه والإعراض عن الأمهات المبسوطة الواضحة الدلالة على الأحكام الشرعية، تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، يبالي في التشنيع على من اشتغل به حتى كاد الناس يتركون كتابته وقراءته، وكان يحضهم على كتاب الرسالة وأمثالها، ووضع في ذلك كتاباً (59) معلوماً مبسوطاً، وأعانته على ذلك المذهب بعض علماء دولته، كالعلامة الغريبي (60) الرباطي، ورفيقه العلامة ابن الأمير السلاوي (61) وكذلك كان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم، وكان يحض على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ

(58) محمد بن عباد شارح الحكم لابن عطاء الله الاسكندري، وابن عباد النفزي الرندة نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن ابن سبع سنين وله تأليف عديدة ت 792 هـ 1389 (معجم الطبرعات) 1 ص 157 " نيل الابتهاج بهامش الديباج " ص 279.

(59) كتاب سيدي محمد بن عبد الله في التعليم.

(60) الغريبي الرباطي سبقت ترجمته بهامش راية سيدي محمد بن عبد الله في سفارة مع ابن الأمير السلاوي.

(61) ابن الأمير السلاوي سبقت ترجمته مع المذكور أعلاه.

من ظواهر الآيات والأحاديث الصحيحة بلا تأويل على ما ذهب إليه جماعة من الأئمة المجتهدين كالإمام أحمد وداود الظاهري واتباعهما، وكان يقول عن نفسه : إنه مالكي مذهباً، حنبلي اعتقاداً، ومجاليسه ومحاضراته كلها تدور على هذا المركز، وله في ذلك أخبار عجيبة، ووقائع يمتحن بها بعض الناس، وذلك أمر محمود سديد لا حرج فيه، وهو طريق مضمون السلامة، قريب على المتناول من عوام المسلمين، وأما العلماء أرباب الأنظار التي أوسع الله لها المجال في إدراك المسائل بحججها المعقولة، فإن هؤلاء لا يكتفون بتلك الظواهر التي تنفر العقول من قبولها بدون تأويل، لا سيما إذا أنقبت إليهم بما أضاف إليها غلاة أهل الظاهر كابن حزم وأمثاله، في مسألة الاستواء، وقدم الأصوات بالقرآن والمداد المكتوب به المصحف والأوراق المكتوب فيها ونحو ذلك مما هو معلوم من أقاويلهم، فلما تولى مولانا السلطان العادل لم يكن عنده أهم من إبطال ما ذهب إليه والده الناصر مما ذكرناه، لا من قراءة المختصر ولا من مسألة الاعتقاد، فلم يكن عنده أعز ممن يحفظ مختصر خليل، بل من لم يحفظه من الفقهاء عنده ناقص لا يعول على فقهه، فتنافس الطلبة في حفظه، فكان يعطي على ذلك العطاء الكثير، وقد أخبر بصبي مراهق يحفظه فأمر بإحضاره، فاخبره فوجده كما ذكر عنه فأعطاه ألف مثقال، فلم يقدر على حمله لصغره فأعطاه غلاماً يحمله له، وكساه وكساه والده، فلما علم أن جل الطلبة يحفظونه رتب لهم حزباً في جامع القرويين يقرءون منه كل يوم جزءاً كما يقرأ القرآن، وحبس على ذلك أوقافاً معتبرة، ومن أجل اعتناؤه بذلك كان جل أولاده يحفظونه، بل بعض بناته كذلك، وهو من أعظم مآثره التي لم يسبق فيها ولم يشاركه فيها أحد ممن تقدمه رضي الله عنه.

وأما مسألة اعتقاد الأشعرية فإنه كان يحض الناس على قراءة عقائد الإمام السنوسي وأمثالها، ولا أعز عنده ممن يحسن التكلم في مذاهب المتكلمين، وليس عنده عالم إلا من له حظ من فن الكلام وغسيره من المعقولات، لا سيما البيان، فله فيه ذوق عجيب، سألتني يوماً أظنه على جهة الاختبار عن قوله تعالى : {ولكم في القصص حياة} مع ما كان

العرب يقولون إنه لا أوجز منه في كلامهم، وهو قولهم : القتل أنفى للقتل، فذكرت له ما قاله السعد في المطول على التلخيص وكنت قريب العهد بذلك، فأعجبه ذلك مني غاية علي البديهة، وذلك من عناية الله تعالى بي، وبذلك كان يرى لي منزلة، وأوجب لي مكانة وعناية منه على صغر سني إذ ذاك، وكان يقدمني علي من هو أكبر مني رحمه الله ورضي عنه، وكان جلساؤه من العلماء كلهم أئمة في هذه الفنون، كالعلامة السيد عبد القادر بن شقرون(62) والسيد محمد الهواري(63)، والشيخ السيد حمدون بن الحاج، والسيد الطيب بن كيران(64)، والعلامة الفقيه السيد محمد بن عمرو الزروالي(65)، والسيد محمد بن منصور(66)، فهؤلاء كلهم أشياخنا، ما عدا ابن شقرون وابن كيران، والهواري ما أدركناهم، وكل واحد منهم حجة في البيان والأصول والمنطق والكلام والتفسير والحديث، وكلهم عنده في غاية القبول والمكانة العالية.

ومن جملة ما خالف فيه مولانا السلطان العادل والده سيدي محمد مسألة المكس، فإنه كان ينكرها ويعجبه قول ابن البراء(67)، وأما السلطان الناصر سيدي محمد فقد تقدم لنا أنه استفتى العلماء فاعتمد فتواهم، فكان يأخذ على الأبواب والأسواق وجميع السلع والغلل، فكان قدر ما كان يجتمع في ذلك كل سنة نصف مليون وهو خمسمائة ألف مثقال، معلومة مشهورة ثابتة مقررة في الدفاتر، مبيعة في ذمم قواد البلدان وعمال القبائل، كل مدينة وما عليها، وكل قبيلة وما عليها.

ومن ذلك المكس كان صائر العساكر في الكسوة والسلاح والسروج

(62) عبد القادر بن شقرون القاسي. علم واسع، ومجدد شامخ، ومحقق وتدقيق ومشاركة في كل طريق، فضاض كل مشكل ونرد كل معقل قاضي سبلماسة وفاس ت 1219 هـ 1804 م "السلوة" ج 1 ص 95 "الفكر السامي" ج 4 ص 128.

(63) محمد الهواري الشيخ العلامة والخير النعمانية، وأسطرة المعتقد في العلوم الأدبية ت 1220 هـ 1805 م ودفن بضريح سيد أنوار معه في بيته، "فهرست الكوهن" مخطوط خاص ص 9 "السلوة" ج 1 ص 307.

(64) الطيب بن كيران، عالم محقق نقاد، حامل لواء العلوم العقلية في المغرب، صاحب المؤلفات الكثيرة، ومنها شرح على الحكم العظائية ت 1227 هـ 1812 م "فهرست الكوهن" مخطوط 11 "الفكر السامي" ج 4 ص 128 "السلوة" ج 3 ص 2 "الشرب المحتضر" ص 7.

(65) محمد بن عمرو الزروالي الأصل القاسي الدار والمنشأ، كان رحمه الله بحرا لا يجارى في مجال العلوم، ت 30 وقيل 1229 هـ 1813-14 م "السلوة" ج 3 ص 5.

(66) محمد بن منصور الفريسي المراكشي، وفي "الإعلام" العيسوي، الأديب ت 1203 هـ 1788 م "الانحاف" ج 4 ص 188 "الإعلام" ج 6 ص 109 وقد ذكره "الضعيف" في تاريخه، ص 195.

(67) ابن البراء لم تعثر على ترجمته.

والعدة والإقامة، والخياطة والتنافيد لوفود القبائل والقاصدين والمثونة للمعساكر ولديار السلطان وتعلقاته، فكان ذلك المكس كافيا لمصارف الدولة كلها، لا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتها، وكان متحصل المكس يعادل مال المراسي والأعشار، هكذا كان في دولة السلطان الناصر سيدي محمد، وكان المكس أيضا في الدول التي قبل هذه الدولة الشريفة، فقد ذكر الشيخ سيدي أحمد باب أن الشيخ العلامة البركة سيدي عبد الله العبدوسي (68)، كان يعطي في الأبواب ما يعطيه الناس، فيقال له: لا تحتاج لذلك، فيقول لا أريد مخالفة الناس، وكان من العلماء العاملين والأولياء الصالحين، وكان في دولة بني مرين عام 841، قال له سلطان زمانه أبو الحسن: أريدك أن تخرج مع العامل لقبض الزكاة، فقال له: أما تستحيي من الله تعالى، تسمي مغرما من مغارم الظلم بلقب من ألقاب الشريعة، فغضب السلطان غضبا شديدا، فضربه بالسيف في غمده، فقام الوزير وأخذ بيد السلطان، وأخرج الشيخ، فأخذ السلطان ألم شديد حتى أشرف على الموت في الحين، فعلم أنه أصيب من جهة الشيخ، فأمر به فرد إليه فطلب منه الدعاء وتاب إلى الله، فدعا له فعوفي في الحين، فكان بعد ذلك يذهب على رجليه إلى دار الشيخ ويزوره، انتهى، وقد زهد مولانا سليمان رحمه الله في هذا المكس ولم يلتفت إليه، وإنما ذكرنا هذا لئلا يتوهم أن مخالفة مولانا المؤيد لعمه العادل تنكيت عليه أو تخطئة له فيما ذهب إليه، لا سيما في مسألة العمال فيأتي سمعت بعض الجهال يخطئ مولانا سليمان في كثرة عزله للعمال بمجرد الشكاية بهم، ويصوب فعل مولانا عبد الرحمان في أرخاء العنان لهم والثقة بهم، حتى يتحقق كل التحقق سوء فعلهم، وشدة ظلمهم، ولا يقبل مطلق الشكاية بهم من رعاياهم، لأن الرعية تكره العامل على كل حال، وقد بينا السر في ذلك كله، ووجه السياسة فيه، والله أعلم وأحكم، وتلك الخصال التي قلنا إنها جبيلية في مولانا عبد الرحمان موجودة فيه على الكمال هي في مولانا سليمان كذلك، موجودة فيه وهي فيه أكمل.

أما الحياء فإنه رحمه الله تعالى أشد حياء من العذراء في خدرها،

(68) عبد الله العبدوسي كان إماما فاضلا عالما عاملا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، حسب "الدور البهية" ج 2 ص 348 ت 848 هـ 1444 م والمترجم رحمه الله خطيب بالقروين، ولشدة زهده لم يرجد عنه وفاته الأبرنس ودراعة.

فكان إذا أراد أن يقبض أحدا لا يمكنه من رؤية وجهه، ومن رآه وواجهه يأمن من ضرر يلحقه في تلك الحالة، وأما الجود والكرم فكان أجود من الغمام الصيب، لا سيما على جنس العلماء وحملة الشريعة، فقد تمولوا الأموال الثقيلة، وأدركوا القناطير المقنطرة بعد الشدة الشديدة، وتأثلوا الرباع والعقار والأصول التي لا يدركها إلا أهل الأسباب الكثيرة، وأما الحلم فإنه أحلم من الأحنف بن قيس وخاله قيس بن عاصم، لا يصده عن ذلك حز الغلاصم، فمن حلمه رضي الله عنه حلمه على أهل فاس الذين بلغوا الغاية في السعي في هدم أركان دولته ومحو آثاره بكل ما قدروا عليه وحاربوه بماله ونعمته، فلما أمكنه الله منهم عفا عنهم بعد الشدائد التي يهد الجبال سماعها فضلا عن مشاهدتها، وكان القاضي السيد العباس بن أحمد بن التاودي (69)، لما جئت أودعه عند خروجي من فاس، والذهاب إلى ملاقة مولانا العادل كما تقدم أوصاني بأمور أبلغها للسلطان عند ملاقاته، من ذلك أنه قال لي : إذا وجدت فسحة وسعة في مخاطبته فقل له : يقول لك العباس : إننا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة الفساد أن تصفح عنهم وتتجاوز عن جرائمهم، فقلته له في أول مجلس، فقال لي : كيف أصفح عنهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عزيز لما ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يسرحه ولا يعين عليه وعاهده على ذلك، فعفا عنه عليه الصلاة والسلام وسرحه، فلما بلغ إلى مكة نقض ورجع إلى ما كان عليه، فلما ظفر به مرة أخرى في بدر الموعد (70)، فقال له : اعف عني فإنني لا أعود، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا أتركك تمسح سبلتك بمكة وتقول خدعت محمدا مرتين، انتهى، فلما قال لي ذلك ظننت أنه إذا فتحت فاس لا يترك أحدا من أولئك الشياطين إلا قتله، ولو أحرقه لكان قد أصاب بعض حقه، فلما فتح الله عليه فاسا ما غير أحدا ولا أخذه بل عجل الخروج من فاس مخافة من حمل أهل محبته له على الانتقام الذي ليس من جبلته، وكنا نظن أنه يمثل بمولاي السعيد بن اليزيد وإخوته وأبناء إخوته كابن عبد الكريم بن اليزيد الذين سعوا في الأرض الفساد فأعرض عن ذلك كله، ومن حلمه أيضا حلمه على مولاي عبد الملك

(69) العباس بن أحمد بن التاودي سبقت ترجمته.

(70) كلا بالأصول والصواب أنه ظفر به في غزوة أحد.

بن إدريس الذي قام عليه في الشاوية كما تقدم خبره، بل تركه على حاله ولم يغير من نعمته شيئاً، بل زاده إحساناً وتركه في ديار أبيه، «وكان له مجلس وخواص لا شغل لهم ولا حديث عند جلوسهم على موائدهم إلا سب السلطان والفرح بمسائه، وانتظار زوال ملكه وانقضاء أيامه» (71)، وكان يبلغ ذلك إلى السلطان فلم يبال به وصبر على إذايته حتى كفاه الله شره بموته وانقضاء أيامه بدل ما كان هو يتمنى أن يبقى وراء السلطان، وهكذا عادة الله في كل من عاداه أو آذاه من الأقارب والأباعد، «وذلك مصداق قوله عليه الصلاة والسلام (لا تتمنوا تغيير الدول فتحرموها) انتهى» (72) وقد اقتدى به مولانا المؤيد في هذا الحلم الذي لا يقدر عليه إلا أكابر الرجال، وهذه الخصلة الشديدة على النفوس البشرية (ولا يلقاها إلا الصابرون) كما فعل مولانا العادل مع أهل فاس، فعل مولانا المؤيد مع الوداية، وكما فعل مولانا العادل مع مولاي السعيد وأهل بيته، فعل مولانا المؤيد مع ابن الطيب حذو النعل بالنعل، وكذلك فعل الله تعالى بأعداء مولانا عبد الرحمان فأبادهم وأقنى أعدادهم (فهل ترى لهم من باقية).

وأما عبادة الله تعالى من القيام والصيام ففي ذلك جعل الله قرة عينه وراثته نبوية، فكان رحمه الله لا يترك شيئاً من أوراده حضراً وسفراً، في المنشط والمكره، كان يختم القرآن في كل شهر ثلاث مرات موزعة على الأيام، يعد ذلك عداً، ولا يشغله عن ذلك شاغل، ويختم دلائل الخيرات في كل جمعة، ولا يطلع عليه الفجر إلا متوضئاً مستقبلاً القبلة، مصلياً أو تالياً، وكان يوصينا في السفر أن نوقظه إذا بقي للفجر القدر الذي يكفيه لورده، وذلك يختلف باختلاف طول الليل وقصره، فإذا جئنا نوقظه وجدناه قد سبقنا وجلس في مصلاه، وكان لا يتلو إلا إذا أحضر من يسمعه، وإن كان حفظه غاية إلا أنه كان يفعل ذلك حزماً، وإن بقي عليه شيء من ورده من التلاوة تلا وهو راكب في الطريق بحضور من يسمعه، هذه عادته رضي الله عنه، وكذلك مولانا المؤيد، أخبرنا الثقة من أولاده الكرام أنه لا يجده الفجر إلا كما ذكرنا عن عمه متوضئاً مستقبلاً، وكان يكسر الصيام أكثر

(71) ما بين العلامتين وارد في الأصل وحده.

(72) ما بين العلامتين ساقط مما سوى الأصل.

من مولانا سليمان، الله أكبر، انظر الى هؤلاء السادات الكرام الذين لم تلههم الدنيا بزینتها عن الآخرة، ولم تشغلهم النعمة الظاهرة، والمراتب الفاخرة، والفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والمحابيب المضاجعون (73)، والندماء المجالسون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

هذا بعض ما خص الله به مولانا المؤيد من المحاسن والمآثر والمحامد التي لا حصر لها، ولأجل ذلك أیده الله تعالى بالسعادة في جميع أموره، وأصبحه العناية في كل أحواله، وحركاته وسكناته، فتيسر له كل عسير، وأذن لأمره كل جبار عنيد، والتزم طاعته القريب والبعيد، وأصلح الله له جميع ذريته، فلم يكن في أولاده مثل أولاد الملوك الذين تغلبهم سورة الملك ونخوة السلطان وشره الغلبة على الناس، بل كلهم منغمس في المروءة، وملتحف بالطهارة، ومرتز بالمسكنة، وذلك من عجائب قدرة مولانا تبارك وتعالى ومن خرق عوائده التي يتعجب منها، ولم يتفق لأحد من الملوك في أولاده مثل ذلك حتى في أولاد مولانا سليمان الذي بالغ في استصلاح أحوال أولاده بكل ما تبلغه طاقته، فأقرأهم بالسبع الروايات، وحفظهم الأمهات، وألزمهم مرافقة أهل الخير والديانات، فلم يكن إلا ما أراد الله تعالى، وكان رحمه الله يأسف على ذلك، وأما ساداتنا أولاد مولانا المؤيد فإنهم ما نالوا ذلك بكثير اعتمال، وإنما هو بتسخير الله وموهبته، ورضا والدهم وسعادته وحسن نيته، وقد حقق الله تعالى رجاءه، فجعل الخلافة وقفا مؤبداً على عقبه، وظهرت بركته وعنايته في أكبر أولاده وأعزهم عنده، ومحل نظرتة وخليفته في حياته وبعد مماته مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد، فإن مولانا المؤيد كان عزم على العهد له عام إحدى وسبعين ومائتين وألف، وفاوض في ذلك بعض كبار عماله العقلاء النصحاء، وهو فلان، فأشار عليه ذلك البعض بالمسارعة لذلك، واستحسن رأيه وعزمه عليه وشكره، وقال له : لقد كنت أردت أن أشير بذلك على سيدي فخفت أن يكون مني فضولاً غير صواب، لأنني لم أعلم ما نظر سيدي وما في باطنه، فلما ألهم الله مولانا له كان ذلك علامة الإذن فتجب المبادرة له على سيدنا والعزم به، فإن العزم له بركة، ولكن ينبغي لمولاي

(73) كذا بالأصول والناسب المضاجعات.

أيده الله أن ينتبه لأمر عارض ربما كان فيه تشويش وتعويق دون مرادنا، وبين له ذلك الأمر وعرض ببعض العمال الذي له في ذلك الأمر دخل تام، وهو فلان وفهم مولانا السلطان ذلك وقال له : صدقت، وها نحن ندبر في إزالة ذلك الأمر العارض إن شاء الله تعالى، ثم إن العامل الذي له دخل في ذلك الأمر سمع الخبر وتحقق الحكاية وما نسب إليه فيها، فصرف همته إلى إفساد ما بين ذلك العامل الأول المشاور وبين السلطان بكل ما قدر عليه، فلم يزل يغري به السلطان وينقل عنه كل سيئة تقع في الحوز، واستعان على ذلك بأناس آخرين من كل جانب حتى من داخله السلطان، وحرم داره، وكان له اتصال شديد بالحضرة العالية، وإطلاع على بواطن الأحوال وظواهرها، فلم يمض على ذلك إلا زمن يسير حتى تغير خاطر السلطان على ذلك المشاور، فقبض عليه ونهب داره واستصفى جميع أمواله، وقيّد غيره بدله، وقامت قيامته، ولكن لم يزل مولانا السلطان يتخيل ذلك الأمر الذي حذره منه ويحتال في إزالته، وبعد ذلك ظهر له صدق ذلك المشاور المقبوض، فسرحه وأكرمه وعمله في محل آخر عمالة أكبر من التي كان فيها، ثم سافر مولانا المؤيد إلى الغرب آخر سفراته، فأقام بمكناس كثيرا حتى أدركه مرض موته، فأذهله عن ذلك العزم مع كونه مصرا عليه، فعلم الله تعالى شدة اعتناؤه بذلك العهد، وأنه ما صرفه عنه إلا مرضه، فلم يحوجه سبحانه لذلك، فلما توفاه الله تعالى لم يختلف أحد في ولاية مولانا أمير المؤمنين من أهل المغرب قاطبة، وكان ذلك بمنزلة العهد الثابت المتفق عليه، وكانت وفاة مولانا المؤيد رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع وعشرين من شهر المحرم فاتح ستة وسبعين ومائتين وألف (74).

(74) كذا بالأصل وفي غيره : "وكانت وفاة مولانا المؤيد يوم الثلاثاء في تسعة وعشرين من شهر ذي الحجة متم عام خمسة وسبعين ومائتين وألف". والصواب ما في الأصل أما ما في غيره فقد كان من شهر المزلّف الذي أصلحه وانظر تقييد ابن الباتني السالف الذكر.

الراية الخضراء المباركة الجليلة، ذات الأفياء الوارفة الظليلة والأذيال الوافرة الطويلة

راية مولانا أهير المؤمن مولانا محمد
بن مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام بن مولانا محمد
بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل

هذه الراية هي درة تاج هذا اللواء العظيم وواسطة عقده النظيم،
ونتيجة جميع مقدماته، وزهرة أدواح رياضه ومقاماته، ومضمن حججه
وبيناته، وبرهان محكم آياته، فيها ظهرت بشارة البشير، وإليها تعود
إشارة المشير، وعندها استوى الملك العلوي الحسني على كرسي جلاله،
وأوى إلى مبلغ عزه ومحصل آماله :

بيد السعود يقلها التوفيق
ملك إلى كل الكمال سبق
وجه يجول البشير فيه طليق
عالي المجادة بالعلاء خليق
من دونها للمشرفي بريق
منها إلى أحد سواء فريق
وكلاهما طرب إليه مشوق
كانت على قلسق إليه تنسوق
يسمو به نسب أغر عتيق
باع بتصريف الأمور لبيق
في منبت الشرف الأصيل عروق (1)

هذي لعمر كراية مرفوعة
رفعت على خير الملوك محمد
خضل البنان بنائل من دونه
ورث الإمامة كابر عن كابر
أفضت إليه خلافة نبوية
فرحت ببيعته القلوب فلم يمل
فاختال منبرها به وسريرها
فالآن قرت في معرسها الذي
شرف هشامي ومجد تالد
ومناقب يزداد طولاً عندها
وشمائل رسخت بهن من العلى

كان أهل الحضرة المولاوية لما ابتدأ المرض بمولانا السلطان المؤيد
يظنون أن ذلك مرض خفيف مثل ما كان يعتريه المرة بعد المرة، فبعافيه الله
منه، وكان الذي يباشره ويليه في ذلك المرض هو ولده الأعز الأغر البار
الفقيه النجيب، ذو الأوصاف الطاهرة والخلق العجيب، أبو الفضل مولانا

(1) القصيدة من نظم المؤلف.

العباس ولذلك لم يعزموا على مولانا المظفر أمير المؤمنين، ولم يخبروه باشتداد المرض بمولانا المؤيد، وكان مولانا أمير المؤمنين المظفر مشغولا بشئون خلافته بحضرة مراكش، ولم يكن عنده من الخبر إلا كون السلطان مريضا، فظن هو أيضا أن ذلك كغيره من الأمراض المعتادة التي تعقبها العافية عن قريب، فلم يرعه إلا ورود الخبر من أخيه مولانا العباس وغيره من أهل الحضرة، كالوزير الكاتب الفقيه السيد محمد الصفار التطواني أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس من حياته، فخرج من مراكش مزعجا ليدرك به الحياة، فلما صدر عن الحضرة بليلة أو ليلتين لقيه الخبر بموت مولانا المؤيد رضوان الله عليه مع بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناس وجميع العساكر البخارية وغيرهم من الشرفاء والعلماء وأهل الحل والعقد وأعيان القبائل من الأعراب والبرابر، فوجهها لمراكش، فلما وردت اجتمع الناس كلهم بجامع الكتبيين أهل مراكش والعسكر السوسي ومن حضر من الرحامنة وأهل الحوز والدير وغيرهم بحضور كبار أولاد مولانا المرحوم بالله تعالى، وأجلهم أبو الحسن مولانا علي، وعامل البلد السيد أحمد بوستة، وباشا الجيش السعيد القائد إبراهيم الجراوي، وعمال الرحامنة، وشرفاء البلد وعلمائها، فلما غص الجامع بالخلائق الذين لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، قرئ عليهم كتاب مولانا المنصور المتضمن للأخبار بموت والده السلطان، فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضا والرحمة، وبالنصر لمولانا أمير المؤمنين المظفر الذي اختاره الله لحماية هذه الأمة، وأقامه لصيانة الحرم، فلم يختلف في ذلك أحد، ولا استنكف ولا جحد، فاتفق رؤساء ذلك المشهد المبارك الحفيل، على أن تكتب البيعة المحمدية السعيدة، بالنفس البليغ والخطاب الجميل، فقال لي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله السيد محمد السعيد⁽²⁾ الذي يبدئ في كل المحامد والمحاسن ويعيد، والله ما سواك لها بأهل، ومثل هذا المقام لا يقدم فيه أولوا الجهل، فألح على ذلك الجمع بالمبادرة والاستعجال، ولم يجعلوا لي فسحة في ذلك المجال، فكتبت منها نسخة مباركة على لسان أهل مراكش المحفوظة المحروسة، ونسخة على لسان الجيش السعيد السوسي أنصار الحضرة

(2) القاضي محمد السعيد قاضي الجماعة بمراكش. كان رحمه الله فقيها علامة استفاء مولاي سليمان بسجلماة، وهو ابن خمس وعشرين سنة بعد موت والده قاضيها بمراكش 1291 هـ 1874 م الإلام ج 7 ص 5.

العالية التي هي في ساحة العز والسعادة مغروسة، ونسخة ثالثة على لسان الرحامنة، القبيلة التي هي لحسن الجوار ضامنة، «وبحسن جوارهم تكون الحضرة آمنة» (3)، ثم أمر القائد الأجل الضابط الحازم، الذي هو لحسن الخدمة والنصيحة ملازم، أبو العباس السيد أحمد بوستة، أعيان الحضرة وأشرفها، ورؤساءها وعراقها، أن يتأهبوا للوفادة والتوجه لحضرة مولانا أمير المؤمنين بحضرة مكناس لأجل التهئة والتعزية، وكذلك الباشا القائد إبراهيم بن سعيد الجراوي، هياً أعيان الجيش وأشباه إِيالته من قبائل الدير، وكذلك عمال الرحامنة وجميع القبائل الحوزية فتوجه كل ببيعته وهديته، فلما وردوا على مولانا المظفر فرح بهم غاية الفرح، وأفاض على الجميع فضله وإحسانه وكرامته، وأجازهم بالجوائز المعتبرة، وفرح جميع المسلمين بولاية مولانا المظفر، ولم يتغير شيء من أمور الدولة الشريفة، لأن الحالة التي كان عليها مولانا المظفر في حياة والده هي التي ظهر فيها بعد وفاته، وقد قدمنا أنه أيده الله في غاية الشبه بجده وسميه السلطان الناصر سيدي محمد بن عبد الله، فإنه لما مات مولانا عبد الله ما تغير شيء من أحوال السلطان سيدي محمد، فإنه كان سلطاناً في حياة والده، وكذلك أمير المؤمنين مولانا المظفر نصره الله فإنه كان هو السلطان في حياة مولانا المؤيد والده، ولما وردت البيعة المراكشية على أمير المؤمنين كما ذكرنا، أمر أن تقرأ بالحضرتين فاس ومكناس، وكنت أردت أن أثبتها هنا، فبحثت على نسخة منها عند تقيييدي هذا المحل فلم أجدها عندي (4)، وكنت وجهت لحضرة مولانا نصره الله مع وفود التهئة هذه الأبيات في رثاء مولانا المؤيد المرحوم جدد الله عليه ملابس الرضوان في كل حين :

ما الناس إن حققت غير نيام
منسه لأدم رؤية استعلام
أبدا وإن طال المسدى لتمام
عما يراد بها من الأحكام
بين السورى من سطوة الأيسام
بحبيبسه حكما على الزام

هذي الحياة شبيهة الأحلام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى
فيرى بداية كل حي تنتهي
والنفس من حجب الهوى في غفلة
أو ليس يكفي ما يرى متعاقبا
من لم يصب في نفسه فمصابه

(3) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(4) ثبت هنا صورة نسخة هذه البيعة أخذاً عن كتاب الانحاف لابن زيدان ج 3 بين صفحة 370-371 مع نصها مطبوعاً.

نص البيعة بخط مؤلف الجيش نقلًا عن الأئحاف
لمؤرخ الدولة المولى عبد الرحمان بن زيدان
المتوفى 21 ذي الحجة 1365 / 16 نونبر 1946 م ج 3 ص 374

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا ومن تكن يرسل الله نصرته أن تلقه الأسد في آجامها نجح.

إن ينصركم الله فلا غالب لكم، [نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين].

الحمد لله الذي أطلع شمس الخلافة في مطالع السعود، وأثمر في رياض منته لأجله كل عود، وأنجز لمن أهله لادراك التقدم على عباده صادق الرجود، وفتح أبواب السعادة لقارعها، وأرجع بيعة ملتصق فضله لمشتريها وبائنها الذي ينوره تنجلي السماء، وتتصل النعماء، نحمده حمدًا يتكفل بتحسين العواقب، وترقية الآمال إلى أرفع المراقي والمراقب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي تفجرت بهجوده بحور المراهب، وجاءت شريعته بأوضح المسالك والمذاهب، وأنزل عليه [أن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإني لنكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرًا عظيمًا] صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا، والرضى عن أصحابه الذين كانوا له خير أنصار وأعوان، وخصوصًا أهل بيعة الرضوان، أما بعد، فهذه بيعة شريفة مباركة ميمونة، بها سعادة الدين والدنيا إن شاء الله مقرونة مضمونة، بيعة كريمة يصلح الله بها الأمة، ويلغض بسببها سحاب النعمة، ويشمل ببركاتها جميع الأقطار بكل رحمة.

تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج الإنسان فيها لانتان

بيعة حسنية علوية اسماعيلية هشامية محمدية بيعة عاطرة تعبق في رياض البشائر أزهارها القراحة الندية، بيعة صحيحة شرعية، ثابتة شروطها المرعية، بيعة لا يحرم حولها زين ولا طيش يشهد بانها الأئمة من قريب، فلا ينحل عقدتها، ولا ينقض عهدها، فقد بشره النصر منها ظلالها على الأرض طرا بالمسرة والأمل

حضرها العامة والخاصة والملائكة الذين أضحت بهم البسيطة خاصة، واحتف بها القبول والسرور وكانت مركزا تطرف بها الكسالات وتدور، وتتمنى محاسنها الشمس والبذور، ما تخلف عنها أحد من أهل هذه الحضرة المراكشية وأحرازها وبراديبها، ولا بقي أحد من أعرابها وبرابرها الا حضر في ناديبها، وأجاب دعوة مناديبها، من الشرفاء والعلماء والصلحاء والقضاة والعدول، والكبار والصغار وكل فاضل ومفضل.

جهاجحة غمر الوجوه كأنها إذا أسفرت ليللا بدور كواصل

وخصوصًا الأعيان والرؤساء والرماة، الذين هم لحرزة الاسلام أسوار وحماة، الا صرح بالاذعان والقبول حين حضر انعقادها، واضمر اعتقادها، وكل فرد فرد من أولئك الاشهاد، يعلن بالاشهاد على نفسه غاية الاشهاد، وما منهم الا من آمن بها وآمن عليها وصدق، وغض بصره خاشعًا من هيبتها وأطرق، وينادي اشهدوا قبني أشهدكم وأشهد الله، وأقول: [الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله].

ثم انه لما استأثر الله سبحانه بمولانا أمير المؤمنين، وإمام المسلمين السلطان الهمام، المعتصم بالله مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام، ونقله من دار الاسلام إلى دار السلام، وأقره بجوارحه وقربه، ومهد له بساط الكرامة إلى جنبه، وأقدمه إلى مدخرات حسنة الجسم، وحز له من جزيل المشروبات وأوفر الأقسام، واختار له في مقر رحته من جيلة عزه وأرليانه فريقًا (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا) أكرم الله مشواه وأحسن مأواه آمين.

وبالله ثم والله لولا انه خلف قبنا خلفًا صالحًا، وأنجز لنا متجرا رابحًا، لكان من فقدته تضيق الأرض بما رحبت وتجزى كل نفس بما كسبت، وتخر الجمال هدا، وتصد الأرواح عن أجسادها صدا، ولم يكن في النسب العلي الطاهر، ولا في البيت الاسماعيلي الشهير الظاهر، ولا من يهتد الخلفاء من بقية أولئك الأباء والجودود، بل ولا من تنتج به الليالي وهي عاقر غير ولود، من تسلم في يده الأئمة زمانها، وتقدمه في محراب السلطنة العظمى إمامها، إلا واحد قد اختص بجميع الكسالات البشرية وتفرده، وذلك الواحد هو الامام المزيّد المنصور، والأسد الورد المنصور، أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الرحمان بن سيدنا ومولانا هشام بن سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الله بن سيدنا ومولانا اسماعيل أعز الله ذكرهم، وخلد في صفحات الألبام مجددهم وفخرهم، فلذلك وقع هذا الاتفاق على بيعته، والدخول تحت طاعته، والاذعان لكللمته والرمي على نبعته، وتمت له كلنة ربه الحصني بإدراك هذا المقام الأكبر الأجل الاسمي واحتياز ميراث النبوة والملك المتخلف عن آيائه، الغائظ لأعدائه السار لاحيائه، فبا لها من بيعة تامة غاية التمام، جائشه عفرا على طرف الشمام، محبركة على عادة إيمان البيعة وحدودها المحدودة، وشروطها المؤكدة في أقسامها المحدودة.

ويا له من إمام، أسعد الله به جميع الانام:

هذا الذي هبت نراسم حمده	وأنت بعرف الروضة المعطار
هذا الذي طلعت شمس سعوده	نغشى أشعتها قري الأبهصار
هذا اذا انتشرت مياسم بشره	وهب النفوس وزاد في الأعمار

والله المسؤول سبحانه ان يبارك لمولانا فيما وهبه، ويرضخ في اتباع الحق وافعال الخير مذهبه، ويجعل مفاتيح جميع السعادات في يمينه، كما مسح في الأزل يمينه المقدسة على جبينه، ويملكه مشارق الأرض ومقاربها، وبرها وبحرها وشاهدها وغائبها، ويجعل النصر والظفر مصاحبين لأعلامه، والفتح والقبول عن يمينه وشماله ومن خلفه ومن أمامه، ويقر برلايته المباركة عيون أهل ملة الاسلام بجاه جده سيدنا ومولانا محمد عليه وعلى آله أزكى الصلاة والسلام، قال ذلك وكتبه شاهدا على الجموع المذكورة بما فيه بأشهادهم قوة وفعلا المبد الضعيف محمد بن أحمد اكتسوس لطف الله به - من خطه.

وقد غلط الدكتور ادريس العلوي العبدلوي في بحثه المعنون "أساس بيعة الملوك العلويين" تدوة البيعة والخلافة في الاسلام، ج 3 ص 1153 - حيث نسب هذه البيعة الى المولى عبد الرحمان على ان البيعة هي لولده المولى محمد بن المولى عبد الرحمان بن هشام، هـ.

نصرة الدنيا والآخرة

الحمد لله الذي جعل في الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...

وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...

وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...

وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...

وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...
وإن من الدنيا والآخرة نصرة...
فإن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقا...

بعد الشيبية شيبة يخشى لها
دار أريد بها العيسور لغيرها
منع البقاء بها تخالف حالها
لو كان ينجو من رداها مالك
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا
خير السلاطين الذين تقدموا
سر الإله ورحمة منشورة
قصده عادية الحمام فما عدت
لم تحجب الحجاب منها طارقا
والملك في عز مهيب شامخ
عجبا لها لم تخش من فتكاته
عجبا لها لم تستع من وجهه
عجبا لها لم ترع طول قيامه
تبا لها لم تدر من فجعت به
أسفا على ذاك الجلال وإنه
يا مالكا كانت لنا أيامه
لا ضير أنك قد رحلت ميمما
في حضرة تغدو عليك بشائر
ضاجعت في تلك القصور كواعبا
تسقيك صرف السلسيل مروقا
فلك الرضا فأنعم بما أعطيته

وبعد ذلك بأيام وجهت ولدي عبد الله حفظة الله لحضرة مولانا المظفر مهننا
له بهذه القصيدة الأخرى :

وجسوه الأمانى حسنهما متجدد
قضى الحب في كل القلوب بأنها
وكم من عصي للهوى متعفف
تصيده ظبسي على حين غفلة
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلا
ولله في أسر الغرام وقهره
إذا الليل أضواها تكتفها الهوى

ذو صحة أن يتلى بسقام
ويظنها المغسور دار مقام
وتكرر الإشراق والإظلام
في كثرة الأنصار والخسار
أعلى ملوك الأرض فجل هشام
في الغرب أو في الشرق أو في الشام
كانت سرادق ملّة الإسلام
أن هددت علما من الأعلام
كلا ولا دفعت يد الأقوام
وإمامه في جرأة الضرغام
والأسد تزار حوله وتحامي
والوجه أبهج من بدور تمام
متهجدا لله خير قيام
من معتف وأرامل الأيتام
لأجل من أسف وفرط هيام
ظلا ظليلا دائم الإنعام
دار الهناء وجنة الإكرام
من حورها بتحية وسلام
دراسة الألسوان والأجسام
وتدير كأسا من مدام مدام
ولك الهناء بنيل كل مرام

وكانت حفظة الله لحضرة مولانا المظفر مهننا

ومنظرها يحكيه خد مورد
ممالك أرباب الجمال وأعيد
يفر من السود العيون ويبعد
مهفف مستن الوشاحين أغيد
وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
نفوس ضعاف ليلهن مسهد
وليس لها غير الكواكب منجد

وذى ظمأ بين الضلوع يجننه
ترأى له من منحني الجزع برقه
وتذكره تلك البروق مباسما
يراقب أسراب النجوم بمقلة
ويهفسر لأيام العقيق فتثنسي
وهل يتناسى عهد من سكن اللوى
وما زالت الأيام تغري بنا النوى
ولست أبالي للزمان صروفه
خليقة رب العالمين بأرضه
إمام تولى الله تشييد ملكه
وصفوة هذا الخلق من آل هاشم
وأرحبهم في العز باعا وفي العلى
أنته عروس الملك عاشقة له
وألقت على شوق إليه زمامها
فأصبحت الأيام تزهو بعدله
ففي بابه مأوى المكارم والندى
ودولته للعز والنصر مألّف
تذل ملوك العالمين لبأسه
له راحة في الجود ما الغيث عندها
له أنعم تأوي إلى ظلها المنى
وعزم على الخيرات ليس بسامع
ورأى ينير الخطب عند اعتكاره
ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه
حيي كثير الابتسام مبارك
أغر يهز المدح منه معاطفا
له العسكر الجرار تبرق في الوغى
يعد إلى الأعداء كل كتيبة
وكل كمي كالغضنفر مغضبا
يبيد العدا قبل اللقاء مهابة
هو الملك المشهور بالحلم والدها
تشد لأدراك الغني عند بابه

إلى رشفات للصبابة تبرد
فظن بأن الجزع ثغر منضد
عليهن مرفض الجمان معقد
تقسمها شطرين نسروفرقد
مدامعه مثل العقيق تبسدد
إذ العيش غص والحبايب تسعد
وتثنى الذي نهواه عنا وتبعد
وكهفي أمير المؤمنين محمد
وصارمه الشاكي الشبابة المهند
وناهيك ملكا بالإله يشيد
وأعلى ذوي التيجان فخرا وأمجد
وأكثرهم في الفضل حظا وأزيد
وكم عاشق عنها يذاد ويطرد
فطاب لها منه الجناب المهد
وتنعم في ظل الهناء وتسعد
وفي بابه الخيرات تولى وتوجد
وحضرته للأمن واليمن موعد
وتركع مهما أبصرته وتسجد
وما البحر والدر النفيس المقلد
وتسحب أذيال السماح وترقد
مقالة من في المكرمات يزهد
ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد
محيا له وقت السعادة مولد
يكبر ربي إن بدا ويوحّد
تجر ذيول الفخر إن هو يحمّد
صوارم منه والمدافع ترعد
من الرعب يحدوها الوشيج المسدد
وكل صقيل وهو ماض مجرد
فصارمه يفري الطلى وهو مغمّد
وبالعلم والشهب الدراري تشهد
ركائب أنضاهها الدءوب المشدّد

أحاديث عن بحر إذا البحر يزيد
وليس لها إلا حماء المؤيد
ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
تعود بما يرضون والعود أحمد
ويصلح بالصمصام من هو مفسد
يدوم بحول الله وهو مسرمد
بسؤدد مولانا الإمام تسود
بديعة حسن للنهسي تتسود
إذا هي أثناء المحافل تنشد
كما اختير من بين المعادن عسجد

يحدث عنه الوقف عند صدوره
إلى مجده آمالنا قد تطاولت
فيا مالكا يحمي الرعية بأسه
يدبر فيهم كل يوم مصالحا
ويشملهم بالعدل والفضل والندى
هنيئا لك الملك الجديد فإنه
هنيئا لنا نحن العبيد فإننا
ودونك يا خير السلاطين كأعبا
تدير كئوس الراح دون تأثم
فلا زلت ما بين الملوك مخيرا

ولما ورد ولدنا عبد الله لحضرة مولانا المظفر بحضرة مكناس مع وفود
التهاني من كل ناحية من جميع أقطار المغرب، فرح بهم وأنزلهم وأفاض
عليهم أنواع البر والإكرام، وأصناف الخير والبركات، وخصوصا ولدنا ومن
في صحبتته، وكساهم بالملابس الفاخرة التي تناسب عطايا أعظم الملوك
وأساطين السلاطين، وأجازهم بالجوائز المتكاثرة المتعددة، فصدروا راجعين
بالسلامة والفرح والسرور، وذلك بعد اضمحلال ما صدر من بعض البرابر
الذين يسعون في الأرض الفساد وليس لهم غرض إلا في توهين المملكة،
وليس للمملكة أعداء غيرهم، وذلك أن المولى عبد الرحمن بن مولانا
سليمان وقع له مثل ما وقع لمولانا عبد الواحد في صدر خلافة السلطان
المؤيد مولانا عبد الرحمان، لما مات السلطان العادل مولانا سليمان رحمه
الله، بايعه أهل سجلماسة جهلا منهم بعواقب الأمور، ووجه مولاي عبد
السلام بن سليمان خليفة لمراكش كما قدمنا شرح ذلك في راية السلطان
المؤيد، ووردت عليه مكاتب من الغرب ممن يرتقب ولايته من أهل مودته،
يحضونه على القدوم، وقالوا إنك إذا قدمت فإن الناس لا يقدمون غيرك
لأنك البركة الباقية من أولاد سيدي محمد بن عبد الله، فخرج من تافلايت
مغتريا بذلك، ولم يكن عنده علم بأن أخاه المرحوم السلطان العادل قد عهد
إلى من هو أولى من غيره، وهو يرى مكان إخوته وأولاده، وترك ذلك كله
اتباعا للحق وإيثارا لمصالح المسلمين، فلما كان مولانا عبد الواحد في
أثناء الطريق، وبلغه خبر عهد أخيه لمولانا عبد الرحمان، ندم على ذلك،

فكتب في الحين ببيعته لولد أخيه السلطان المؤيد ووجهها له، وكان مولانا عبد الواحد رحمه الله من الدين والمروءة وعلو الهمة والعقل الراجح بالمكان العالي، وما رأينا مثله في محاسن الأخلاق ونزاهة النفس مع المشاركة في العلوم ومحبة الخير وأهله، لا يجالس غير أهل الفضل والعلم والأدب رحمه الله تعالى، وهكذا وقع لمولانا عبد الرحمان بن سليمان فإنه صدرت منه هذه الفتنة بسبب كتابة بعض الأحداث من أبناء أعمامه الذين بفاس ومكناس ومن بعض جهال البربر وأفذاذ من عبيد البخاري، وكانوا يستحثونه ليسرع بالوصول الى الحضرتين بإثر موت مولانا السلطان المؤيد قبل وصول مولانا أمير المؤمنين المظفر، ولم يعلموا أن الله تعالى بالغ أمره، فلما قرب من فاس ووجد الأمر قد استحکم لمولانا أمير المؤمنين أراد الرجوع الى محله والقدوم على مولانا المظفر كما فعل مولانا عبد الواحد، وبما ليته فعل، فإنه والله لو قدم عليه لنال المنزلة العالية، والمرتبة الشامخة السامية، ولكن جاءه بعض رؤساء الفتنة من البرابر وهونوا عليه الأمر، ووعدوه بالنصر له والذب عنه والقتال دونه حتى يدرك ميراث آبائه، فنهضوا به للزيادة الى فاس، فحالت جنود السلطان بينهم وبين الوصول إلى فاس.

وكان الوزير الفقيه النجيب ذو الرأي الأصيل والخلق العجيب أبو عبد الله السيد العربي بن المختار الجامعي رحمه الله قد وقف في ذلك غاية الوقوف، كما يجب، فلما رأى البرابر الجدد فروا على ما هو عادتهم من الفرور والكذب، فرجع مولانا عبد الرحمان لسبيله على أنه لا حرج عليه في ذلك، وعذره ظاهر، كما قال هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقال له أبو سفيان : لا فقال له هرقل : سألتك هل كان في آبائه من ملك فزعمت أن لا، فقلت : لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه انتهى، فظهر من كلامه أن من يطلب ملك أبيه لا لوم عليه، وقد تقدم لنا في راية مولانا عبد الله بن إسماعيل قوله لأخيه مولاي المستضيء بعد أن انطفأ نوره وسلب، وأمضى جميع مقدوره حتى غلب، وأنت يا أخي لا لوم عليك لأنك إنما تطلب ملك أبيك انتهى، وكذلك مولاي عبد الرحمان بن سليمان لا لوم عليه في ذلك، وإنما عليه الملام حيث لم يأو إلى مولانا السلطان المظفر لما ظهر له أن الله تعالى قد اختاره واصطفاه لرعاية خلقه لما جبله

عليه من الرحمة، ولو فعل كما فعل مولاي عبد الواحد مع السلطان المؤيد لأدرك من العز والكرامة ما لا غاية فوقه، وقد ورد أخوه شقيقه مولاي عبد الله بن سليمان على مولانا السلطان المظفر فأكرمه فوق ما يظن الظان، ووجهه لأخيه المذكور مولاي عبد الرحمان وهو بالزاوية العياشبة يدعو إلى القدوم للحضرة المولاوية على الأمان، وقال له يتكفل عنه بكل ما يرضيه، فلم تطاوعه نفسه، وكأنه لم يعلم ما خص الله به مولانا السلطان المظفر من الحلم والسماح ومحبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبناء عمه الأباعد فضلا عن أقرب القرباء، فضلا عن أولاد مولانا سليمان أخواله، فإن الله تعالى شرفه بهذه الخصلة التي هي محبة الشرفاء بما لم ينل أحد من أسلافه الكرام مثله، إلا ما كان من سميّه جد أبيه السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله، سبحانه الله، فإن أخلاقهما متقاربة، وأوصافهما متشابهة، وقد نبهنا على ذلك غير ما مرة في هذا التقييد، وسيأتي لذلك إن شاء الله تعالى مزيد.

وقد كنا ذكرنا أن الوزير الأجل الأمجد، الكاتب الأكرم الأسعد، السيد العربي بن المختار الجامعي كان ظهر منه غناء كاف، وكفاية تامة، بنفسه وقومه، وحسن تدبيره، وعرف له مولانا أمير المؤمنين ذلك، فاستوجب عنده المزية التي لا يطمع غيره في إدراكها، لولا أنه اعتاقه حمامه، وانقطع في يد القضاء بانقضاء الأجل زمامه، فمات بإثر خمود نار تلك الفتنة، ونوخ له بازل الارتحال، فركب متنه، وسبب موته ما كان يصيبه من شبه الإغماء الذي يفوق منه بعد الشدة، إلا أنه في هذه المرة لا إفاقة بعده، فرحم الله تلك النسمة الطيبة، والغمامة الصيبة، فإنه كان وجه ابتهاج الدولة، وصارم الانتصار لها وعدة الصولة، وقد راعى له مولانا أمير المؤمنين حرمة، وجعل كيقظته نومته، فرفع شأن أولاده، ولم يرزأه شيئا من طرافه ولا تلاده، بل أبقى عليهم ولاية أبيهم ووظيفته وجميع أملاكه وأصوله وبلاده، وهكذا دأب مولانا المظفر، فإنه ما فضح قط أحدا من خدامه ولا أعراه، وإن بلغ الغاية فيما اجترحه وافتراه، فأحرى أهل المحبة الصادقة والولاء، ومن أخلصه السبك بعد نيران الابتلاء، فلما صفت الخلافة لمولانا أمير المؤمنين، وتمهدت، واستوت على كرسي السعادة وتعدت، وجرت أحكامه في جميع أقطار المغرب، ولم يتخلف أحد من

أشياخ المسلمين ورؤساء القبائل وأعيان العرب والبربر عن المشول في حضرته العالية، وأداء الطاعة لعزته والغلبة، فأقر كل عامل على عمله، ولم يحل بين أحد وأمله، وكذلك أجناس النصارى وملوكهم ما خرج أحد منهم على عاداته المقررة، وشريطته المدونة المحررة، فقد وجه كل جنس رسوله ومكاتبه وهداياه، وأبرز له من طلب البقاء على المهادنة خباياه، فأنعم مولانا نصره الله لجميعهم بما طلبوا، وقابلهم بالإحسان والمجازاة لما جلبوا، إلا ما كان من جنس الصبنيول فإنه كان حالهم مع أهل هذه الدولة الشريفة في أيام السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في غاية الاعتناء بهم دون غيرهم من الأجناس، وكانوا عنده بمنزلة الجند يقضي بهم الأغراض الكبار، لقرب جوارهم وإظهارهم للخدمة التامة، والعناية بكل ما يأمرهم به من قليل أو كثير أو قريب أو بعيد، وكان سيدي محمد يباهي بهم الأجناس في جل الأمور، وربما تغير عليهم وأظهر لهم العداوة والشدة والقوة، حتى يؤدبهم ثم يعود لاستخدامهم ومعاملتهم بالإحسان، فألفوا ذلك مع هذه الدولة، ثم لما مات سيدي محمد وانهدمت تلك القواعد التي كان بناها معهم بولاية غيره، لا سيما مع مولاي اليزيد، فإنه تظاهر بالعداوة لهم ولم يظفر منها بشيء لا ما قل ولا ما جل، وإنما أزال حجاب الهيبة الذي كان مسدولا على أهل هذه العدو المسماة عندهم بالبربرية، فلما زال ما ألفوه مع سيدي محمد، ومات مولاي اليزيد بعد ما أظهر ضعف المسلمين، حيث جمع القوة التي قدر عليها، وحاصر سبعة بلا تأويل ولا حسن تدبير، فأنفذ جهده وانخزل عنها بلا طائل لما قام عليه أهل مراکش، فهذا كان السبب في اغترار الصبنيول حتى تجرأوا وطمعوا في الاقتدار على المقابلة بعد أن كانوا خدمة للسلطان المنصور سيدي محمد.

فلما جاء الله بمولانا سليمان واطلع على حقيقة الحال، وما آل إليه الأمر من الوهن، وعلم أنه لا دواء لتلك العلة إلا مساعدتهم على ما رغبوا فيه من المهادنة جعل ذلك صوب أمره معهم، فكان لا يحدث نفسه بغير ذلك، فلما جاء مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان سلك مسلك عمه مولانا العادل في ذلك ولم يزغ عن مذهبه، فلما جاء الله بمولانا المظفر بادر الكفار إلى انتهاز الغفلة، والناس في شغل بما أذهلهم من موت السلطان المؤيد ومولانا أمير المؤمنين المظفر كذلك في الاشتغال بتمهيد المملكة

وترتيب وظائف الخلافة، واستدفاع غصص التفجع بالمصاب الهائل الذي هو موت والده، والعدو المذكور متكالب على إساءة الأمور وإيرادها على موارد التعنت وإظهار القوة، واستشار(5) أمير المؤمنين نصره الله بعض أهل الحدة والطيش، فأشار عليه بمبارزتهم ومحاربتهم، ومنابتهم واستهون أمرهم غاية، فوجه مولانا نصره الله بعض خدامه يؤذنتهم بالمحاربة، فأساء ذلك البعض الوساطة وأفرط في التفحش في غير محله، فاستنفر مولانا المظفر نصره الله غزاة المسلمين وعساكر الدولة الشريفة، وفتح بيوت الأموال والعدة والقوة المدخرة لذلك، فأفاض على الناس ما جاوز الحد من العطايا والمبرات والمؤنات والأقوات، وقال : ليوم سوء جمعنا ما جمعناه، ووجه أخاه وخليفته البطل الحازم الفقيه العلامة أبا الفضل مولانا العباس فأقبلت القبائل والعساكر والجنود المجندة من جميع الأقطار بالأعداد التي لا تحصى، غير أنها جزاف بلا ترتيب ولا تعبئة ولا على هيئة الحرب ولا بالقرب من ذلك لطول عهدهم بالقراع والضراب، بل لعدم مشاهدتهم ذلك قط، وظنوا أن كثرة العدد تغني في ذلك شيئاً، ولم يعلموا أن الكثرة المفرطة هي سبب الانهزام والخذلان، فلما نزلت تلك الجنود بالسواحل الفحشية في مقاربة العدو وأطالوا المقام وعكفت رؤساء المحلة على الراحة، استلذاذا واغتناما لكثرة الأموال والرواتب والمثونات التي يفيضها مولانا أمير المؤمنين بقصد الجهاد، ومولانا نصره الله يستحثهم كل حين ويأمرهم بالمناجزة، وهم في غفلتهم ساهون، والعدو قد أخذ أهبتهم، وبلغه على السنة عيونه وجواسيسه ما عليه جنود المسلمين من عدم التأهب ومن الاغترار، فعاملهم بالمطاوله، وعلم ما يثول إليه الأمر، فكان إذا قرب منه المسلمون حصبتهم بالرصاص ودفعهم بالمدافع فيتأخرون ويتقدم هو، وهكذا حتى آل الأمر إلى زحفه إلى تطوان بعد انكشاف الغزاة عنها، في أخبار لا يحسن جلبها وكان من قدر الله تعالى دخول العدو إليها، ومع ذلك لم يأمن على نفسه من المكر به، وانقلاب الدائرة عليه، لأنه رأى من كثرة الناس ما لا يمكن أن يغلب في العادة، فتخوف العدو أن يكون ذلك مكيدة له، فلذلك عرض على المسلمين المهادنة إن أرادوا. فلما رفعوا ذلك إلى الخليفة مولانا العباس قبل ذلك لما رأى من سوء عمل المسلمين، وعدم نصحتهم لله

(5) انظر ملحقه ابن اليماني على المسألة في التقييد المودع بالمقدمة

ورسوله ولدينهم، فشرط العدو على المسلمين أن يدفعوا له جميع ما أنفقه في حربه ذلك وحركته، فقبله الخليفة على شرط أن يخرج العدو من تطوان فانبهرم الصلح على ذلك، وكان في ذلك لطف من الله تعالى بالمسلمين ورحمة لهم، ريثما يستعدون ويراجعون أنفسهم، ويتداركون محل التفريط إن كانوا يعقلون، وما أصيبت هذه المحلة إلا من كثرة الجموع بلا ترتيب، ولا مدرب فجدته التجارب ومباشرة الحروب، أما كثرة العساكر ففي كتب الحكمة أنه اتفق أهل السياسة من العرب والعجم على أن كثرة الجموع لا تؤمن غوائلها، ولا ينضبط أمرها، ولا ثمرة لها إلا الهزائم، وكل من حارب بجميع عساكره فهو مخذول، وكل أمير أمر أميرا على أكثر من ألف من عسكره فقد عرضه للتلف، والأمير الحازم هو الذي يضبط الألف، فإذا كان للملك عشرة أمراء عند كل أمير ألف من العسكر مضبوط، فذلك بمنزلة مائة ألف مهمة، ولا تحمل حومة الميدان أكثر من عشرة آلاف، ليكون نظر الملك على جميعها، فإذا زادت العساكر على ذلك يقع فيهم الخلل، وتسرع إليها الهزائم، وقد وقع ذلك في الجاهلية والإسلام، ومن طالع أخبار الأمم الماضية تيقن مصداق هذا. وأقرب شيء إلينا واقعة السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله في حركته لجبل فازاز لقبائل آيت أمالو زيان وغيرهم، فإنهم ما أوتوا إلا من الكثرة المهمة، والجموع الجزافية الغير المرتبة الخالية عن الأحكام القانونية، والرؤساء الضابطة التي تقوم أتباعهم بقيامهم وتقعد بقعودهم، ومن ذلك أيضا في غير هذه الدولة ما وقع في دولة السعديين لجنس البرتقيز في وادي المخازن، فإنه أي البرتقيز حشد ما بلغت طاقته من الجنود ف وقعت الكرة عليه كما هو معلوم في محله، ومن ذلك أيضا في دولة الموحدين ما وقع للناصر بن المنصور في غزوة العقاب، قال في نفح الطيب إن الناصر جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية، ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش، فصاف الفرنج فكانت عليه ولم ينج من الستمائة ألف إلا عدد يسير جدا لم يبلغ الألف، فيما قيل، وهذه الواقعة هي الطامة الكبرى على الأندلس، بل على المغرب جميعا، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العازفين بقتال الفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، وشنق بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الفرنج

والله غالب على أمره انتهى كلام نفع الطيب، ومن ذلك أيضا ما وقع لأبي الحسن المريني في حركته المعلومة الإفریقیة قيل إنه كان معه من جنس الكتاب أربع عشرة مائة محفة فوقع به ما هو مشهور.

قال مملیه عفا الله عنه ولطف به آمین، وعلة ذلك والله أعلم، هو ما فيه من الإعجاب، فإن النفوس البشرية مجبولة على الاعتماد على ما يظهر لها من استحسان حالها، ومن تعجب في نفسه هالك لا محالة، وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « إذا بعثت سارية فلا تنتقمهم واقتطعهم فإن الله ينصر القوم بضعفائهم » (6) فقله عليه السلام فلا تنتقمهم أي لا تخترهم، ففي الحديث إشارة إلى أن المؤمن لا يتكل إلا على الله تعالى في مهماته، وإذا اتكل على شيء من أسباب نفسه من كثرة أو اختيار أو غير ذلك هلك، ألا ترى أن الله تعالى بعدما أخبر المؤمنين بأنه أمدهم بالملائكة قال لهم (وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله) لئلا يتكلوا على الملائكة، حدثنا بعض الثقات أن السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله لما جاوز بلاد تاذلة وقطعوا واد أم الربيع من أعلاه، ودخلوا بلاد آيت أمالو ورأى كثرة الخيل والجنود المحشودة، قال لبعض من حضر : انظر هذه البلاد ما أنعمها وأسهلها، وقد كان الم رابط السيد العربي بن المعطي (7) يحذرنا منها ويخوفنا من أهلها، ولو كان حيا في هذه الحركة ما تركنا نجاوز أم الربيع انتهى، فهذا القول يدل على أن مولانا العادل رحمه الله أعجبه ما رأى، ووقعت له غفلة ليقضي الله ما أراد، والكمال لله سبحانه.

وقد قلنا إن هذا الصلح الذي صدر في هذه القضية من لطف الله بالمؤمنين ورحمته لهم، ومن أغرب ما اتفق لنا مع بعض من يدعي العلم والرياسة فيه أننا كنا في بعض المجامع، وجرى في ذلك المجمع ذكر هذا الصلح المنبرم مع الخزيان، فأطلق ذلك البعض لسانه بغير احتشام، وصرح بأنه صلح محرم لا وجه له في الدين، وكان عادتي أنني لا أريد منازعة أحد من أمثال هذا ولامجادلته، ثم ظهر لي أنه يجب في مثل هذا المقام عدم

(6) حديث : (إذا بعثت سارية) ... لم تعرف مصدره.

(7) العربي بن المعطي، الشيخ الإمام، أبو المراهب، كان عالما عابدا زاهدا ت 1234 هـ 1818 م "الإعلام" ج 5 ص 180 الطبعة الأولى، "الزاوية الشراوية" ج 1 ص 110.

السكوت لأن السكوت عن إبداء الحق هو عين الباطل، لا سيما مع حضور جماعة يستفيض الخبر بهم، فقلت يا هذا إن مثل هذا الصلح صحيح، بل واجب، وقد وقع نظيره في مواطن عديدة لجماعات المسلمين، وفي حضرة العلماء الذين هم حجة الله في الأرض، ووافقوا عليه ولم يقع من أحد منهم أدنى إنكار، فقال : أين وقع مثله ؟ فذكرت له صلح أمير المؤمنين بالأندلس ابن الأحمر بغرناطة وحضور جميع علماء حضرته في ذلك العهد، و صلح أهل طليطلة قبل أخذها على يد أميرها ابن ذي التون بإذن علمائها و صلحائها، و صلح أهل إفريقية مرارا كما ذلك مسطر في كتب التاريخ بنقل الثقات، و صلح أمير المؤمنين العثماني في هذه الأزمان على شروط لا يكاد يظهر لها وجه في ظاهر الشرع، ولم ينكر أحد من علماء إيالته الواسعة لا في الشام ولا في مصر ولا غير ذلك، وكل هذا والرجل مصر على إنكاره، جامع في زمام أوهامه وسيئ أفكاره، ذاكر لحجج واهية، إلى غاية التهافت متناهية، ثم قال : في المختصر : (وإن ببال)، يعني يأخذه المسلمون من الكفار لا يعطيه المسلمون للكفار، فقلت له هذه المبالغة لا يتعين رجوعها للمفهوم، وإن كان هو الراجح، فقال : كلامنا في الراجح، فقلت له : فأين أنت عن الاستثناء المذكور بعد ذلك، وهو قوله (إلا لضرورة) فإن أحسن ما يقرر به كلام خليل هو كلام الإمام المازري وهو قوله ولا يهادن الإمام العدو بإعطائه مالا، لأنه عكس مصلحة أخذ الجزية منهم، إلا لضرورة التخلص منهم خوف استيلائهم على المسلمين، وقد شاور صلى الله عليه وسلم السعديين سعد بن معاذ وسعد بن عباد لما أحاط قبائل الأحزاب بالمدينة في أن يبذلوا للمشركين ثلث التمار لما خاف أن تكون الأنصار ملت القتال، فقالا : إن كان هذا من الله تعالى سمعنا وأطعنا، وإن كان رأيا فما أكلوا منها في الجاهلية قمرة واحدة إلا بشراء أو قرى، فكيف وقد أعزنا الله بالاسلام، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتال ترك ذلك، فلو لم يكن الإعطاء عند الضرورة جائزا ما شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه انتهى، فلما شرحت له هذا جعل يجعجع على الحاضرين من العوام، فإذا هو ما فهم محل الشاهد من القضية أصلا، فذكرت له صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا مبينا في القرآن المبين مع ما تضمنه في بادي الرأي من شبه الدنية الذي أنكره

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى بين له الصديق الأكبر ما هو المراد من الوحي الصادق، فلما ذكرت له ذلك صار أصمت من سمكة، ولم يحرك بعد ذلك حنكه، ولو بجزء كلمة، كأنما ألقم حجرا يملأ فمه وإن كان بلغنا أنه بعدما انصرف عن هذا المجلس ظهر منه أنه لم يحل عن الإنكار، نسأل الله السلامة والعافية.

ولما نظمت القصيدة الهائية في العيد النبوي عام 1282 في مدح مولانا أمير المؤمنين وتهنئته بالعيد المبارك على العادة، أشرت الى هذه القضية ولم أصرح بهذا الرجل ولا أصرح به، لأنه جاهل مركب، والله سبحانه أمرنا بالإعراض عن الجاهلين، وهذه هي القصيدة :

يشراك قد حل ما ترجو وترضاه فالدهر ممثّل أمرا تشير به أضحت بك الملة الغراء ضاحكة والملك قد أشرقت أرجاؤه فرحا ورفرفت بريح النصر رايته وأشرق العدل والأيام داجية بشرى فقد أنجز الأيام موعدها إن الكواكب في أفلاكها حكمت هذي المغارب قد ألفت أزمته وللمشارق شوق لو مددت لها ولو رميت النجوم الساريات لما بشرى الزمان الذي أضحت ماله فأنت للدين والدنيا جمالهما سست الممالك للتوفيق مصطحبا جبرت منكسرا سترت مفتضحها فالخير منتشر والعزم مجتمع أطفأت ما أوقد الخزيان من ضرم جنحت للصلح بالرأي السديد بما صلح تبليج نور من جوانبه	وكل ما يتوقى الناس تكفاه فمر بما يقتضيه الرأي تعطاه والدين أظهر مفترا ثناياه بنور وجهك حيا الله مرآه وأنت في ظلها الميمون تغشاه لما جرى الحق من يمينك مجراه من ملكك الأمر أدناه وأقصاه بما ظفرت به والحاكم الله إليك فاحكم بما تبغي وترضاه يمينك مد إليك اليمين يميناه أخطأت منها الذي نويت مرماه بالعز والعدل والإحسان بشراه وأنت تهدي النور للحق إن تاهوا ملازم الحزم لا تنفك ترعاه نصرت مشتكيا أزلت شكواه والعز مقبيل قد لاح مبداه وخاب موقدها والله أخزاه سيحمد الدين والإسلام عقباه حتى استبان الهدى من ضل معناه
--	---

صلح وحق مزايك التي شهرت
 أبرمته بيد بيضا مباركة
 بنيته في يفاع العز عن ثقة
 صلح الحديبية المتلو في صحف
 قد أنكر البراء ما تضمن من
 وفيه سر وراء العقل محتجب
 وصورة الحال في هذا مشابهة
 يا خير آل هشام وابن سيدهم
 لو كان غيرك هذا الأمر فاجأه
 وأنت يا ناصر الإسلام منتصر
 مظفر فتحت لك العلا كرما
 مؤيد بجنود السعد مكتنف
 يا من له برسول الله منتسب
 يهنيك مولد خير المرسلين فما
 عيد تشرف بالتشريف مطلعته
 وأنت يا خير من يدعى خليفته
 وألئت في الله من والي وكنت له
 يابن الأجواد من أبناء فاطمة
 إنا رجوناك للجللى وأنت لها
 نذاك أغنى وأقنى كل مقترب
 وفاض فضلك فيض الغيث متبجسا
 ما بال عبدك هذا قد أُلْظُ به
 عبد مطيع طويل الباع مفصله
 يهدي إلى قدرك العالي مدائح
 وأنت يا ابن رسول الله لو لحظت
 ولو رنوت بعين العطف جانبه
 وقد دعاك أمين الله مُضْطَرراً
 لا زلت في دولة ترخي ذوائبها

ما كان يظهر وجه الرشد لولاه
 أكرم بمبرمه ما كان أزكاه
 من أن يتم لك الرحمان مبناه
 فتح مبين بهذا الله سماه
 شبه الدنية والفاروق ياباه
 والسيد الأيّد الصديق أبداه
 وللحقائق أمثال وأشباه
 ومن له في سماء المجد أعلاه
 لكان حيره وكان أعياه
 بالله لا ترتجي في الأمر إلاه
 أبوابها وكفت ما أنت تخشاه
 بالرعب تنزل بالأعداء بلواه
 عال له غاية التعظيم والجاه
 أجسل مولده فينا وأهناه
 إذ لاح للمصطفى فيه محياه
 كفلت أمتة نصرت دعواه
 ركنا وعاديت من في الناس عاداه
 ومن هم ليحور الجود أمواه
 لا خيب الله فيك ما رجونه
 ونحن أقرب من راعيت قرياه
 حتى الأباعد نالتهم عطاياه
 ناب الزمان فعناه وأعناه
 مهند شحذت بالطبع متنياه
 في كل عام لعل الفوز يلقاه
 رحماك حالته لفساز مسعاه
 لا هتز فخرا على الأكفاء عطفاه
 حاشاك تهمله حاشاك تنساه
 على خمائل عز طاب رياه

وقد وفى النصارى بما شرط عليهم فى عقد الصلح من الخروج من تطاون، فلما خرجوا أمر مولانا نصره الله برجوع من خرج منها فرجع كل إلى محله، ولم يرزأهم النصارى شيئاً إلا القليل، وإنما نهبهم إخوانهم الذين يدعونهم المجاهدين، ولولا أنهم أخذوا حذرهم لفعل بهم كما فعل بأهل السويرة، ولكن وقعة السويرة علمتهم^(٨).

والسعيد من اتعظ بغيره، ولقد بالغ مولانا المظفر نصره الله فى الاحتياط لهم والاعتناء بهم والشفقة عليهم حتى عادت بلدتهم أحسن مما كانت عليه، وأخلف الله عليهم كل ما ضاع لهم، وحسنت أحوالهم وريحت تجارتهم، ونمت أموالهم، أخبر بذلك بعض الصادقين من تجارهم، وكان فطنا مستبصرا وقال : إن ذلك مصداق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجود البركة فى بقية الجوائح، فقلت له هو كذلك بلا ريب، وقد وجه مولانا نصره الله كاتبه الفقيه الأريب الصادق الأمين الحازم الناظم الناصر، الحسيب الأديب أبا العلاء سيدي الحاج إدريس بن الوزير الأعظم الأجل الأكرم العلامة سيدي محمد بن إدريس^(٩)، فى هذه القضية وفى غيرها من شئون المملكة التى تقتضيها السياسة والعادة المقررة بين الدول إلى جنس الفرنسيس، ومرة ثانية إلى جنس الصبنيول، ووجه كاتبه الفقيه العلامة الماجد الأصيل السيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي الفاسي^(٩) إلى جنس الصبنيول فى المرة الأولى، والفقيه النجيب الحبي الأريب السيد محمد بن القائد الرئيس السيد علال الشامي إلى جنس النجلير^(١٠) حتى تقررت الأمور وتمهدت على الوجه المعروف وتيسرت الأسباب فى البر والبحر، وكل ذلك تدبير صالح، وفعل مبارك ناجح، من حكيم بار ناصح، وهو مولانا أمير المؤمنين نصره الله، وكانت هذه الأجناس الثلاثة المذكورة وجه كل واحد منهم باشا دوره وطلبوا من مولانا المظفر نصره الله أن ينوه بهم ويشرفهم بتوجيه بعض خواصه وخدامه الأقربين ليعلم الأجناس أن لهم حظوة عنده ومكانة، وذكروا أن لهم من حق الجوار ما يقتضي ذلك، وأن

(٨) إدريس بن محمد بن إدريس العمروي كان فقيها، أعجزت مفاخره كل ناقل وعجز عن بلاغته سحبان وائل، وهو أشهر من أن يعرف، وهو صاحب "الرحلة البازنية" ١٢٩٦هـ ١٨٧٨م، "تراصل الجمعان" ص ١٤٢ "الإعلام" ج ٣ ص ٢٢.

(٩) عبد الرحمان الشرفي بن محتسب فاس محمد بن العدل، وكان وزير الخليفة السلطان براكش، عالما أدبيا مشاركا، من بيت شهير بالمغرب تـ ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م "الدرر البهية" ج ٢ ص ٣٥٧ "تراصل الجمعان" ص ٢٠٨ "الإعلام" ج ٨ ص ١٤٧.

(١٠) ما بين المعتوفين كتبه المؤلف على هامش مخطوطه إضافة، انظر تقييد ابن البماني.

(*) وقعة السويرة المقدمة الذكر فى عام ١٢٦٠، كما سبق فى راية المولى عبد الرحمان.

أسلافه السلاطين الأعظم كانوا يفعلون معهم ذلك وهو كذلك، فساعدهم مولانا بتوجيه من ذكر، فكمل المراد بحمد الله تعالى، واتسقت الأحوال، وفاضت الخيرات، وشاع الأمان في جميع أقطار المغرب، وشمل الناس جميعا عدل مولانا المظفر نصره الله، لم يفقدوا شيئا مما ألفوه في حياة والده المؤيد رحمه الله، بل ازدادوا بركة على بركة، وخيرا جديدا إلى خير قديم، ذلك فضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

ولما تمهدت الخلافة ببركة مولانا المظفر، ولبست حلي زينتها وحلاها وأشرق نور جمالها في مطالع علاها، ورجع مولانا نصره الله إلى حضرة مراکش، وذلك عام تسعة وسبعين ومائتين وألف أنشدته في المولد الشريف على العادة الماضية هذه الدالية :

أما ترحم المضنى الكتيب المسهدا
له حالة سوى ترق لها العدا
وسل حاله إن شئت عنه فتشهدا
لواظظ ظبى مر أحور أغيدا
إذا حاول الإطفاء إلا توقدا
على حمل أعباء الغرام تجلدا
وحسرق أحشاء ومزق أكبدا
وحب الفتى يعميه عن سبل الهدى
على زمن بالجزع قد كان مسعدا
سقاء الغمام الجود غيثا مرددا
ليال ملاح ما ألد وأرغدا
فكانت كما نهواه يمنا وأسعدا
وأحزن حسادا وأنكى وأكمددا
أهاج لها وجدا مقيما ومقعدا
فجاوبست ذيباك الحمام المغردا
وبوئت في الأدواح وكرا ممهدا
به ضرب الأفراح للهو موعدا
إذا بلسى الإيناس فيه تجلدا
ولا يدني بالوهم ما كان أبعدا

حنانيك إن الشوق قد بلغ المدا
ورحماك إن المستهام من النوى
فلا تسأل الولهان عما أصابه
تقاضته دينا كن حاكمة به
هو الصب لا تزداد لوعة حبه
فما تركت فيه الصباية والهوى
وكم عاث في أهل الغرام هيامهم
وكم سلب الحب الرجال عقولهم
فلا تعجبوا من عبرة قد سفحتها
فيا حسن ذاك العهد يا طيب ذكره
ولله عيش بالحمى سمحت به
ليال تولى السعد حسن طلوعها
ليال بها قد أرغم الله كاشحا
إذا ذكرت نفسي هنالك جيرة
وكم غرد القمري في خوط أيكمة
وقلت كفاك الله ما أنت حساذر
فإنك قد اذكرتني زمنا مضى
ندير بظل السرح كأس مسرة
على أن ما قد فات ليس بعائد

فأما وقد زم الركاب ويمموا
فقد شاقني من نحو طيبة بارق
وأزعجني حادي المطي وقد شدا
رويدك يا حادي المطايا فإنني
ألا يا رسول الله دعوة قاطن
ولا عذر إلا الضعف منه فإنه
وأوثقه جور الزمان وأهله
ومن نفسه يا حجة الله يشتكي
بجاهك يدعو الله مالك أمره
فليس له يابن العواتك ملجأ
فإنك قد حسرت المحامد كلها
عليك لسوء الحمد ينشر آدم
إذا جمع الله الخلائق كلهم
وكنت شفيعا فيهم ولبست من
سموت إلى أعلى الطباق وجزتها
وذلك في وهن قليل من الدجا
وأطلعت شمس الحق من أفق العلا
وأندرتنا من نار كل شقاوة
وغيضت بحرا للضلالة قد طغى
وغادرت عين الشرك تبكي دماءها
وبددت في بدر رعوس كماتهم
وأحزنت في الأحزاب صخرين حريمهم
وحكمت فيهم كل أسمر ذابل
يصول بها من هاجروا ثم جاهدوا
هم الملاء العالون في حضرة الرضا
وهم بذلوا في طاعة الله أنفسا
وما زلت يا روح العوالم فيهم
وجاءك نصر الله والفتح وارتضى
وصرت إلى الرضوان حيا لتبتني
وخلفت فينا الذكر والآل حاكما
هما الثقلان بارك الله فيهما

زيارة خير الإنس والجن أحمدا
ينسي مشوق الروح ما قد تعودا
وردد خلف العيس هيمنة الحدا
أنادي رسول الله أسمع النداء
تخلف خلف الظاعنين وأفردا
تقمص فضفاضا من العجز وارتدى
فيشكوك من دهر عليه قد اعتدى
فتلك التي ألقته في هوة الردى
يخلصه مما به قسد تقيدا
سواك ولا يرجو بغيرك مقصدا
وأنت لمرتاد الندى لجة الندى
فمن دونه في ظل منشوره غدا
دعيت لمن في ذلك الجمع سيذا
حلى الحمد ما يزداد عزا وسؤدا
وخلفت جبريل الأمين المؤيدا
وجئت بأنوار الهدى لمن اهتدى
وفتحت بابا للسعادة موصدا
وبشرت من أضحى حنيفا موحدا
على أهله حتى استجاش وأزيدا
على من بغى من أهله وتمردا
فصارت لقي عند القليب مقعدا
وأرجعته يجتر خزيا مخلدا
وكل حسام كالشواظ مهندا
ومن نصروا الدين القويم المسددا
وهم أسسوا هذا البناء المشيدا
مطهرة تبغي الثواب المؤيدا
إلى أن محوت الشرك محوا مسرمد
لك الله في أعلى الفرديس مقعدا
لنا في جوار الحق عزا ممهدا
فآلك والذكر الحكيم لنا هدى
وخصص أمير المؤمنين محمدا

خليفتك المأمون نجل خلائف
من الذروة العليا من آل هاشم
هو الملك الحامي الذمار ومن له
كسا دولة الأشراف عزا وزادهسا
وجالد عباد الصليب فأذعنسوا
وعدد أمثال الأسود عساكسرا
وتهتز منها الأرض عند ركوبها
وتحسب أن الجو نثار تأججت
وتخفق ربح النصر بين بنسودها
على الملك الجحجح أبهى متوج
وأعلى ملوك العالمين مآثرا
وأكثرهم رجحان عقل وحكمة
وأوضحهم برهان مجد ومفخر
قضى الله تعنوا الناس طرا لأمره
فما زال يوليهم عواطف يسره
وبالعدل والإحسان ما زال أمرا
به حييت أرض المغارب وازدهت
هنيا لنا قد أسعد الله أرضنا
بأبهر من بدر التمام جلالة
يقيم لنا في كل عام مواسما
يفيض علينا من صحائب جوده
ونهدي له حر المدايح جوهسرا
فلا زال بالعمر الطويل ممتعا
ولا برح الأعياد يشرق نورها

أجل ملوك الأرض فخرا ومحتدا
وآل هشام ما أجل وأمجسدا
روينا حديثا في الأصالة مسندا
وأصلح ما أوهى الزمان وجددا
لعزته تحت الضراعة أعبدا
تخر لها الأسد الضراغم سجدا
وترجف أطواد الجبال قميدا
يضج لها باغي الفساد مشردا
على غرة المنصور أكرم من غدا
تبخر واقتاد الخميس المجندا
وأطهرهم قلبا وأطولهم يدا
وأعذبهم في مشرع العلم مسوردا
وأوثقهم بنيان عز ومصعدا
وتنقاد إجلالا له وتسوددا
ويصفح عن ذنب المسيء إذا بدا
إيالته الغراء أمرا مؤكدا
وأضحت لهم أهل المشارق حسدا
بملك همام في العلا قد توحددا
وأسمع من فيض الغمام وأجودا
مباركة فطرا وأضحى ومولسدا
مواهب، لاتنك نفسي لها الفدا
فيمنحنا بالفضل تبرا منضدا
ولا زال منصور اللواء مؤيدا
بغرته إن راح يوما أو اغتدى

ومن فضائل مولانا المظفر نصره الله، التي ماسبقه إليها أحد قبله في
هذه الدولة الشريفة اتخاذ العسكر على الهبأة المبتكرة المحموده المعتمدة،
عند جميع الدول اليوم في أقطار الأرضين، ويقال لها عند المشاركة النظام،
ولم تكن عندنا بهذه الدولة فاستحسنها مولانا نصره الله فاقترحها على
والده المؤيد رحمه الله فأذن في اتخاذها، فلم يزل مولانا المظفر نصره الله
يزيد فيه ويبالغ في تقويته وإصلاح أموره وإقامة أوده وإعلاء شأنه مع

كون أهل الدولة قد ثقل عليهم ذلك غاية، ونفرت طباعهم منه لأمر منها :
أنهم لم يعهدوه، ومنها أنهم لم يتوقفوا عليه لأنهم لم يحاربوا ولم يباشروا
المصافة به حتى تظهر لهم مزيته، ويعلموا أنه لا تمكن الغلبة بدونه اليوم
لمن قابلهم به لأن المغالبة هي مقابلة الشيء بمثله، وإذا انتفت المصائلة فلا
مغالبة، هذا بعض الأسباب التي أوجبت كراهيته لمن كرهه، وهنالك أسباب
آخر لا يقتضي المقام ذكرها، ومولانا نصره الله لما أطلعه الله على حقيقة
الحال لم يزل جادا في إغاطة من خالف في ذلك حتى قعد قواعده، ورفع
بناءه على أساس وثيق، وذلك في راية والده المؤيد رحمه الله، وأحرى
اليوم في هذه الراية العالية فإن عنايته به في غاية الازدياد، الخارق
للاعتياد، ولا أظنها تقف عند عدد مألوف، دون المئين من الألوف، أيد الله
هذا الدين بتأييد مولانا وعزته، وأمدّه بباهر قدرته، وجعل من أنصاره
أرواح الكواكب العلوية، تقدمه السعادة بمنصور الألوية.

ومن علو همة مولانا المظفر نصره الله أنه ما سمع بخصلة من
الخصال، إلا وجه إليها سوابق الاستحصال، حتى تستقر بين يديه، وتلقي
جرانها لديه، فصارت أجناس النصارى تتحفه بكل غريب الشكل مما
استنبطوه، ولا يردّه غالي الأثمان إذا شرطوه، فكانت حضرته العاليه من
أجل ذلك مظهر العجائب، ومنال الفوائد والרגائب.

من ذلك الآلة التي يعصر بها السكر ويعقد، حتى يوجد في كل حين
ولا يفقد، ويغنى عن جلبه من أقاصي البلدان، لما أجرى الله العادة اليوم
باستعماله في سائر الأوقات لاستصلاح الأبدان، فأراد مولانا نصره الله أن
يكفي الناس مثونة اجتلابه، ورأى نصره الله أن هذه البلاد لكثرة مرافقها
دون غيرها من الآفاق أولى به، فأمر بغرس القصب الحلو واستنباته، وتهيته
المزارع الطيبة واختيار أطيب أوقاته، ووجه على من يحسن أعمال إخراج
من القوة إلى الفعل، بغاية ما يطلب من الإجارة أو الجعل، فجاء من
النصارى كثير من العملة، الذين زعموا أنهم يحسنون عمله، فذكروا أنه
لا بد لذلك من محل مخصص، وبناء هائل مرصوص، فأمر نصره الله
بالبناء في أخريات أگدال، على ما وصف أولئك الأنذال، فأنفق على ذلك
أموالا كثيرة العدد، في زمان طويل المدد، ووجه على ما يتوقف عليه من

الأواني العجيبة، والآلات الغريبة فجاءت من بر النصارى، ولم يرتكب في ذلك تقريبا ولا اختصارا، فأكمل ذلك كله على أكمل الوجوه، كما يأمله الآمل ويرجوه، ثم إن أولئك المباشرين من الأروام توقفوا في أثناء العمل عن الإتمام، ولعلهم إنما كانوا من جملة العوام، فبعث مولانا نصره الله على الصناع المهرة، فجاءوا من مصر القاهرة.

ومن ذلك قنطرة من الحديد، مما أحدثه حكماء النصارى في هذا الزمان الجديد، من عجائب القدرة، ولا يقدر أحد قدره، كان مولانا المظفر نصره الله أراد أن ينصبها على وادي أم الربيع للجواز عليها في أوان السيول، وترادف الأمطار، وكان المأمور بالوقوف على اصطناعها وعلى جلبها من بر النصارى هو التاجر ولد مصطفى الرباطي، وقد صير عليها من الأموال الثقيلة ما يبهر سماعه، وما لا يمكن غير الملوك العظام أن تبلغه أطماعه، فلما جاء بها على أكمل الحالات وأتقنها، حسده بعض من له الوجاهة على ما قيل، فزيفوا ما جاء به عند السلطان نصره الله، وقالوا إنها لا تصلح ولا تناسب، وإنها يختل نظامها في أقرب مدة، ثم إن مولانا المظفر عزم على بناء القنطرة على المحل المذكور بناء أزليا، هائلا أبديا، فأمر من زعم أنه يحسن النظر في ذلك فوجهه يختار المحل الذي يصلح لذلك، ويهيئ ما تدعو إليه الحاجة من الإقامة والحجارة، ويقدر كم يكفي من ذلك ويرفع ذلك إلى حضرة مولانا، فيأمر بترتيب كل ما يحتاج إليه حتى يكمل الغرض، وكان ذلك الموجه كاذبا فيما زعم من حسن النظر، فشرع على ما قيل في الحفر بلا تأويل ولا تمهيد ولا ترتيب، فظهر سوء نظره في الحين، وكان الناس يودون أن لو تم ذلك، وليته ساعدت الأقدار في وجوده، فإنه من الآثار الباقي نفعها، التي تحصل منها الفائدة العظمى للمملكة، وقد كانت في القديم فيما يحكى عند أبي العوان، وكانت هنالك قصبة عامرة لأجل حراسة ذلك المجاز، باقية في أيام مولانا إسماعيل، وبقيت إلى أيام مولانا عبد الله كما تقدم ذلك في أخبار رايتيهما، ولعل الله تعالى يوفق مولانا المظفر نصره الله لبنائها ويعينه عليه، ويوجه عنايته إليه، ويجعل في ذلك خيرا عاما للمسلمين.

ومن ذلك أيضا الرحى التي جاء بها مولانا نصره الله إلى ثغر

طنجة، فإن الحديث عنها من الأعاجيب، ويذكر أنها تطحن في ليلة واحدة عددا كثيرا من الأوسق.

ومن ذلك أيضا برج الفنار الذي بناه مولانا نصره الله على ساحل البحر في المسافة التي بين طنجة وأصيلة، يوقد فيه الضوء الذي يظهر للسيارة في البحر ليلا من المسافة البعيدة، وذكروا أنه يوقد فيه من الزيت في كل ليلة شيء كثير، قيل إنه كان في الزمن القديم وأحياء مولانا نصره الله وأنفق عليه آلاف مؤلفة من الريال، تقبل الله من سيدنا حسناته، ورفع بذلك في معارج القبول درجاته.

ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة وفيما قبلها من الدول المغربية فيما بلغنا قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان حتى صار ذلك أمرا لازما لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه، وكان مولانا المظفر نصره الله جاريا على ذلك السنن القويم حتى في أيام خلافته عن والده المؤيد، وكنت أرفع إليه في كل ختمة من ختماته على العادة قصيدة يستدعيها المقام ويقتضيها، ويستحسنها كل سامع ويرتضيها، ولم يحضرني الآن أكثرها، ومما رفعت إلى حضرته عند الختم في السنة التي رجع فيها من حرب ولد محيي الدين غير التونية المتقدم ذكرها، فإن تلك إنما هي تهنئة بمرجعه، وهذه في الختم عند حضور مجمعه، وأشرت فيها إلى ظفره بالعدو المذكور بإشارة بعض من طلب ذلك مني، وهي هذه :

ولا تله عن حال الرقيب وداره
يغاديهم وهنا شميم عساره
وربع يذيب القلب عند اذكاره
محاجر أدماها بسوء اندثاره
صروف زمان لا يقام بشاره
دواء يقيه من وغول بحاره
صريع حمياه عقيسر عقاره
فذاك الذي يرضى الغرام بعاره
دريس يحار السفر بين قفاره
وروض يسلي الشجو شدو هزاره

ألا حي آثار الحبيب وداره
وحدث عن الحي الحلول بعالج
فلله، آثار أثارت غرامنا
تقاضته عهد الحب وهي سواكب
معطلسة أطلالسه لعبت بهسا
فيا صاحبي والصب ليس لدائه
يلذ له في الحب أن قيل إنه
فلا تحسبن الحب عارا لمبتلى
ولا تحسبن الشوق مني لمربع
ولا أن تهيام الفؤاد لمنزل

أيجعل للكفار من قلة الحيا
ولو أسرتهم الخيل وهم مقارع
فتبا له في ذمة الخزي جاثيا
وتبا لمن يمشي فتضحك إن مشى
جزى الله مولانا الأمير محمدا
كفى ملة الإسلام كل ملمة
وكل غوي هائم في ضلالة
فيا أيها الفرع الذي قد بنى لنا
لك الفخر لا ما تدعيه من العلا
لك الشرف المرفوع عند كنانة
تركنت بهذا الفتح كل مملك
وأرضيت مولانا أباك بنيله
فأنت إذن أولى بكل فخامة
ومجلسك العالي عروس مجالس
فلا زلت مكلؤ الجناب مهنئاً
تقابلك الأعياد منه بمنظر

عليه سبيلا طائعا غير كاره
لادرك فخرا طائلا بإساره
معنى يداني خطوه في حظاره
أصيبية الخزيان عند عشاره
بكل جميل قائما بانتصاره
وكل عدو يختشى من ضراره
وكسل سفيهه فاتن بحذاره
من العز سورا عاليا باقتداره
قياصرة نالتة دون احتقاره
وعند معد رأسخا في نزاره
قرين حياء لائذا باعتذاره
فأرضاك ما بين الورى باختياره
وكل العلا قد حزته بابتداره
وهذا نظام الدر بعض انتشاره
ودهرك طوع خادم باثتماره
ومبتسم يبدى جميل افتزاره

وكان مولانا المظفر نصره الله لما ورد عليه الخبر باشتداد المرض على
السلطان والده خرج من مراکش وخلف أخاه الأبر الأجل الأكرم المفضال، ذا
الأخلاق العاطرة التي يحسدها الروض الآنف المخضال، أبا الحسن مولانا
علي حفظه الله، فباشرا الأوامر والنواهي، مباشرة العقلاء الدواهي، وكان لا
يقطع أمراً قليلاً أو كثيراً إلا بعد مشاورة مولانا نصره الله، وكان يعالج ما
يضايق به الزمان بسعة أخلاقه، ويقابل كل ما يتعسر باستفتاح اغلاقه،
حتى تملك القلوب بلين الجانب وخفض الجناح، وتسهيل المشاق ورفع الجناح،
ولولا ذلك لاحترق الحوز كله بما استوقده الرحامنة الصحراويون من نيران
الفتون، وانصبابها كالطر الهتون، فإنهم عمدوا إلى سوق الخميس بمراكش
فنهبوه، وكل من ظفروا به خارجاً أو داخلاً سلبوه، فانقطعت السبل برهة من
الزمان، لعصوم المخافة وعدم الأمان، وارتفعت الأسعار، وأكل ما استعد
بالادخار، وقطع ما حول الأسوار من الأشجار واحتطب، وحصد الزرع

وصار يخوض الهول بين عجاجة
يسير بجند ينسف الأكفم غائرا
يسير بريح النصر في لجج الوغى
ويغني عن الشمس المنيرة وجهه
له الحرب أهنى من مسألة العدى
له في ظهور الصافنات مجالس
ومسح لأعراف السوابق عنده
له الرعب جند حائط من جهاته
إذا ما نوى إتيان قوم بغارة
وإن كان يبغى غزوة لمعاشر
كما فر عبد القادر الغمر خاسئا
له الويل لو نالته حيناً سعادة
ولكنه قد راعه من حماته
وكان أمير المؤمنين سقاه من
سقاه يظن العود من فرع كرمه
إذا أنه لا ظل فيه ولا جنى
على أنه لو كان فيه فطانة
هو الجاهل المغرور قد نزلت به
يظن طلاب الملك أكلة جائع
ويحسب أسد الغرب في الحرب مثلما
فلولاه ما صارت جسوم أناسه
أصابهم ما قد أصاب بشؤمه
أصابهم ما قد جنى بجهالة
وكم حافر للغير بئرا فخر في
أسائله بالله يوم انحيازه
أكان مفيقا حين ذاك من الكرى

تشابه فيها ليله من نهاره
ويذهل من آساده وغار
كما سار فلك في هبوب شواره
إذا ما دجى وقت الضحى من غباره
إذا استوخم الأقران خوض غماره
لعمرك أشهى من مقاصير داره
مهين لمسح الخزعند اعتجاره
مسيرة شهر من تراث نجاره (11)
أتاه الذي ينوي رهين صفاره (12)
فليس لمن يبغيه غير فراره
على عقبه خائفا من غراره
وتاب إليه نال حسن اغتفاره
مصاب فكل واقع في دماره
تفضلته من تبره ونقاره
وغرس لذيذ المجتنى من ثماره
ولكنه مستوقد لجماره
لما أمن الضرغام حين اكتشاره
وخامة ما أعطاه سوء اغتراره
ويحسب أن الغرب مثل قراره
تعاوى من الذؤبان حول دياره
مطاعم طير في قناء وجاره
كحي ثمود باجتراح قداره
وكم من مصاب من جناية جاره
غيابات ذاك الحفر بعد احتفاره
إلى دار كفر في لباس صفاره
فريد (13) به أوطافحا في خساره

(11) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب الخ...

(12) في الأصل صفان بالضاد وكتب عليه مؤلفه صفار كسحاب الجهل، وفي (م) و (ف) ظفان بالمشالة وفي (ش صفان).

(13) في (ف) غريق.

في دار ابن عودة وقتله بلا دفاع ولا معارض، حتى إن الذين جاءوا لقتاله ما تجرأ أحد على القرب منه، ولا نصيح في شأنه، فلما دخل لزيارة مولانا إدريس وكان هناك أبطال من الشرفاء العلويين، ومن زرارة والشبانات فشدوا عليه الأبواب وحصروه في مشربة من الحرم فقتلوه وحزوا رأسه ويديه ووجهوا ذلك لمولانا السلطان نصره الله، ووجه ذلك لحضرة مراكش وبذلك انطفأ بعض نيران الحوز بحمد الله تعالى.

وقد كان حدث في أثناء ذلك بالقلعة ببلاد الصراغنة حادث فظيع من نمط ما قبله، وذلك أن محمدا ولد أحمد بن القائد كان ذهب لفاس صحبة مولانا المظفر نصره الله، فجاء وأظهر أنه جاء بأوامر السلطان، فجمع جماعة من أهل الفساد مثله فدخل على العامل عمه الرجل الصالح الحاج محمد العبوبي، وهو غافل آمن فقبضه وقيده وقال للناس : إن السلطان أمرني بذلك، وقد قيد أخي العربي، وهو قادم في أثرى بأمر السلطان، فأمر في الحين بمرس زرع المخزن ففتحه وجعل يبيع ويقبض الأموال الثقيلة التي لا يعلم قدرها، ويعطي أهل الفساد من أتباعه بلا قياس ولا عد فتبعه الغوغاء، وأنفذ الخليفة مولانا علي جميع الحيل في تسريح العامل العبوبي من ثقافه مدة مديدة حتى وجه مولانا نصره الله حاجبه الفقيه السيد عبد الله بن أحمد فسرحه بنوع من الاحتيال، وذلك الفاجر مصر على ما هو عليه من الغي والطغيان حتى أفرغ ذلك المرس الذي كان يقال إنه لو انقطع الزرع من المغرب لكان يكفي أهله هذا المرس، فاستهلكه ذلك الفاسد في مدة قريبة بلا فائدة ولا طائل، مع ما أخذ من متاع دار العبوبي وذخائره وأمتعته وخيله وبهائمه وأنعامه، وكل ذلك ذهب في الحين كما يذهب الدخان، ولم تزل مراكش في شدة الهول والغلاء من أجل فساد الرحامنة، وفسادهم هو أصل فساد الحوز كله، لا الصراغنة ولا غيرهم، ولولا أنهم تجرأوا على الحضرة المراكشية ما تجرأ أحد عليها.

فلما فرغ مولانا المظفر من استصلاح الغرب واخماد نار الفتن الشائرة فيه توجه لحضرة مراكش فلما قرب منها جمع الرحامنة قضهم وقضيضهم، وعزموا على محاربة السلطان جهارا، وظنوا أنهم مانعتهم كثرتهم من الله، فانحازوا كلهم إلى ناحية زاوية ابن ساسي والودان والرميلة ليحولوا بين

المدرک فی إبانہ لغير زراعہ واغتصب، واشتد الحصار، وتخاذل الأعوان والأنصار، والخليفة المذكور يدافع مزيد شرورهم بالاحسان، وحسن الخلق وحلاوة اللسان، ومولانا المظفر نصره الله بحضرة فاس، في نحر العدو الكافر وتقوية العساكر المقاتلين لهم بالسواحل، وكان جهاد هؤلاء الذين هم في باب الدار أولى من الذين تعمل إليهم الرواحل.

وفي خلال ذلك وقرب انفصال قضية النصاري ظهرت فتنة أخرى بالغرب في سفيان وبني مالك، وذلك أن رجلاً أخرج منهم معتوها يقال له الجلالی الروکی كان قبل ذلك مسخرة لكل أحد، لازمه جماعة من الشياطين، وجعلوا ينسبون إليه الخوارق، وزعموا أنه يخبرهم بالمغيبات، فتقع كما أخبر، وصوروا من ذلك صوراً غريبة استغفروا بها العامة، وجعل أمره يزداد كل حين، وكثر عليه الناس كثرة فادحة، والسلطان فيما ذكرنا من الاشتغال بأمر الكفار وانبرام ما أشرنا إليه من المهادنة، فلم يشعر أحد بأمر ذلك المعتوه والشياطين الذين نصبوه حتى أضرموا الغرب نارا تتأجج، باضعف من نسج العنكبوت من الحجج، وسبب ذلك الظهور أن أولئك الشياطين زحفوا بتلك الجموع إلى دار عاملهم الطالب الغر النزيه السيد عبد الكريم بن عودة، وكان على قرب من ولايته وقتل أبيه في جهاد النصاري وقبل استحكام حاله، وهذا هو الذي أطمع فيه أولئك الفساد، ورصدوه حتى لم يبق معه في الدار من عبيده وأنصاره وإخوانه إلا القليل، فجاءت تلك الغوغاء المتكاثرة فجأة وأحاطوا به ودخلوا عليه فقتلوه ونهبوا الدار وكانت ممتلئة بالخيرات من الأموال والكساوى والأمتعة والأنعام والخيل والعدة، فأخذوا جميع ذلك وفرقوه على أتباعهم من أهل الفساد، وقوى بذلك أمرهم في ساعة واحدة، وحصلت لهم عصبية تامة لا تقدر قبيلة يتوجهون إليها على دفعهم، فأمر مولانا المظفر نصره الله جميع القبائل المجاورة لهم من العرب والبربر بمحاربتهم، وأمر أخاه الأبر الهمام البطل قدوة الكرام أبا السعادة مولانا الرشيد بالخروج في العساكر إليهم، فخرج في الحين مسارعاً، فأوردتهم من الردي مصارعاً، بعد حروب كانت لشيخو الفتن مضاجعاً، ولأطفالها مراضعاً، فلما أراد الله سبحانه الانتقام منهم، ذهب قاصداً نحو مكناس، وقال لهم : نقدم زيارة مولانا إدريس وبعد ذلك ندخل مكناس، وفي الحقيقة قد دخل الناس الدهش منه لما وقع له ما وقع

تحن حنين النيب شوقا لسالف
 لعمرك ما يجدي على متذكر
 وقد كان أشقى للغرام قلائص
 تسود بسودان مناخا وتشتهي
 ومسرى لنجد والأباطح والنقا
 ويحدو بها الحادي إلى شعب هاشم
 فما لي مني إلا مني وإنابتي
 فكم عندها تمنى دماء وأدمع
 وكم بمحاني الجزع بين ربوعها
 هناك بذاك الشعب قد كان مولد
 وشاد به إنجيل عيسى بن مريم
 بمولد محبوب الإله ومن له
 بمولد خير المرسلين محمد
 بمولد من حاز السيادة كلها
 إذا جمع الله العباد بموقف
 ولاذ به الأشهداء قال أنا لها
 مهاجرة في طيبة بمراغم
 صناديد من أبناء قبلة منهم
 تخوض غمار الموت منهم غطارف
 هنالك غيث الوحي حل نطاقه
 هنالك دين الحق أقبل نوره
 مواطن خير الرسل مسكن أهله
 فترتبه قد أجمع الناس أنها
 فكم خطر الروح الأمين خلالها
 وكم جاءها مستلثما متقنعا
 فأعظم بجاه المصطفى ويقدره
 ومن كان جبريل الأمين ملازما
 خلاصة سر الكون منبع نسوره
 هو القلم الأعلى الذي كتبت به
 في آدم الأرواح يا بذرة النهى
 صدعت بأمر الله وحدك واثقا
 وجالدت أهل الجاهلية بالظبي

ومطلب ما قد فات صفقة خسران
 حنين لأحيان مضيئ وأزمان
 تسام بمرعى من عرار وسعدان
 شميم شمام واعتسافا بعسفان
 وملتزم عند الحطيم وأركان
 بمكة لا شعب مضاف لبوان
 لياليها أدعو برحمة رحمان
 وكم من ضجيج للحجيج وإرنان
 تجاذب ظل الأيك أرام غزلان
 به بشر الأرسال في كل ما أن
 كما شاد توراة لموسى بن عمران
 ومن أجله تكوين سائر أكوان
 نبي له قد زخرفت دار رضوان
 على كل خلق الله متنى ووحدان
 وطافت بهم إذ ذاك أمواج نيران
 وقال جميع الرسل نفسي وجثمانى
 كثير لأنصار على الحق أعوان
 معاذ وعباد ويشر وسعدان
 كأنهم في الروع آساد خفان
 فأفعم أحشاء القلوب بإيمان
 وأدبر دين الإفك عباد أوثان
 ومضجعه عند انتقال من الفاني
 أجل من العرش العظيم بإيقان
 وكم دارس المختار فيها لفرقان
 فزلزل بالأحزاب أحزاب شيطان
 وأكرم بمبعوث إلى الإنس والجان
 لخدمته في السر منه وإعلان
 سعادة مشقسو هداية حيران
 كوائن ملك الله في كل ديوان
 وباعلة الكونيين يا عين أعيان
 بمولاك لا واهي الفؤاد ولاوان
 وجادلتهم فاستعتبوا بعد عصيان

مولانا نصره الله وبين دخوله لمراكش، فلم يبال بهم ولا أخذ لهم أهبة، بل هجم عليهم ونزل بهم نزول الصاعقة، والداهية الطارقة، والمصيبة العامة الدافقة، فلم يمض إلا ساعة من نهار حتى سيقوا إلى مراكش مقرنين في الحبال، والسلاسل والأكبال، حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أن مولانا نصره الله أمر الجنود أن لا يقتلوهما ما كانوا من الاستئصال ينجون، ولا بقيت لهم باقية، ولا وقتهم واقية، ومولانا نصره الله راعى فيهم عهد الأسلاف، ونظر نظر الرحمة إلى أكثرهم الضعفاء الخارجين من دائرة الخلاف، فأقال لهم هذه العشرة، فلم يرق من دمهم قطرة، وهذا من حلمه الذي هو أخص أوصافه، على أنه لا يلام لو تظاهر بالانتقام من الظلمة على انتصافه، وقد شرط عليهم مولانا نصره الله رد المظالم التي ظلموها، وغرم الأموال التي أتلفوها وأكلوها، فأدوا بعضا من ذلك وأكل العمال جلده، وإن شئت فقل كله، وغاية ما عاقبهم به مولانا نصره الله انتزاع البلاد الثلاثة التي لا يقدر على انتزاعها منهم إلا الله تبارك وتعالى، وهي بلاد الودان وبلاد آيت سعادة، وبلاد أغواطم، وهذه البلاد من نعم الله التي أغنتهم وأطغتهم، وبها كانوا يضادون قبائل أهل سوس الحوزية، (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) لما كانوا عن الحق لا هين، وعن الباطل غير متناهين، نعوذ بالله من سلب النعم، وفجأه النقم.

ولما حل مولانا نصره الله حضرته المراكشية حلول الشارق أسعد أبراجه، وتصاعده إلى أعلا أدراجة. وحضر عيد المولد الشريف المبارك المنيف رفعت إلى حضرته العالية، على العادة الماضية، هذه القصيدة وأشارت فيها إلى ما أسلفت شرحه، وجلوت صبحه، وهي هذه :

تذكر أزمان مضين وأحيان	قضيت بها دين الشبيبة أحياني
زمانا حبانني فيه شرخ شبيبتني	مناي فأعطاني فقيض أعطاني
أجر به ذيل الشباب وأرتدي	بأسمح من فرع الذوائب فينان
والبسنني ريعانه كل ملبس	بهي وأوطاني مآلف أوطاني
إذا ذكرته النفس يوما ترنحت	ترنح مرتج المعاطف نشوان
سقى الله هاتيك الليالي وأهلها	وبوأهم أفياء روح وريحان
رويدك إن القلب لج به الهوى	وما في سراب من شراب للهفان

له همم دراكة وعزائم
أعد عتادا للعدا بعساكر
ليوث افتراس كلما زارت على
فسوارس تغتال النفوس كأنها
ترابها كمثل السيل يخسف تحتها
تصول بأسياف تحيض ذكورها
وتنشر رايات تنسوش ذيولها
إذا اضطربت في الجو قال هوبها
أيا ابن الملوك الأكرمين ومن بنوا
ويا ابن هشام والهمام الذي به
لك العزلا ما تدعيه قياصر
فقد شاعت الأخبار من غير واحد
يقيم دليل الصدق أنك فاطمي
ولا شاهد أجلي وأوضح عندنا
ستملاً كل الأرض بالعدل بعدما
وتملك من أهرام مصر ونيلها
فمد إلى الاقطار كف تناول
بعزة رب العالمين وحولته
قدم للعلا تحيي موات رسومها
تقيم لنا في كل عام موالدا
تفيض علينا فيه كفك أنعمنا
وتلبسنا من كل خير مطارفا
ولا زالت الأعياد تهدي سرورها

تفوت مباغيتها مطالع كيوان
مسومة ركبان خيل ورجلان
ديار أناس زارها كل أحزان
إذا صبحت أرضا عصائب عقبان
تراها وترمي كالأثير بشهبان
وتسطوا بأرماح كأنياب ثعبان
رياح سعود من رخاء سليمان
ألا إن نصر الله والفتح وافاني
مباني العلا والمجد أرفع بنيان
يهان مسماه من أبناء مروان
لك الفخر لا ما تدعي آل ساسان
وليس بأفك وليس بميسان
وأنت مهدي بآلة حسبان
كقتلك للكذاب كذاب سفيان
غدت كلها ملأى بجور وعدوان
إلى الهند أو ما كان خلف خراسان
توافيك طوعا أو تقاد بأرسان
وقوته والحق ليس بيهتان
ودرس علوم من حديث وقرآن
مشرفة بالمصطفى خير عدنان
مدفقة تحكي تدفق خلجان
طويلة أذبال بسيطة أردان
لحضرتك العليا المعظمة الشان

وجئت بمقبول العقول وأذعنت
وباهلت بالحق المبين معاندا
سموت إلى السبع الطباق وجزتها
وحيث لأقلام التصاريف والقضا
وصليت بالأملاك والرسل كلهم
عليك صلاة مثل قدرك تنثني
ويشمل كل آل والصحب بشرها (14)
ألا يا رسول الله جنتك مادحا
ألا يا رسول الله جاهك واسع
فكن لي شفيعا في القيامة عندما
وكن لي مجيرا عند ذاك فلا أرى
وكن لي في دنياي كهفا وموئلا
وخذ بيدي خير الملوك إمامنا
ومد له أظناب عزك واحمه
وتوجه تاج النصر وهو مكلل
وأيده تأييدا مبينا وكن له
فقد قام بالدين الخفيف مجاهدا
وشتت شمل المفسدين من البورى
ومزقهم في الأرض كل نمزق
بعز أمير المؤمنين محمد
بعز أمير المؤمنين محمد
بجود أمير المؤمنين محمد
فدولته كالروض طيبا ومنظرا
وأيامه تفتت عن ثغر باسم
لقد أينعت آمال كل مؤمل
ودولته زادت بهاء وبهجة
بها رفعت للملك أقوى دعائم
بها أمن الله البلاد من الردى
هنيئا لنا أهل المغرب إننا
فما لکننا سلطان كل متزوج
هو الملك المنصور لا شك أنه

(14) في (م) نشرها بالنون.

وقد سعدت واستبشرت كل إذعان
فأحجم إرهابا كرهبان نجران
إلى حيث لا حدث سواك ولا ثان
صريف لذيذ سمعهن لآذان
إماما فبان الفضل من غير كتمان
إلى العمرين مع علي وعثمان
وأزواجك اللاتي حظين برجحان
رجاء ثواب الله عفو وغفران
عظيم إذا ما الأمر ضاق وفاجاني
تجلى إله الخلق في حال غضبان
تطير صكي أو تقلص ميزاني
أعوذ به من كل خسف ورجفان
سليلك أولى الناس منك بإحسان
حماية أباء كرام لولدان
بكل قبول من علاك ورضوان
معينا فلا يحتاج يوما لأعوان
عداك ومن يعزى لكفر وعدوان
فليس يرى كاسيهم غير عريان
وغادر أرواحا لهم دون أبدان
ينادي إذا ضاق الفضا كل لهفان
نلوذ فلا نخشى إخافة خوان
نقابل إمساك السماء لأمزان
تمايح دوح أو تفأوح ريحان
وتسفر عن وجه كأزهار بستان
لديها ونال المبتغى كل إنسان
على ما عداها من ممالك عمران
بها أظهر الإسلام غرة جسدان
فلم يخش قاص من مخاف ولادان
نفاخر من يبغى الفخار بسلطان
إذا ابتهجت يوما ملوك بتيجان
أجل ملوك الأرض عجم وعريان

عاشرا / ارضى / اود الشيعين البغية العكامة البركة التي في الدنيا والآخرة آمين
 وكتم عليكم وجه الله بوجوه بكنتم الله وبعدوا ما بان كتاب وكان احب ما اعادة ما له بعد التبع به
 حسنة عبادك لنا ونشرنا ايماننا بان هذه المحلة السعيدة محروكة مقبولة فخره مقبولة كما في الامراء
 والنجح ، ايتى بل السكامة والعنينة والفتنة ^{وكان فيهم من لا يصدق الله ولا رسوله ولا ما جاء به من الرسل}
 وانما قولك الباركا بتنا لك بال الله اقلية الله كاتبك ، ايتى به ردا غيبا بانه وانك عاقد الله على
 حاله من الصنع والفرق ترجع الى احسان والتفضل بعوايد التزم ^{ما عاقب الله بهوراته}
 انفسها انه غنائه وانفع ما تاتى ثلثاته وذالك التفرقة والله يبعثنا في الدنيا والآخرة آمين
 البشري حفظها الله بذاك بمول الله وبركته وانفع ما له مرد افع ^{ما الحزن الى الركا} باننا لبقنا به العامل بزمنا
 والزمنا له جهاد ، ودر نسبه ونقله وانما للدار حتمه كبق ما افتر حقه ^{ما ما كسبه} والزمنا له البار
 بلفه كذا في الاخبار ^{ما ما انت عليه} باننا لبقنا به العامل بزمنا
 اننا شفي ارتقا عليك حنا ناو حبا ^{ما ما انت عليه} باننا لبقنا به العامل بزمنا
 المسؤل تعجيل شهادته وازاحة سائر اذوايه بمنه وكهوله ^{ما ما انت عليه} باننا لبقنا به العامل بزمنا
 اخر املنا وهديته والقبول من ليشهم امثالك يشتم شتمه ^{ما ما انت عليه} باننا لبقنا به العامل بزمنا
 فانت والحمل من حيلة العلماء الاحل بحيز وعلم المحبة والالحاق ^{ما ما انت عليه} باننا لبقنا به العامل بزمنا



وفي هذا العام وجه مولانا نصره الله ولده الأبر، وخليفته الأسعد الأغر، مولانا الحسن^(*)، الذي أنبه كل المحاسن من الوسن، وقاد جميع المحامد برسن، للقطر السوسي بالعساكر والجنود، والأولوية المنصورة والبنود، بعد رجوعه من حركته المباركة التي هي له طالعة الفتح، ومقدمة الريح، وهي التي ابتدأ بها أعماله، وخبر بها مولانا نصره الله مأم سعدة فاستبان كماله، وذلك في توجيهه إلى القبائل الجبالية المتكاثرة مثل هنتيفة وأعتاب وولتانة ومن انضاف إليهم من البرابر ومن جاورهم من أعراب الصراغنة وبني مسكين وغيرهم، فإنهم قد انتشر نظامهم بما غشيتهم من نيران الفتن التي أضرمها أولاد أحمد بن القائد كما قدمنا، فأصلح مولانا الخليفة المذكور جميع ذلك ومهدده، وأحمد نيرانه وسدده، وفرحت تلك القبائل كلها بوروده، وأذعنوا للحق بلا مشقة ولا كبير عمل ولا حرب ولا ضرب، ورجع مؤيدا منصور اللواء، وظهرت لمولانا نصره الله أمانة نجاته وسعادته، فلما توجه لسوس وجده على أشد ما يكون من المنعة كما هو

(*) وعلم هامش ذكر الخليفة المولى الحسن اذكر هنا ظهيرين شريفيين بدلان على العلاقة بين مؤلف الجيش ومولانا الحسن قدس سره وكانت العلاقة شديدة الى ان كان مولانا الحسن يزور الفقيه في داره حسب ما يفهم من الظهيرين.

الحمد لله وحده

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

محبتنا الأغر الارضي الاول الشيخ الفقيه العلامة البركة الحير الدين السيد محمد بن أحمد اكنسوس حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله بوجد سيدنا نصره الله وبعد، وإفانا كتابك فكان أحب ما أفدنا به بعد التبرك به حسن دعائك لنا وبشراك إياتنا بأن هذه المحلة السعيدة محفوظة مضمونة محروطة معصونة ظافرة بالمراد والنجاح طيبة بالسلامة والفنيحة والفتح. وإن ولدك البار كاتبتنا الطالب عبيد الله أصدحه الله كاتبتك ماننا فزيد اعتنائنا به وإنك عافاك الله على حالة من الضعف والهزم ترجب الاحسان والشفط يعرائد الكرم. أما دعائك لنا فهور والله أنفس ما أذخرناه وأنفع ما تأتلتناه وذلك الظن قبك والله يشهد أنا لنحبك قدما وحديثا وتصطفيك. وأما البشرى حقها الله فذاك بعول الله وبركتكم واقع ما له من دافع. وأما الحرث الدكالي فانا كلفنا به العامل جزما والزمناء حصاده ودرسه ونقله وأصلا للدار حتما طبق ما اقترحته. وأما ما كتبه الولد البار فلقد صدق في الاخبار وأنه عندنا لمن المصطفين الأخيار. وأما ما أنت عليه مما اشترت اليه قتاله لتأسفنا وتألمنا عليك حنانا وحبا ووددنا لرأى بيدنا الشفاء فصبيتنا عليك صبا، لكن الله سبحانه المسؤول تعجيل شفائك وإزاحة سائر ادراكك بمنه وطوله، آمين، ويرافيك صحبتته مائة مثقال اكراما منا وهديته، والقبول من شيم أمثالك شتشة أخزمية، ولا تنسى من صالح دعائك كل حين فأنت والحمد لله من جلة العلماء الصالحين وعلى المحبة والسلام.

14 ربيع 2 - 1290

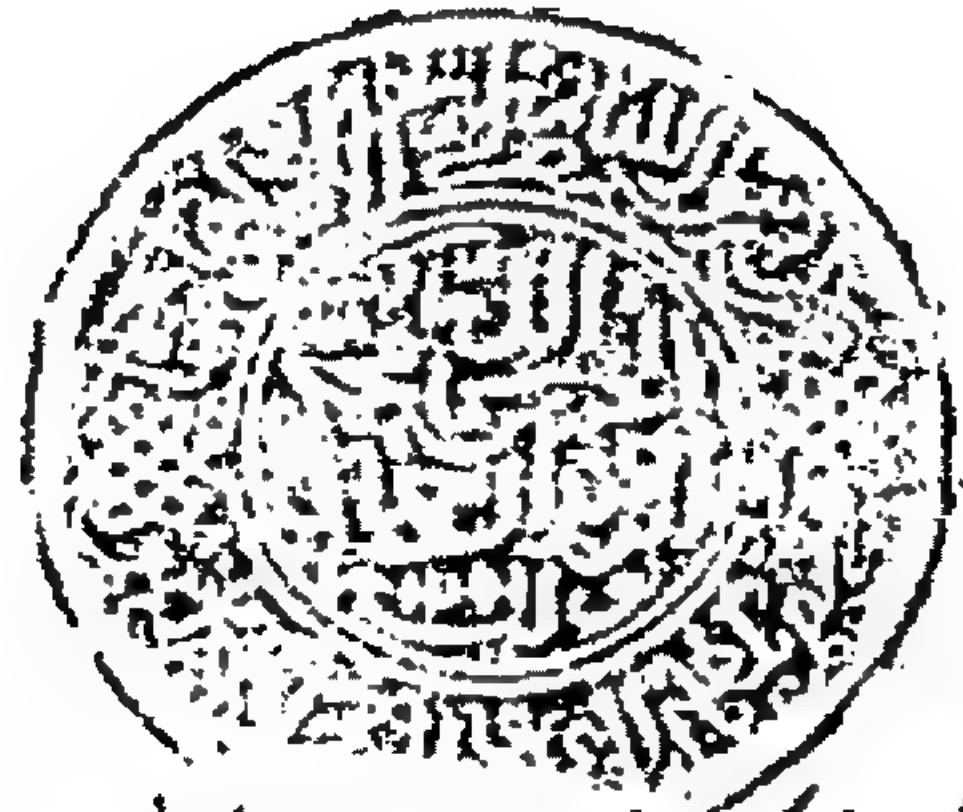
الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

مستقر هذا الرقيم الكريم المعهود بالطراسين والخواصم راحة ماسكه المخرج له كاتبتنا الارضي الطالب عبيد الله اكنسوس الجعفري يستجلى من مسطور طروسه ويستجنى من جنى غروسه اننا بعون الله خلعتنا عليه حلل الامتتان والتوقير وخلعتنا عنه ملابس الامتتان والتعقير وحاشيتناه من جميع سماء العرام واذنيتناه لظلال جاتبتنا العالي بالله مدى الدوام وحررتناه من جميع الوظائف والكلف وأقررتناه على ما عهد لمن مضى من سلف بحيث لا يسأم جانبه سوء ولا حضما ولا يحام حماه أخسلا ولا ضيما رعاية لتحليله بالعلم الشريف وملازمته خدمتنا الشريفة منذ تيط به التكليف تحريرا كاملا شاملا يشمل ولده المهدي وأخاه الطالب العربي وصهره المربط الطالب الزوين وجميع دورهم واملاكهم ومساكنهم ومعالهم وأماكنهم. تأمر كافة عمالتنا وولاة أمرنا بتنفيذه وأعماله وعدم رقصه أو إهماله. صدر به أمرنا العالي بالله في 17 رجب الفرد عام 1300.

فليس بكائي من جفاء خرائد
ولكن شوقي للعلوم وأهلها
فذاك مثير الشوق بين جوانحي
وذلك علم كان للدين معقلا
ففيه لعمر الله نور هداية
وفيه شفاء للقلوب من العمى
جزى الله بالخيرات جامع شمله
أتاه على حال تسوء لأنه
فماز صحيحا من عليل وأصبحت
سقي روحه سحب الرضى كل ساعة
وقابل بالحسنى خليفتنا الذي
يقيم له في كل عام محافلا
تدارسه الأعلام وهو إمامها
وإن وقفوا عند انغلاق عويصة
هو البحر لو أن البحار مقيسة
ولو أن نجم الأفق كانت مداركا
أقام لنا سوق العلوم فأصبحت
ورفع بين الناس أقدار أهله
وأعطى فما أكدي وحاشا جلاله
وعمت عطاياه البقاع كأنما
فلو أبرقت ريح الشمال وأرعدت
فلا جود فيما قد سمعنا لغيره
وكيف يضاهي من يجود بنفسه
فهذا الذي قد أدرك المجد والعلا
تسئم أثباج الزعامة فاستمى
وأركب خيل الله كل مدجج
كتائب خضر بالحديد إذا رست
تظن صهيل الجرد فيها رواعدا
أهاب بها الصقر الهمام محمد

ولا شادن قد حيل دون مزاره
علوم حديث المصطفى وشعاره
وحرقة قلبي من شرارة ناره
وخير سبيل يهتدى بمناره
لن ضل في ليل الهوى واعتكاره
وفيه حياة للنهى باعتباره
محمد الجعفي حامي ذمارة
تشابه فيها زيفه من نضاره
مجالسه تهني بجبر انكساره
ولا برحت مخضلة بانهماره
ألاح لسه بدرا بعيسد سراره
مزينه من حسنه واحتضاره
ويذهلهم بالفهم عند ابتكاره
أبان صوبا في مقال اختصاره
إليه لكانت نقطة لانفجاره
لخافت منالا من مشق غواره
مضاعفة الأرياح عند تجاره
فجرر كل فضلة من إزاره
وأغنى وأقنى من أتى لجواره
يروضها صوب الحيا بانتشاره
ورامت تباري كفه لم تباره
وإن ضرب الأمثال عند افتخاره
مهينا لها في الحرب أو في المكاره
صغيرا بحال فيه عجز كباره
إلى مستوى للعز تحت شفاره
يشن الردى فوق العدا بمغاره
على أرض قوم زلزلت بشراره
حداها نائم الريح عند اعتصاره
فجاءت كصقر في انقضاظ مطاره



مُسْتَقْبَلُ الْمَرْغُوبِ الْمَكْرَمِ بِالْمَعْرُوفِ بِالْهَوَا سِيرَ الْفُجُورِ مَعَ زَاهِدَةٍ قَامَ سَكِينَةُ الْمَمْشُوحِ لَهُ كِتَابُ الْإِيمَانِ وَرُحَى
 الْهَابِ عِنْدَ اللَّهِ الْكَبِيرِ الْفَجْعَةِ تَسْتَجَلِي مِنْ مَشْهُورِكُمْ وَرَسَدَ وَتَسْتَجَلِي مِنْ جَنْبِ غُرُوسِ لَنَا بَعْدَ
 اللَّهُ خَلَعْنَا عَلَيْهِ خَلْلًا مِنْ شَاءَ وَالشُّوْفِ وَخَلَعْنَا عَنْهُ مَلَأَ بِسَرَابٍ مَتْنَاءَ وَالْخُفِيفِ وَخَا سَبَلَاءَ
 عَنْ جَمِيعِ سَمَاءِ الْعَوَامِ وَأَدْنَى الْهَلَالِ جَانِبًا لَعَالِي بِاللَّهِ قَدَى الدُّرُومِ وَحَرَرْنَا لَهُ مِنْ جَمِيعِ
 الزُّكَايِفِ وَالْكَلْبِ وَافْرَنَا عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ مَضْرُوبٍ مِنْ سَلَمٍ بِحَيْثُ لَا يَسْلَمُ جَانِبُهُ سَوْدًا وَلَا
 عَضْمًا وَلَا يَتَامَ حَمَلُهُ خُسْبًا وَلَا ضَيْمًا رِغَانِيَةً لَتَجْلِيهِ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ وَمَلَا زَمَنَهُ خَدِيشًا الشَّرِيفِ مَنْزِلِ
 نَيْطِ بِهِ لَتَكْلِيهِ غَرِيرًا كَامِلًا شَا مِلًا يَشْمَلُ وَلَكِ الْهَابِ الْمُنِيرِ وَأَخَالَ الْهَابِ الْعَرَبِ وَصَمَرَ
 لِرَبِّ الْهَابِ الزُّوْبِ وَجَمِيعِ ذُرْمِ وَأَمَّا كُنْهِ وَمَسَاكِنُهَا وَتَعَالِيهِ وَأَمَّا كُنْهِ فَلَمْ يَكُنْ كَافِدًا
 عَمَّا لَنَا وَكَلَامًا لَمَرْنَا بِشَهْرِكَ وَأَعْمَالَهُ وَمَنْ رَجَعْنَا لَوَاهِمًا لَهُ صَدْرِيهِ لَمَرْنَا لَعَالِي بِاللَّهِ بِ 17
 رَجَبٍ لِمِ دَلْفَرَامِ عِلْمِ 1300
 اللَّهُمَّ اسْقِنِي الْغَيْرِ الْمَرْغُوبِ

شأنهم في غالب الأحوال عند طول العهد بتدويخهم بكثرة المحال التي تجوس خلال الديار، وتحول بينهم وبين التمكن من الاختيار، فلما ورد عليهم مولانا الخليفة السعيد أقبلوا إليه يزفون لما رأوا من حسن خلقه ومن طلعتة فوق ما يصفون، وأكثر مما كانوا يعرفون، فأدوا جميع ما توفر عليهم من زكوات أموالهم ومواشيهم وغللهم، فجمع تلك الجبايات التي لا تعد، ولا توصف ولا تحدد، فرجع بالسلامة والغنيمة، والسعادة الجسيمة، ووجد مولانا المظفر بالحضرة السلطانية المراكشية ففرح بوروده غاية الفرح، وأمر بركوب الجنود لملاقاته، والتهيؤ لمواقاته، فكان دخوله للحضرة موسما عظيما، وقدمه قدوما مباركا كريما، وكان مولانا نصره الله وجه أخاه مولاي عبد القادر يربط بالمحلة والعسكر على أهل الدير الذين أطلقوا الأئنة في مجال الفساد، لما سمعوا فساد الرحامنة بوساطة عنصر الغواية، والغى والطغيان أولاد بوالسبع، فإنهم منشأ كل فتنة، وقعت في الحوز من قديم الزمان، وكان السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله أخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، ثم تراجعوا في الفتن التي كانت بعد موته، وفي هذه أكثر، فإنهم أعوان لكل من أراد الفساد وضعف عنه، وإخوان لكل شيطان مريد يستعاذ منه، فهم الذين أشأموا متوكة حتى خربت ديارهم، وهم الذين أوقدوا نار الشياظمة فأحرقتهم نارهم، وكذلك مزوضة وجدميوة، فهم مساعير تلك الشرور كلها، ومصادر جميع الفتن قلها وجلها، وكان الذي أمسك زمام الأحكام السلطانية في هذا القطر وقطر سوس الذي وراء الجبل إنما هو القائد الأجل السيد الحاج عبد الله بن الرجل الصالح القائد السيد عبد الملك أبه الحاحي، فإنه ما بقي جانب من جوانب المغرب إلا مال، ولا قبيلة من القبائل إلا دخلها الزلزال، ماعدا قبيلته، والناس كلهم متشفون إليه، فلما رأوا ثباته واجتهاده في الطاعة، ولم يروا ازوراره ولا التفاته أمسكوا أعنتهم في الظاهر، حتى قدم مولانا نصره الله، فأمر نصره الله أخاه المذكور أن ينزل في سفح الجبل على رأس الحية الذين ظهرُوا في ذلك كل الظهور، وهم مزوضة وأولاد بوالسبع المجاورين لهم في البسيط، فنزلت المحلة هنالك نحو سنة كاملة، فكان ذلك من أكبر وجوه المكيدة، فكل قبيلة من تلك القبائل تظن أنها هي المقصودة، فتسارعوا إلى أداء ما وظف عليهم من المغرم، وهو شيء كثير، ولم يشغل

عليهم ذلك لأجل الخوف الذي خامر أجوافهم مع كثرة المؤن واللوازم لتلك المحال الكثيرة، والعساكر المظفرة الخطيرة، فلم تقم عليهم الجنود حتى أضعفوا قواهم، وأوهنوا مسعاهم، فرجعت المحلة سالمة بعد المدة المذكورة.

وفي عام ثمانين ومائتين وألف رجع مولانا المظفر نصره الله من مراکش لحضرة فاس، وأقام في مروره على قبائل تادلة بجنوده وعساكره المنصورة، حتى أخذ نيرانهم، وخلص من إذايتهم جيرانهم، وكانوا قد عتوا في الأرض عتوا كبيرا، فشبرهم الله سبحانه بصولة مولانا المظفر تشبيرا، فقبض من رجالهم الصناديد عددا كثيرا، وغرمهم الأموال الثقال، مع ذلك الاعتقال، ولم يرتحل عنهم حتى طهرهم وأنقاهم، ولولا المرباط البركة السيد ابن داود (15)، حفيد الشيخ سيدي المعطي بن الصالح ما أبقاهم، ثم لما بلغ السلطان نصره الله رباط الفتح أقام بالدار الجديدة، المباركة السعيدة، التي ابتكر بناءها، وجعل المحاسن كلها ساكنة أحوازا وأفناءها، وهي فيما بلغنا من أخوات البديع، بل تزيد عليه بالانفراد بالمحل الرفيع، الذي يشرف المقيم فيه بفضيلة الجهاد، ويرجو المفاز بالمشوية المنبجسة فيه بالغمام العهاد، وترفع فيه أعمال المقيم، الجاري على الصراط المستقيم، وقد أباح نصره الله الدخول إلى ذلك القصر السعيد، الذي يقرب منه كل أمل بعيد، لأعيان حضرة الخلافة من الوزراء والحجاب، وأهل المراتب والأتباع والكتاب، وكبراء الدولة من الأجناد والعساكر، وكل صالح وتال وذاكر، فأفاض عليهم الخيرات، وأنواع النعم والمبرات، فجعلها وليمة تجوس السعادة خلالها، وتلتزم البركة ظلالتها، فشاهدوا من تلك الآثار العجيبة ما بهر أبصارهم، وأوجب عن إدراك أوصافه انحصارهم، وقد أحسن مولانا نصره الله كل الإحسان في تعمير ذلك الثغر المبارك الذي هو سره البلاد، وغرة الفتح المبين عند الجلال، في جوار جده المجاهد الناصر لدين الله تعالى سيدي محمد بن عبد الله، فلو رأى رحمه الله ما شيده مولانا المظفر نصره الله لاقتضى منه العجب العجيب، وعلم أنه ترك الأمراء الفضلاء الأنجباب، وأن له زرعاً يغيظ الكفار نباته، وخلفا مثل

(15) ابن داود حفيد المعطي بن الصالح، وابن داود اسمه الشخصي وذلك لأن والدته من أولاد سيد ابن داود، فسمي بذلك تهركا، كان رحمه الله سالكا زاهدا متقيا ت 1307 هـ 1889 م بأبي الجعد، "الإعلام" ج 1 ص 193.

الجبال رسوخه في الدين وثباته، ولو حيي يعقوب المنصور الذي أسسه، ورأى ما صونه مولانا المظفر وحرسه، لقال الآن صار الرباط رباطا، وازداد دون غيره من ثغور الإسلام اغتباطا، لما أصبح للأسد الهصور عرينا، وأضحى لمدينة السلام قرينا، وأظهرت فيه الدولة المحمدية آثارها، ونشرت عليه الأبهة الهمامية نثارها، فصارت تحاكي المباني المحمدية المراكشية، والإسماعيلية المكناسية، إلا أنها تفوقها بأنها في محور العدو عتاد، ولسرادق العز الأثيل أوتاد، وعندها للبر والبحر صدور وأعجاز، ومنها إلى الشرق أو الغرب مجاز، فأجزل الله الثواب لأمير المؤمنين على حسناته، وبارك للمسلمين وله في حركاته وسكناته.

ولما استقر مولانا نصره الله بالحضرة الفاسية في ظلال السعادة وجه خديمه القائد محمد الشرقي ولد با محمد مع عامل سلا القائد محمد بن سعيد لجنس الفرنسيص لأمر اقتضاها الحال في شأن ولد حمزة ولد الشيخ بوسماحة القائم على الفرنسيص في عمالة الجزائر، فإنه شوش عليهم وروع سربهم فطلبوا من مولانا نصره الله أن ينظر كيف يكفه عنهم مع أنه ليس في ولايته ولا في إيالته، فوقع الكلام في ذلك بينهم وبين مولانا وتكررت الرغبات منهم، فوجه مولانا عامليه المذكورين لحسم مادة الكلام في هذه القضية، فذهبا لذلك ففرحوا بهما وأطالوا مكثهما عندهم في الكرامة التامة، وراجعوا مولانا نصره الله بالمكاتبة مرارا حتى انفصل الأمر على الوجه الجميل، فرجع الوفد مقضي المآرب، ثقال الحقائق، وذلك عام اثنين وثمانين ومائتين وألف.

وكان مولانا المظفر نصره الله لما صدر عن مراكش ترك ولده البار، المتوج بالمهابة والإكبار، أبا على مولانا الحسن خليفة، فنهض بأعباء ما حمل، وهو بأثواب السعادة مدثر مزمل، ولاحت عليه من رضى والده المنصور المظفر أنوار، فلم يتعاص عليه من الإيالة أنجاد ولا أغوار، مع اختلاف الأحوال وتعاور الأطوار، ولم يشغله شئون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا ما في قصوره السلطانية من الحداثق والأنهار المطردة والأزهار، عن وظائف الدين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، وكما حدثني بذلك بعض بطانته، وقال إنه يجد لذلك في الخلوات

لذة وحلاوة، وهذا من عطاء الله تعالى الذي لا يدركه الإنسان إلا بالسابقة الأزلية، لا سيما في سن الحداثة الغالبة الطبيعية، والانغماس في الترف والرفاهية، فسبحان وأهب الأرزاق الحسية والمعنوية.

ومن أدب مولانا الخليفة المذكور مع والده المظفر أنه لا يبرم شيئاً مما جل أو قل من أموره إلا بعد المشاورة مع أنه مفوض له كل التفويض في جميع الأمور، ومراده بذلك أرضاء الله ألا يصدر منه ما عسى يغير خاطر والده نصره الله في الباطن وهو لا يعلم، وهكذا كان مولانا المظفر نصره الله مع والده المؤيد لا يقضي قضاء إلا بأمره مما هو بصدد، فجعل الله جزاءه من ذريته الطيبة وأفلاذ كبده، وكذلك لا يجني إلا ثمار ما غرسه الإنسان، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وفي شوال من عام اثنين وثمانين ومائتين وألف، مرض مولانا المظفر نصره الله مرضاً شديداً حتى وقع الخوف عليه، وتوهم من يباشره أن الأجل متسرع إليه، وسبب تلك الخشية، أنه أصابته غشية، ثم أفاق بعد مدة قريبة، وتركت به حالة مريبة، فأفرق من دائه وهو شديد الوهن، مع تحقق السلامة وانفكاك المرتهن، فلم تزل العافية تنزل بمولانا على سبيل التدرج، والنفوس تنبسط بتيقن التفريج، حتى كملت بحمد الله قوته، واضمحلت علته، وفرح كل مؤمن صالح باستقلاله، واستمر كل شيطان مارد في أغلاله، وقد كان الناس أشرفوا على هوة الإتلاف، وهم كل متفق بالاختلاف، وأشرأب أهل الذعارة إلى معاودة عوائدهم، والنفخ في جمارهم الخامدة في مواقفهم، وفرحوا بما أصاب مولانا نصره الله من المرض واعتراه، وأرجف كل مرجف واختلق ما يوافق هواه وأفتراه، حتى رجت الأرض رجاً، فلم يخص ذلك الهول موطناً ولا ترك فجاً، وصار الناس كمن أظلم ليله، وأعصفت رياحه، وهم بالانطفاء مصباحه، فلما تفضل الله الكريم على خليفته بملايس العافية، عادت الموارد المتكدرة صافية، وقرت النفوس بعد انزعاجها، واستقامت الأمور من اعوجاجها، وانكمشت ضباب النافقاء في الأنقاب، خوف الصيال من أمير المؤمنين والعقاب، ولما ظهرت من علة مولانا نصره الله أمارات الإفراق والإبلال، وإقبال الصحة وانهزام الاعتلال، كتب حجاب الحضرة المولوية لخليفتنا المستنصر مولانا الحسن

بمراكش يبشرونه، ويهنتونه بسلامة مولانا المظفر ويسرونه، فلما وردت الرسل بذلك أمر مولانا الخليفة أعزه الله تعالى بإخراج المدافع والأنفاض، فشاع بذلك خبر سلامة مولانا وعافيته واستفاض، فلم تزل المدافع تخرى حتى اهتزت الجبال الرواسي، ولانت القلوب القواسي، فقام الناس كلهم إلى إقامة النزاهات والأفراح، وكل موجب للتبساط والانشراح، طائفة بعد طائفة، وقبيلة بعد قبيلة، وكان مولانا الخليفة أعزه الله هو الذي ابتدأ بذلك وانتهج سبيله، فإنه دعا الناس الدعوة الجفلى، فلم يتخلف ممن حضر بمراكش أحد من العقلا، فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان، ففتحت أبوابه، وفرشت قصوره وقبايه، وفجرت أنهاره الدافقة، حين فاحت أنواره العابقة، وضربت فيه المضارب السلطانية، التي هي من أبهى زينة الحياة الدنيا الفانية، فحضرت وجوه الدولة وأعيانها، ورؤساء القبائل وريائها، وكان ذلك باثر عيد الأضحى قبل انفصال من حضره من العمال وغيرهم، ومن قدم بعده باثرهم، بأمرهم أو بغير أمرهم، فلما حضر ذلك الجمع الجفيل، الشبيه بالسيل الجفيل، أنزل كل واحد بالمحل المناسب له، فامتلاً ذلك الجنان المتسع حتى عم الازدحام فجاجة وسبله، ثم اندفقت عليهم من الدار المولوية سيول موائد الطعام الفاخر، ما عم الأول منهم والآخر، حتى صار في جميع الرحاب تدوسه الأقدام، وتكنسه الوزعة والخدام، هذا للعامّة المطلقة، والأوزاع الملفة، وأما الخواص والوجوه، ممن يأمله الأمل ويرجوه، فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بزائد الترحيب وصريحه دون كناية، بالفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطبقة، والرش بمياه الأزهار، ومباخر الطيب، وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، ومسمع لذيذ، وموطئ رطيب، وقد أحضر كل أحد ما شاء من آلات اللهو والطرب والفرح، على حسب ما اشتهى واقترح، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني، إلا أصوات المثاني، والمثالث وأنواع الأغاني، فلم يبرح الناس الخواص والعوام في ذلك الازدهاء ثلاثة أيام، ومولانا الخليفة أعزه الله مع إخوانه وبني عمه في القبة المحمدية الصورية، المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها، ومطاردها ومضامرها ومتاعبها، وفي كل عشية يركب من بالحضرة على عتاق الخيل المسومة، والصافنات الجياد المقومة، وقد لبس كل من فرسان ركابها زينت المدخرة، وما تضمنته خزائنه مما أعده للأيام التي يبرز فيها

مفتخرة، فلما انفضت هذه النزهة الشريفة، ذات الأظلال الوريقة، شرع أحد عاملي الرحامنة في مثل ذلك، فبالغ حتى جاوز مقدوره، فأعد جفانا كالجوابي، وقدر كالروابي، فدعى الناس دون تنكير، ولا تعظيم لأحد ولا تحقير، فأفاض عليهم المطاعم البدوية، التي لا تكاد تقدر عليها أهل الحضرة، ويكفيها عند الاحتجاج، ما فعل في وليمة الحجاج، ثم تتابع الناس في نزاهاتهم، وإظهار أبهاتهم، وانتخاب دواعي الأفراس، ومقتضيات الازدهاء والانشراح، فما يمر أحد ببستان ولا حديقة، ولا روضة أنيقة، إلا ويرى أو يسمع جماعة زاهية، أو طائفة منبسطة لاهية، وهكذا سمعنا عن الحضرتين الفاسية والمكناسية، وأنه عم ذلك كل ذي كف سيالة كاسية أو جاسية، ولم يخص عارية ولا كاسية، فرحا بشفاء مولانا الإمام، أدام الله عزه وعافيته لحماية الإسلام، وكان مرض مولانا المظفر نصره الله خفيفا في التصوير، وإن كان خطيرا في المصير، لو كانت المباشرة لفحول الأطباء المهرة، والأساطين المشتهرة، والمرض المذكور فيما بلغنا إنما هو المسمى بالخلأقم، وهي نوعان : ظاهرة وباطنة، وكلاهما أمر من العلاقم، والظاهرة أخف من الباطنة، الخفية الكامنة، والأولى يكفي في علاجها الترطيب لورمها الظاهر عند اللمس بالاستحجار، وأما الثانية فإن بحرانها بالانفجار، ولما كان خفيا لا تدركه أدوية الإنضاج، كان أكثر شدة عند إرادة الإدخال في الخلق والإخراج، ولذلك كان داء خطيرا، وعارضا عسيرا، وكثير من الناس يعتره كثيرا، وكان أخونا في الله الفقيه العلامة الوزير لسان الدولة ابن إدريس في أول أمره أوان ترددده في مجالس التعلم يكاد أن لا يمر عليه شهر من الشهور إلا ويصيبه، وينفجر له من داخل بعد أسبوع لكن لا يمر ذلك الأسبوع إلا وقد أشرف على الهلاك، فأضر به ذلك في ذاته غاية، ثم إنني رأيت ابن الهندي ذكر في كتاب الرحمة دواء ذكر أن من استعمله يشفى منه ولا يعود إليه أبدا، فأوقفت عليه الوزير المذكور فاستعمله فلم يعد إليه بعد ذلك، وكان كدواء المسيح، وكذلك جرناه لكم من واحد فلم تتخلف تلك الخاصية المذكورة، وهو أن تذبح دجاجة وتؤخذ مرارتها ويحتفظ بها ثم تطبخ الدجاجة فإذا نضجت أخذ من مرقها فتفرغ فيه تلك المرارة ويشربها العليل مع ذلك المرق انتهى.

هذا وقد كان الملوك الذين أدركناهم أو بلغنا خبرهم من هذه الدولة الشريفة وغيرها لهم العناية التامة والاهتمام الزائد بالعلماء الأطباء أكثر من غيرهم، وكانوا يلزمونهم حضرا وسفرا، ويتفقدون أحوالهم صباحا ومساء، ويستخبرون من طبائعهم ومشاكلهم ومشاريهم ومناكحهم ومضاجعهم، فيصلحون ما حضر من ذلك، ويستدركون ما فات عن قرب ولايتنا في هذا التوكل على الخالق المنفرد بالتدبير، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، (16) وقد شرع سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم التداوي، وكان يستعمله في نفسه، ويأمر به غيره، حتى قيل إن القدر التي تطبخ فيها أدويته عليه السلام لا تكاد تنزل عن النار، وذلك تعليم وإرشاد منه عليه السلام لأئمة المرحومة، وأخبار الملوك القدماء وإن كانوا أئمة علماء مع أطبائهم معروفة من محاسنهم كأبي جعفر المنصور، وولده المهدي، وولده الرشيد، وولده المأمون وغيرهم من الدول السالفة، وكذلك دولتنا هذه المباركة الشريفة، فإن أبا السلاطين مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى كان لا يفارقه طبيبه العلامة الحكيم السيد عبد الوهاب أدراق الفاسي، (17) وكانت له مكانة عظيمة لا تدرك لغيره، بحيث لا ترد شفاعته، ولا تهمل إشارته، وكان مضربه ومنزله في الأسفار أعظم من مضرب أكبر العمال، وكذلك السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله، وكان له بذلك اعتناء زائد أكثر من غيره من الملوك السابقين، لأنه رحمه الله كان إذا سمع خصلة من خصال أعظم الملوك لا يرضى لهمة إلا أن تأتي بمثلها أو أحسن منها، وكان من شأنه أن يبعث للفرائلية من بر النصارى إدالة في كل ستة أشهر، فينزل بعضهم بحضرة مراکش، وبعضهم بمكناس، وبعضهم بفاس، وأما في الشغور فأحرى، وجعل لهم مالا عظيما يصير عليهم في جميع ما يحتاجون إليه في أدويتهم وأوعيتها وأوانيها التي تعطى فيها للمرضى، وكل من أصابته علة ذهب إليهم فيعطونه ما يليق به من الأدوية مجانا، فإذا مضى ستة أشهر رجعوا لبلادهم وجاء بدلهم، هكذا حدثنا من شاهد ذلك من أهل وقته رحمه الله تعالى فلينظر الناظر ما أشد عناية هذا السلطان العظيم القدر رحمه الله تعالى بالمسلمين، وأما طبيبه الخاص فهو

(16) حديث الداء والدواء إشارة لعنى حديث صحيح مروي لدى البخاري والترمذي وابن داود في اللفظ.

(17) الطبيب عبد الوهاب أدراق تقدمت ترجمته.

الفقيه السيد أحمد أدراق (18) وليس من ذرية الحكيم السيد عبد الوهاب المذكور، بل هو من قومه وقبيله، وكان هذا القبيل في فاس من قديم الزمان، لهم الرياسة في هذه الحرفة، وكانت منزلة السيد أحمد أدراق المذكور عند السلطان سيدي محمد عالية البناء، في براج الاعتناء ملازما له في جميع حضراته، يطلع كل بكرة وعشية، فيفتقد أحوال السلطان وأحوال من يحتاج إلى ذلك من أهل الدار المولوية، وكان يحمل رامتة في الأسفار على أزيد من ثلاثين من البغال، وكان السلطان في حركته لتأدلة أصابه مرض شديد في القصبة التي على أم الربيع، وكان طبيبه المذكور يباشره حتى أفرق من علقته، وعأوده ما عرف من صحته، فأعطاه ألف دينار وقال له : هذه دية المسلمين الأحرار فقال له الطبيب مباسطا ياسيدي هذه دية مطلق الناس، يعني لا دية عظماء الملوك، فزاده ألف دينار أخرى، ولما نقل الزباني هذه الحكاية ترك هذه الجملة الأخيرة، وهي قول الطبيب مع الزيادة المذكورة، ثم حكى ما وقع لأمر المؤمنين يعقوب المنصور الموحد مع طبيبه ابن زهر (19)، وهي معروفة مشهورة، قال بعضهم إن الزباني قال له : والله ما ذكرت هذه الحكاية عقب ما وقع لأدراق مع سلطاننا إلا ليعلم ما بين السلطانين من درجات الكرم والبخل انتهى، فانظر إلى هذا الظالم كيف يقول مثل هذا في مخدمه الذي تراب أسفل نعله أشرف من عشرة من مثل يعقوب المنصور، ولكن مسك السوء لا يعجز عن عرف السوء، ومرادنا ببسط الكلام في هذا الفصل تنبيه مولانا أمير المؤمنين المظفر نصره الله وبارك في عمره، وإيقاظ لاهمه العالية إلى الاعتناء بهذه الخطة، فإنها > في الزمان الأول والدول السالفة كان لها غاية التنويه والتشريف، حتى إن العامة كانوا يقولون لما مات صلاح الدين بن أيوب وكان طبيبه غائبا لو أراد الله بقاءه ما غاب طبيبه، قال ابن خلكان ما نصه : وكان من

(18) الطبيب أحمد أدراق تقدمت ترجمته.

(19) ابن زهر وذكر حكايته مع يعقوب المنصور : ابن زهر أشهر من أن يعرف، له ترجمة حافلة، تعرف من مصادرها، وبراكش 595هـ 1198م ودفن بروضه الأمراء، أما حكايته مع الخليفة يعقوب المنصور الموحد، فله معه مواقف عظيمة، وقد قرره إليه قربا بلغ الغاية القصوى في الاعتناء بشأنه وأغدق عليه من المطايا ما يعجز عن الحصر، ومن ذلك قضيته التي أشار إليها صاحب "الاستقصا" حيث تذكر ولده وسكنه بإشبيلية، فأمر الخليفة بإرسال مهندس لياتوا بخريطة سكناء من إشبيلية دون علمه، فجاءوا وأمرهم ببناء المسكن براكش على هيئته وشكله، ونقل إليه أسرته، فقبل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. "الكلمة" ج 2 ص 555 "الاستقصا" ج 2 ص 180 "الإعلام" ج 4 ص 134.

أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفرا وحضرا انتهى، والدليل على أن العادة السلطانية كانت ملازمة الطبيب لباب الملك حضرا وسفرا قضية أمير المؤمنين يوسف بن عبد المومن لما سأل عمن بالباب من الأصحاب فقليل له إنما فيه الطبيب سعيد الغماري (20)، والوزير الأعظم أحمد بن عبد السلام الجراوي، (21)، فقال السلطان سبحانه الله من العجائب طبيب غماري، ووزير جراوي، فلما سمع ذلك أحمد بن عبد السلام المذكور قال : وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، أعجب منها خليفة غومي فبلغ ذلك السلطان فحلم عنه عبد المومن ولم يواخذه، لأنه كان رئيس دولتهم وإمامها ومعهدها، وكان خدام عبد المومن وولده يوسف هذا، وولده يعقوب، وهو مؤلف صفوة الأدب وديوان العرب (22)، المتكفل بمآثر دولة الموحدين، ذكرنا هذه الحكاية لغرابيتها (23)، وأما في هذا الزمان فقد أهملت وتنوسي اعتبارها في الحضرة السلطانية، وليس المراد مطلق من يدعى طبيبا من الجهيلة الذين يأخذون المسائل من الأوراق، وهو لا يكاد يحسن تهجي الحروف، فإن هذا يجلب إلى الاصحاء كل داء، كالذي أبدل الحبة السوداء بالحبة السوداء (24)، ولكن المراد الذي يناسب الحضرة السلطانية إنما هو المهرة الدهاء، لا من يبهرج بالترهات، بل ينبغي أيضا أن يكون الإمام له اطلاع على أمهات مسائل هذا العلم، كتحقق أشخاص الأدوية المفردة، ومقدمات العلم وجملة الكلية، وطبائع المطعومات المتداولة، حتى لا يفتر بأقوال كل أحد، وخصوصا فيما يخص ذاته الشريفة، مما يوكل أو يشرب، وهذا القدر هو الحامل للإمام المازري (25) رحمه الله على تعلم الطب حتى

(20) سعيد الغماري : الطبيب الماهر، وهو مع الجراوي صاحبا القصة الطريقة مع يوسف بن عبد المومن الموحدي، المذكورة في التاريخ ت 585 هـ 1189 م المن بالامامة ج 2 ص 482 تعليقا، "وفيات الاعيان" ج 6 ص 136 "مظاهر النهضة الحديثة" لعبد الهادي أحمد الحسين ج 1 ص 154.

(21) الجراوي، سبق ترجمته في أول الكتاب لدى ذكر المؤلف مؤرخي الدولة الموحدة.

(22) المعروف أن صفوة الأدب مجموعة أشعار ضاهى بها الجراوي حاسة أبي تمام.

(23) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ك) و (ف) وسقط جله من (م) أيضا.

(24) هو توما الحكيم المذكور في أبيات أبي حيان الأندلسي التي يقول فيها :

يظن الغمر أن الكتب تهدي	أخسا فهم لا دراك المنسوم
وما يدري الجهرل بأن فيها	غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رميت العلوم بغير شيوخ	ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى	تصير أضل من توما الحكيم

(25) المازري محمد بن علي بن عمر التميمي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالإمام ت 556 هـ 1160 م "الديباج" ص 279 الشجرة الزكية ص 127.

مهر فيه لما كان أصابه مرض وكان يباشره طبيب يهودي فقال له : ياسيدي أما تخاف من معالجة مثلي لمثلك، وأي قرية هي أكبر في ديني من إتلاف مثلك للمسلمين، فتنبه الإمام المازري لذلك واشتغل بالطب حتى دون فيه كتباً نافعة.

وفائدة الطب هو حفظ الصحة الحاصلة حتى تبقى على صاحبها إلى الأجل المسمى، وأورد الصحة الزائلة حتى تعود إلى حالها الأول، وثمره ملازمة الطبيب كل يوم أن الإنسان يصدد تغير الأحوال عليه وتبديل حال بحال آخر، لأن دوام الحال من المحال عند المتكلمين، لأن العرض لا يبقى زمانين، والصحة لا محالة أنها عرض من الأعراض، فإذا تبدلت الأسباب المقتضية للصحة ظهرت لها أمارات في ذات الإنسان، يجدها كل عاقل فطن، فيخبر الطبيب بذلك فيدله على ما يقابل ذلك التغير حتى يرد الطبيعة إلى مجراها المعتاد، فتبقى الصحة محفوظة، هكذا كل يوم يخبر الطبيب بما ازداد عليه أو نقص، وهذا المهيع لا يشك في أن من سلكه يجد بركته في حفظ الصحة عليه إن كان معلمه عالماً صادقاً في علمه، وكان المتعلم لا يخالف أمر معلمه فإن قيل : هذا يقتضي أن الملوك الذين لهم أطباء حكماء يتعاهدون أحوالهم على المنهاج المذكور لا يمرضون، ونحن نرى أكثرهم يمرض، بل ربما كان يسرع المرض إليهم أكثر من غيرهم، فالجواب أننا شرطنا في طول الصحة طاعة المطبوع لأمر الطبيب وعدم مخالفته، والغالب على الملوك كونهم مغلوبين لشهواتهم مع كثرتها عندهم في كل حين، وحضورها لديهم، وتيسر وجودها عليهم، ومن كان هكذا حتى من السوقة تغلبه نفسه، فلا يقدر على كفها عن شهوتها، وهذا يجده كل أحد من نفسه، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء» (26)، وهذه الكلمة الشريفة جمع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما دونه الحكماء في دواوينهم على كثرته، وهو مضمون ما ذكرناه في مشاورة الطبيب وطاعته فيما يأمر به، وهو أمر شاق على النفوس الغالبة كما ذكرنا، ومن أقدره الله على مغالبة نفسه، ومدافعة هواه جنى ثمرته، ووجد لذته، والله على كل شيء

(26) حديث : (المعدة بيت الداء)، لا أصل له، إنما هو من كلام بعض الأطباء كما نص على ذلك السبرطي في "الدرر المنتشرة" والمجلوني في "كشف الخفاء" ج 2

قدير، ومما يدل على صحة ما ذكرناه أن الحكماء والفلاسفة الذين جاهدوا نفوسهم حتي ملكوها ولم يبق لها تصرف في أرواحهم، بل صار الحكم للأرواح تطول حياتهم وتقل علمهم وعاهاتهم، وربما عاش بعضهم المئين من السنين كما هو مذكور مشهور عند نقلة الأخبار.

ولما فرغ الناس من نزاهاتهم فرحا بشفاء أمير المؤمنين وجه كل أحد من العمال والقبائل وفودهم وهداياهم لحضرة مولانا للتهنئة بما منحه الله من الإبلال، والمعافاة والاستقلال، والتخليص لذلك المقام العالي، المتوج بتاج الجلال، وكنت نظمت في التهنئة له أعزه الله تعالى هذه الهمزية لما ورد الخبر بشفائه :

ورمى إساءته وراءه وراء
متضمن لمسرة غراء
جاء البشير به من الأنبياء
متبلج عن مأمّن وهناء
وتبخترت في بهجة وبهاء
كالصبح ينسخ سدفة الظلماء
مهج النهى وجوانح الأحشاء
عم الوجود بسابغ النعماء
قد عسم بسالآلاء والآلاء
قمر الدجا وكواكب الجوزاء
بردا على أحشائنا الحراء
لعب النسيم بسرحة غناء
كأس مروقة من الصهباء
نفسي وأنفس سائر الكرماء
وافيت للأسموات بالأحياء
ماء الحياة يسير في الأعضاء
ملك الممالك كعبة العلياء
ورست به الأعراق في الخلفاء
ويطول فيه المدح بالإطراء
شكواه حتى ارتج كل بناء
كانت مروقة ذوات صفاء

جاد الزمان وجاء بالسراء
وافى كتاب في يمين مبشر
فلثمت وجه الأرض من فرح بما
نبأ شهى للنفوس سماعه
لبست به الدنيا لباس جمالها
ونفى عن الأرواح كل كآبة
ضأت به الأرجاء وابتهجت به
يا برد مورد ذلك النبأ الذي
يا برده بيسن الجوانح مخبرا
وازداد نورا في مطالع سعده
ورد البشير به فكان وروده
ولذا فرحت فرحت أرقص مثلما
أو كالذي سلبته ثوب وقاره
قل للبشير فدتك يابن مكرم
ويقل شكرك يا بشير وأنت قد
بشرتنا بشفاء من بشفائه
يشفاء مولانا الإمام محمد
ملك نعمت في الأنبياء أصوله
وخطى الملوك الصيد تقصر دونه
لما اشتكى سارت إلى كل الورى
وتكدرت كل المشارب بعدما

فاليوم قد جبر الإله بفضله
واسترجع الأرواح من أشباحها
وأضياء مصباح الخلافة آمنة
هذا أمير المؤمنين مسلماً
والله ذو فضل عظيم قد حبا
وأباحه صفو الحياة وطيبها
فله الهنا كل الهناء فذاته
وله البشارة أن تطول حياته
حتى يشيد للفقار مبانيها
ويزاد في عمر الخلافة مثلما
فالحمد لله الذي أطاقه
والحمد لله الذي لم يبلنا
عكس الإله بفضله آمالهم
كذبت ظنونهم التي يرجونها
واغبر منتجع العدا فرياحهم
بيننا هم يتضحكون إذا هم
فلنا الهناء معاشر القرباء قد
وضعت لنا الآمال تعبق مثلما
لا زال مولانا تضاحكه المنى

صدع الوجود وزال كل عناء
ما كان منتسباً إلى الأعداء
لا يختشي أبداً من الإطفاء
ومبرأ من سائر الأدواء
سلطانه بعد الضنى بشفاء
فحياته متبواً السراء
خلصت خلوص التبر بعد صلاء
في ملكه ذي العزة القعساء
لم يبتها أحد من العظماء
زادت مآثره على الأمراء
معلومة بالكشف للضراء
بشماتة الحساد والأعداء
وجزاهم بفجساء البأساء
وكذا الظنون كواذب الامسلاء
نكبت بإعصار بعيد رخاء
في مآتم يا ويلهم ويكساء
فض القضاء معاشر البعساء
عبق الأزاهر غب جرى الماء
منصورايات رفيع لنواء

ثم رفعتها للحضرة المولاوية مع وفود التهاني، ترفل في حلى أنصع
المباني، وحلى أحاسن المعاني، تأمل وترجو من مولانا القبول وبلوغ
الأمانى.

ومما رفع لحضرة مولانا الخليفة الأسعد، المبارك الأمجد، مولانا
الحسن أعزه الله تعالى تهنئة الفقيه العلامة التحرير القاضي أبي عبد الله
سيدي محمد الطيب بن محمد التاملي الرداني (27)، حفظه الله وهي :

(27) محمد التاملي الرداني نكتفي عن ذكر ترجمته بما نص عليه في الجيش بتعليقه الحافلة التي منها ذكر قصيدته الحانية
الرائعة.

وترجمه الأستاذ المختار السوسي في كتابه "رحلات العلم العربي في سوس" ص 111 حيث قال : عالم جيد كبير أديب حسن الآثار،
ذو يد طولى في الفن، وهو أرحم نزيه وتولى القضاء بعد والده في تارودانت، وعنده أشعار ت 1282 هـ 1865 م.

غرام يفوت الحد والوصف والشرح
وتبريح شوق أرق العين فهي من
ولاعج حب أضرم النار في الحشا
نشأ ذاك عن زهر الرياض وطيرها
تحض على خلع العذار ذوي الهوى
ليفتنموا الوقت الذي طاب منه وال
ويقتطفوا ورد الحدود مفتحا
فكم قد دعا فصل الربيع وزهره
وكم بين محبوب نفسور وحبه
دعاني فيمن قد دعاه بلطفه
وقلت له لا تطيبنني محاسن
فلي همة لا أرتضي أن أحطهسا
أخاف عليها أن تشاب بغير من
ومن ملكت أثاره الناس كلهسم
فتى جمعت فيه المحاسن مفردا
إذا حسن اسمه الشريف جرت به
فقد حسن الله اسمه وفعاله
خليفة مولانا الإمام ونجله
ترشح في حال الصبا لتحمل ال
له اليمن عين والسعادة ساعد
تمهد سوس منذ ولي أمسه
فقد سار في تهذيبهم خير سيرة
وما احتاج في تمهيدهم غير رأيه
فكم هزم التدبير والرأي عسكرا
وكم كف كف الجور والبغي عدله
فيا سيدا يغني العفاة تكرمسا
ليهنك والأنام بسره إمامنا
فإن سلامة الإمام سلامة
أدام الإله عزه ويقساه
ويهنك بالمجد السعيد وبالرضا المد
تؤمك أشتات الوفود تقربسا

ولحظ جرى دما من أحشائي الجرحى
دواعي الهوى ماتعرف الليل والصباح
ولم يطفها ويل العيون الذي سحا
وقد خطبت في بانها الخطبة الفصحى
إذا الشمس حلت من منازلها النطحا
نسيم العليل والهواء الذي صحا
ويرتشفوا ثغرا بمسك زري نفحا
نفوس كرام فاستجابت له فرحى
سعى لطفه يوما فضمهما صلحا
فأضربت عن داعي القبول له صفحا
أتيت بها فليلحنني فيك من يلحى
لما يقتضي من حالها اللهو والمزحا
جوانحنا من حبه قد غدت طفحا
فمن مبتغ منحا ومن متسق رمحا
خصوصية فاستوجب الحمد والمدحا
منا طقنا ازدانست به سائر الأنحا
وحقق في معناه ما يعجزه الشرحا
وعمدته فيما يروم له نجحا
خلافة فاستعلى من أطامها الصرحا
ينيلانه التيسير والنصر والفتح
مع الحوز حتى صار أهلها مرحى
فنالوا بها الريح الذي أعظم الريح
وتدبيره لا العاديات بها ضبحا
ولم يغنه أن أعمل السيف والرمحا
وكم وكفت كفاه للمعتفى سحا
عليهم كما يقنى العداة إذا أنحى
وعافية أضحت لمغربنا روحسا
لكل رعاياه وأعظم بها ربحا
وعوضه من كل ما مرض صحا
زيد وإدراك المنى عيدك الأضحى
إليك فتوليها المبرة والمنح

فطوبى لمن أمسى ليومه شاهدا
لئن عاق عبد الدار عن ذاك بعده
وزف إلى ذاك الجناب خريـدة
عسى أن ترى منه بعين الرضى إذا
فإن ترضه أو يرضها فاز قدحها
على أن در مدحها لك زانها

هناك مشاهدا محياك أو أضحى
فقد زاره قلبا وإن لم يزر شبحا
مخدرة عن غيره قد طوت كشحا
تأملها خيرا وحققها لمحا
ولم يلف فيها ناقد عيبا أو قدحا
فإن نقصت فصحا فقد كملت مدحا

«وهذا القاضي عين أعيان زمانه، لا خصوص قطره وبلده، قد أدرك
المجد يافعا قبل بلوغ أمده، محتده كريم، ومفخره عظيم، ومحاسنه في جيد
الزمان لؤلؤ نظيم، تحلى بالأدب الظاهر، والفضل الباهر، والكرم الذي صار
به حاتم أيامه، وتدين به في قعوده وقيامه، فاتفقت القلوب على حبه،
والألسن على امتداحه، لدينه وحسن خلقه وسماحه» (28).

ومما رفعت لحضرته نصره الله في بعض أعياد الفطر عند ختمه
للصحيح الجامع هذه الميمية الكاعب العذرا، التي هي بالتقدم أخرى، وهي :

حديث الحمى يهتاج منه غرامي
أعيدوا على سمعي محاسن ذكرهم
ولا تنكروا مني حنينا إليهم
ألا حظهم خلف النوى ثم أنثني
سقى الله صوب الغيث أو بمدامعي،
وإن بخلوا حتى بطيف خيالهم
فكم ظمأ بين الضلوع أجنه
ولا اتناسى ما حييت معاها
أقمت زمانا عندها بمسرة
وغالبت ريب الدهر فيها على المنى
وقضيت فيها العيش غضا كأنما
هوى سلب الأيام غير ادكاره
وحق المعالي حلفة لا يبرها
لشد الذي نالته مني صبابتي
رضيت بدين الحب لا أبتغي به
ولا أختشي كيد الليالي وأهلها

ومن بان عند البان فيه مرامي
وماذا عليكم في ارتداد كلامي
فإن حنين الصب غير حرام
بأربعة مثل الغمام سجام
أباطح حلوها وراء أكسام
يمر سرارا في ضمير ظلام
إلى ظبيات في الصريم ظوامي
مخضلة يتل منها أوامي
بنجد وقد ساء الغيور مقامي
فلم تتكدر صبوتي بسلام
أعير ازدهاء الروض غب رهام
فتعلو له الأنفاس وهي حوام
على لغب إلا نفوس كرام
ولذ لقلبي شقوتي وهيامي
بديلا وفي حبي فضضت لجامي
ولا أتقي منهـن رمية رام

(28) ما بين العلامتين سقط من (ك) و (ش) و (ل).

فلي عدة للحادثات أعدها
سأنزل من عليائه كل حاجة
وأطفئ إن شب الخطوب ضرامها
وجيئه مهيب كلما لاح وجهه
أغسر المساعي توجته جلالته
محجب أفناء إذا ما ذكرته
وإن تدع يوما باسمه لمهمة
يفيض النداء من راحتيه على الورى
فتى لا يسير الدهر إلا بسيره
تشاهده بدرا تكامل حسنه
إذا ركب ارتجت له الأرض كلها
يجاذب أطراف الأعنة واطنا
إذا مال قوم للضلال وأوغلوا
رماهم بعقبان عليها ضراغم
وروى غليل المشرقية منهم
وطهر دين الله من كل فاتن
فما زال بالبيض الصفاح وبالقنا
ويحيي من الآثار ما كان دارسا
فأجرى من الأنهار ما روض الفضا
وفجر في القفر المهامه أبحرا
تفيض فتغني الأرض عن واكف السما
فهبت به الآمال بعد ضياعها
أيا سيدا لم يبق فخرا لسيادة
فلله مجد أعجز النجم دركه
بقيت لنا ما لاح في الأفق كوكسب
تقسم لنا في كل عام مواسما
وأعظمها قدرا وأحسن منظرا
ختام الصحيح الجامع الحجة الذي
تحكمه عند الحكومة مثلما
فمن نوره الوضاح تقتبس الهسدى

محمد نجل المالك بن هشام
إلى ماجد رجب الشناء همام
بنجسل أمير المؤمنين ضرامى
تلفع رغما أوجه برغام
تغض لها الأبصار وهي سوام
ذكرت ربيعا مستهل غمام
وجدت مثال الرغب حول ثمام
تفيض نائسي الحجزتين ركام
يقادله طوعا بغير خطام
إذا ادرع الفرسان ليل قتام
بذي لجب جسم الصهيل لهام
على جثت للمارقين وهمام
وأغواهم طفيان كل طفام
سيوفهم فيها مدب حمام
وحكم في الأوصال كل حسام
وأبرأه من علة وسقام
يدافع عنا دائما ويحامى
تعاظم عن إدراك كل امسام
وأبدت فيه الأدواح حسن قوام
توج بأحلى من كئوس مدام
من المزن رجاف الرواعد همام
لدى معشر عن رعيهن نيام
شيوخ وقد أضحى بسن غلام
أحلك أعلى ذورة وسنسام
وما جاء فطر بعد شهر صيسام
ذوات وجوه للوفود وسام
جلوسك للإقراء يوم ختام
رميت إلى احكامه بزممام
تقوم بحكم الوحى خير قيسام
وترمي به نحو العدا بسهام

فنورك نور الله ليس بمنطفئ
وأهدي إلى مشواك مني يشائرا
على وجهك المحمود في كل موطن

وسيفك سيف الله غير كهـ
دواني قطاف في بديع نظام
صلاة من المولى وأزكى سلام

ساقية الجيش العرمرم، الغالب المظفر المغنم(*) في أركان الملك ودعائمه، وأوتاده وقوائمه

اعلم أن للملك أموراً لا يقوم إلا عليها بناؤه، ولا يستنتج إلا من مقدماتها هناؤه، وأموراً يكمل بها حسنه ورواؤه، وينصع بها بهاؤه(*)، ويشرق بها ضياؤه، ومجموع القسمين هو المستفاد من هذه الساقية، وإليها يوجه الاعتناء مساقه.

أما القسم الأول : وهو ما لا يقوم الملك إلا به، وهو أولى ما تنصرف إليه أولاً إلى استجلابه، وهي أمور سبعة : العدل، وحسن السيرة، وحسن النظر(**)، وذكاء الفطنة، والمشورة، وتدبير الحرب، وجباية الأموال، وهذه الأمور كلها في الحقيقة ترجع إلى السياسة.

وأما القسم الثاني : وهو الأمور التي يكمل بها حسنه، فالشجاعة، والحلم، والجود، فهي ثلاثة، وفي هذا القسم تذكر أمور مستحسنة، يجر بها القلم رسته، وأمور أخرى تلزم الملك لزوم الظل لشخصه، وشعاع الشارق لقرصه، وهي الحجابة، والوزارة، والقهرمانه، والكتابة، فمجموع المسائل التي يسأل عنها في هذه الساقية أربع عشرة مسألة، ولك أن تدعوها السرايا لمناسبة الجيش، والخاتمة في مواعظ تناسب الملوك، وتهدي الموفق منهم إلى سبيل النجاة في السلوك، والله المستعان.

السوية الأولى من القسم الأول في العدل

قال الله تبارك وتعالى {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} قرن الله العدل مع الإحسان إشارة إلى أن العدل قد لا يمكن إلا مع الإحسان، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي العطاء البالغ للمؤلفة، لأن مجرد العدل فيهم لا يمكن في الحال، ومنزلة الإمام العادل عند الله تعالى عظيمة، قال صلى الله عليه وسلم : «عدل الإمام في رعيته يوماً واحداً

(*) في الأصل و (م) المغنم وفي (ف) و (ش) و (ك) المعظم.

(*) في (ش) ساقط.

(*) في (ش) النظام.

خير من عبادة خمسين سنة بقيامها وصيامها» (1)، وقال صلى الله عليه وسلم : «الإمام العادل لا ترد دعوته» (2)، وما ذلك إلا لما فيه من صلاح هذا النوع الإنساني الذي هو أشرف المخلوقات، فبالعدل تصلح الدنيا وتعم البركة، وتكثر المنافع، وبه يكون صلاح الآخرة، فما أحق ما به صلاح الدنيا والآخرة أن تعظم منزلته عند الله تعالى، قيل : ليس فوق منزلة الإمام العادل منزلة إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، وقد وعد الله تعالى أهل العدل بالنصر على الأعداء لنصرهم شريعته، فقال : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)، ثم بين سبحانه من ينصره فقال {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر} وما بعث الله رسولا، ولا أنزل كتابا، إلا لتحصيل هذه الخصلة الشريفة، قال الله تعالى {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} وقال {إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق}، قال الفهري العدل ميزان الله في الأرض، يؤخذ به (*) للضعيف من القوي، وللمحق من المبطل، فمن رفع ميزان الله الذي وضعه بين عباده، فقد تعرض لسخط الله، وقالت الحكماء : المملكة صورة في صورة رجل، فرأسه الملك، أي السلطان، وقلبه قوته، ويداه الجند، ورجلاه الرعية، وروحه العدل، فمملكة لا عدل فيها كجسد لا روح فيه، «ومما يعين الملوك على العدل تقرب من يؤثر التقوى، واجتناب من يقبل الرشاء واستكفاء من يعدل في القضية، واستخلاص من يشفق على الرعية، فإن ما عدل من جار وزيره، ولا صلح من فسد مشيره» (3)، ولما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري وقال له : اكتب لي صفة الإمام العادل، فكتب إليه : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لما شيته أطيب المراعي، ويذودها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده، يسعى لهم صفارا، ويعلمهم كبارا، ويكتسب لهم

(1) نص عليه الشرنائي في شرحه "مختصر ابن أبي جرة" ص 84 ولم يخرج.

(2) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه والامام احمد.

(3) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف) و (ك) أثبتناه هنا.

(*) (منه) في (ك).

في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العادل قائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، إلى آخر كلام الحسن، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامه في الخاتمة.

وروي أن عامل حمص كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن سور المدينة احتاج إلى تحصين، فكتب إليه عمر حصنها بالعدل، ونق طرقها من الجور والسلام، وروي أن بعض عمال أبي جعفر المنصور غصب ضيعة لرجل، فارتحل ذلك الرجل حتى أتى أبا جعفر فاستأذن فأذن له، فلما وقف بين يديه قال : أصلح الله أمير المؤمنين إن الطفل الصغير إذا نابه مكروه إنما يفر إلى أمه لأنه لا يعرف غيرها، فلا يرى ناصرا له فوقها، فإذا ترعرع واشتد وأوذى كان فراره إلى أبيه لعلمه أن أباه أقوى من أمه، فإذا بلغ وصار رجلا ونزل به أمر شكا إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا قوي عقله واشتد به الأمر شكا إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعتها إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيت الله وحرمة، فقال بل ننصفك ولا نحوجك إلى هذا، فكتب إلى الوالي برئت من آبائي الكرام إن لم ترد إلى هذا ضيعته ساعة قراءتك كتابي لأتاك مني ما لا قبل لك به، وزود الرجل وأحسن إليه وانصرف، وقال يزدشير لولده : إن الملك والعدل أخوان، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالملك أس، والعدل حارس، فما لم يكن له أس فمهديم، وما لم يكن له حارس فضائع، وقد قال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في مملكته في الأسواق والزرع والضرع وفي كل شيء، وإذا عمل بالخير أو هم به أدخل الله البركة في مملكته في كل شيء، ولما لقي سفيان الثوري أبا جعفر المنصور قال له : إني أعلم أن رجلا إن صلح صلحت الأمة وإن فسد فسدت الأمة، قال : ومن هو ؟ قال أنت، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكا خرج يسير في مملكته مستخفيا، فنزل برجل له بقرة فراحت البقرة وحلبت قدر حلب ثلاثين بقرة، فعجب الملك مما رأى، وحدث نفسه بأخذها،

فلما راحت من الغد حلبت على النصف، فقال الملك لربها، ما بال حلابها نقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس ؟ قال : لا، ولكن أظن أن ملكنا هم بأخذها، فإن الملك إذا هم بالظلم أو ظلم ذهب البركة، فعاهد الله تعالى في نفسه وتاب ألا يأخذها، فلما راحت من الغد حلبت حلب ثلاثين بقرة، فعاهد ذلك الملك ربه ألا يترك العدل ما بقي انتهى.

ومثل هذا ما حكاه محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه عن ملك شاه بن البارسلان السلجوقي، وكان سلطانا عظيم الشأن، متظاهرا بالعدل، قال الهمداني : إنه دخل عليه واعظ فوعظه فقال له : إن بعض الأكاسرة اجتاز يوما منفردا عن عسكره على باب بستان فطلب ماء يشربه، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج، فشربه وأعجبه واستطابه، فقال لها : كيف يصنع هذا ؟ فقالت له : إن قصب السكر عندنا يزكو حتى إننا نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، وكانت الصبية لا تعرفه، فقال لها : ارجعي وأحضري منه شيئا آخر، فرجعت فقال في نفسه : الصواب أن أعوضهم من هذا المكان وأصطفيه لنفسه، فلم يكن بأسرع من خروجها باكية، فقال لها : ما بالك ؟ فقالت : إن نية سلطاننا قد تغيرت، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا القصب ما أريد فأعصره من غير تعسف، والآن قد أجهدت نفسي في عصره فلم يسمح لي إلا بقليل، فقال لها : ارجعي فإنك تجدينه كما تحبين، وعاهد الله تعالى ألا يفعل ما كان عزم عليه، فخرجت ومعها شيء من السكر وهي فرحة مستبشرة، فقال السلطان لذلك الواعظ : ما لك لا تعظ الرعية ؟ وتقول لهم إن كسرى اجتاز على بستان فقال للناظر : ناولني عنقودا من حصرم عنبك، والناظر لا يعرف أنه كسرى، فقال له : لا يمكنني ذلك، فإن السلطان إلى الآن لم يأخذ حقه منه، فلا يحل لي أن أخونه انتهى، فتعجب الناس الحاضرون من مقابلة الحكاية بمثلها ومعارضته ما أوجب الحق عليه بما أوجب الحق له انتهى⁽⁴⁾ وفي هذا القدر كفاية في بيان فضيلة العدل الذي هو روح جسد المملكة، ولو ذهبنا إلى بسط القول في هذا المقام بذكر وقائع العدل الصادرة من الخلفاء الراشدين وأمراء السلف لأدى ذلك إلى الطول الموجب للسآمة.

(4) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ف) و (ك) ومدناه بخط مؤلف الأصل بهامشه فأثبتناه هنا تشبيهاً ١

السرية الثانية من القسم الأول في حسن السيرة

وهي من السياسة لما قدمنا، قال الله تبارك وتعالى : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته» (5) وقال أبو بكر رضي الله عنه : لا يصلح هذا الأمر إلا شدة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان : (6) صف لي عمر بن الخطاب، فقال : كان راحما لرعيته، عادلا في قضيته، عاريا من الكبر، قابلا للعدو، سهلا للحجاب، مصون الباب، متحريرا للصواب، رفيقا بالضعيف، انتهى، وروي أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أن يعرفهم الزمان الذي يرضى فيه الله سبحانه وتعالى عن الناس، فقال : إذا استعمل عليهم الهين اللين الحبي، انتهى، وأوصى أبرويز ولده شيرويه فقال : لا توسع على جندك ساعة يستغنون بها عنك، ولا تضيق عليهم ضيقا يضجرون به منك، وأعطهم عطاء قصدا، وامنعهم منعا جميلا، وابسط لهم في الرجاء لا في العطاء انتهى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءا لله، وجزأ لأهله، وجزأ لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول : «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط، وأمنه من يوم الفزع الأكبر، انتهى». وكان بعض الملوك أصابه صمم فأهمه ذلك من أجل رعاية المظلومين، فأمر بالنداء في جميع مملكته ألا يلبس الأحمر إلا من كان مظلوما، وقال : لئن منعت سمعي لم أمنع بصري، والحمد لله، فكان كل من رآه لا بسا الأحمر استكشفه عن مظلمته، ففضى فيها بالحق، وسئل بعض الملوك بعد خلعه : ما سبب ذهاب ملكك ؟ فقال : الاشتغال باللذات، عن التفرغ للمهمات، ووثقنا بعمالنا فأثروا مرافقهم علينا، فظلموا الرعية، ففسدت لنا منهم الطوية، فضعفت

(5) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

(6) صعصعة بن صرحان من أهل الكوفة. قال ابن سعد : كان من أهل الحظوظ بالكوفة وخطيبا، وهو من أصحاب سيدنا علي، وشهد معه وقعة الجمل وأسلم في عهد الرسول ولم يره، توفي في خلافة سيدنا معاوية.

الإمارة، وقل الخراج، وبطل العطاء، فلما قصدنا العدو، قل الناصر، وأعظم ما أوجب زوال ملكنا أستتار الأخبار عنا انتهى، قال الفهري : ومعظم ما رأينا وسمعنا ممن سبقنا في دخول الفساد على الملوك من حجبهم عن مباشرة الأمور، قال : ولا تزال الرعية ذات سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب عنهم فهناك سلاطين كثيرة، انتهى، ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم، وخرب كثيراً من بلاده، كتب إليه : أخبرني بالذي سست به مملكتك، حتى قويت على ما أرى وبلغت ما لا يبلغه أحد من الملوك، فإن كان ما يضبط به الملك أدت إليك الخراج، وصرت كبعض رعيتك، فقال له سابور : إني لم أزد في السياسة على أني لم أهزل في أمر ولا نهى، ولا أخلفت في وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت لا على الهوى، وضربت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة ولا ضغينة، فدانت لي الرعايا وأدت الخراج، انتهى، وقال زياد لحاجبه : إني وليتك حجابتي، وعزلتك عن أربعة منها : عن المنادي للصلاة، لا تعرجه عني، ولا سلطان لك عليه، وعن طارق الليل لا تحجبه فإنه ما جاء به تلك الساعة إلا أمر مهم، وعن رسول الثغور، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي ولو كنت في الخافي، وعن صاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد، وأوصت بعض الملوك أمه فقالت له : يا بني، ينبغي للملك أن تكون له ستة أشياء، وزير يثق برأيه، ويفضي إليه سره، وحسن يلجأ إليه إذا خاف وسيف إذا نازل الاقران لم يخش أن يخونه، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة كانت معه، وزوجة إذا دخلت عليه أذهبت همه وحزنه، وطباخ إذا لم يشته طعاماً صنع له ما يشتهيه، انتهى، وكتب بعض الملوك ثلاث رقاع، ودفعها لوزيره، وقال له : إذا رأيتني غضبت فادفع لي واحدة منها، وكان في إحداها إنك لست بإله فتفعل ما تريد، وإنك ستموت وتعود إلى التراب فياكل بعضك بعضاً، وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة اقض بحكم الله بين الناس فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

السرية الثالثة من القسم الأول في حسن النظر

لما احتضر أبو بكر الصديق أرسل إلى عمر رضي الله عنهما، وقال له : إن وليت على الناس فاتق الله والزم الحق، فإنه ما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحق الميزان إذا وضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحق الميزان إذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

واعلم أن لله تعالى عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة، وأن الله تعالى ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف ألا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار بسوء أعمالهم فرد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف أن أكون منهم، وأن الله تعالى ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون المؤمن راغباً لا يتمنى على الله، فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه، انتهى، وقيل للاسكندر : فلان يسيء الثناء عليك، فقال : أنا أعلم أنه ليس بشير، فينبغي أن نعلم هل نابه من جانبنا أمر دعاه إلى ذلك، فبحث عن حاله فوجدها رثة فأمر له بصلة سنينة، فبلغه بعد ذلك أنه بسط لسانه بحسن الثناء عليه، فقال : أما ترون أن الأمر إلينا فيما يقال فينا من خير أو شر، انتهى، فهذا من حسن النظر، وكان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية رضي الله عنهما قد أقام فيها معاوية عبيداً يعمرونها، فدخلوا في أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية : أما بعد، يا معاوية : فأنه عبدانك عن الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن، فلما وقف معاوية على كتابه، دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ فقال أرى أن تنفر إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال : أو خير من ذلك يا بني، على بداوة وقرطاس، فكتب : وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هيئة عندي في جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسي صكاً بالأرض والعبدان، وأشهدت

على فيه، فليضيفها مع عبدانها إلى أرضه وعبيده، والسلام. فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية، كتب إليه : وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما بلغ معاوية، قال لولده : إذا بليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء، انتهى.

ولما خاف المامون انتقاض أهل خراسان بيعتهم عليه أيام فتنته مع أخيه الأمين، استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له الفضل : إنك قد قرأت القرآن والحديث، فأرى أن تجمع العلماء وتحسن إليهم، وتكرم القواد والملوك وأبناءهم وتعدهم بالمواعيد السنية، والمراتب العالية، وتحط ريع الخراج عن الرعية، ففعل ذلك فصالت إليه وجوه الخلائق وقالوا : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا، انتهى، وقال ابن الهندي : رفعت إلى المامون أن رجلا ما زال يصرخ بدمه، قال فدعاني، وقال لي، قد عرفت قصة الرجل، وأنا عازم على أن أوجه إليه عشرة آلاف دينار أقطع بها لسانه عني، فقلت : يا أمير المؤمنين، إذن يطمع فيك كل من في مثل حاله حتى يطمع فيك السوق، ومثل هذا يؤدي إلى الإجحاف بأموال أمير المسلمين والجرأة عليه، فقال : والله لئن كان ما تخاف لأفتحن بيوت أموالي ولأغلqn عن شتمهم أسماعي، فألق هذا الرجل وادفع له عشرين ألف دينار يصرفها فيما ينوبه، وأخبره أنني على توليته، قال : ففعلت، ثم دعا بالرجل فرفع مجلسه وولاه.

السرية الرابعة من القسم الأول في ذكاء الفطنة

كثيرا ما أتى الملوك من تولية الأمور لخامدي الفطن وأهل التغفل، وإن كانوا أمناء صالحين كما وقع لمولانا علي كرم الله وجهه في قضية التحكيم لما وجه لذلك أبا موسى الأشعري في مقابلة من هو أدهى أهل زمانه عمرو بن العاصي، ذكر الجرجاني آخر كتاب الكنايات ما نصه : وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : بلغني أن عتبة بن أبي سفيان قال لابن عباس رضي الله عنه ما منع عليا أن يبعثك مكان أبي موسى ؟ فقال عبد الله بن عباس منعه حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني لاعترضت في مدارج نفس معاوية ناقضا لما أبرم، ومبرما

لما نقض، أسف إذا طار، وأطير إذ أسف، ولكن مضى قدر وبقى
أسف، والآخرة خير لأمر المؤمنين، فقال في ذلك خريم بن فاتك الأسدي (7)
مشيرا لهذه القضية :

لو كان للقوم رأي يرشدون به أهل العراق رموكم بابن عباس
للسه در أبيه أيا روجل ما مثله لفصال الأمر في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
انتهى.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إني لأستعمل الرجل
وأدع خيرا منه، لأنه أيقظ عينا، وأوسع ذهنا، وأشد جراءة، وأصبر على
شدة، انتهى، وبعض الناس ينسب هذا القول لرسول الله صلى الله عليه
وسلم، ومما يذكر من ذكاء الفطنة الصادر من الملوك، ما روي عن المنصور
بن أبي عامر أنه قدم عليه تاجر من اليمن بجوهر نفيس وأحجار ياقوت
كثيرة، فأخذ منه ما استحسنته، ورد إليه الباقي، فصره التاجر في قطعة
يمانية حمراء وأخذ طريق الرملة على الشط، وكان اليوم حارا فدعته نفسه
إلى التبرد في النهر، فنزع ثيابه ووضع الصرة عليها، ودخل في النهر
يتبرد، فمرت حداة فاخطفت الصرة تحسبها لحما، وارتفعت بها في الأفق
حتى قطعت ما أدركته عين الرجل، فقامت عليه القيامة حتى أصابته من
ذلك علة، فلما كان وقت دفع أثمان ما اشترى من التجار، جلس المنصور
بن أبي عامر لذلك بنفسه، فنظر المنصور إلى التاجر فاستبان له ما هو عليه
من المهانة والكآبة بعد النشاط وشدة العارضة، فسأله عن شأنه فأعلمه
بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على
الحيلة، فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها، قال : مر مشرقا
على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك، يعني الرملة، فدعا المنصور
شرطيه الخاص به، فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى
وجاء بهم سريعا، فقال لهم ابحثوا عن غير حال الإقلال منهم سريعا،
وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك ثم قالوا ما نعلم إلا
رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناوبون السبق على

(7) خريم بن الأنعم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وكعب الأحبار تروى بالرقعة في عهد سيدنا معاوية.

أقدامهم عجزا عن شراء دابة، فابتاع الآن دابة واكتسى هو وأولاده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر، وقال له سبب ضاع منا وسقط إليك، فما فعلت به ؟ فقال ها هو ذا يا مولانا فضرب بيده إلى حزمة سراويله وأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طريا وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور صف لي حديثها، فقال نعم، بينما أنا أعمل في جنان تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني حسنها، ومنظرها، فقلت إن الطائر اختطفها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعنتني فاقتي إلى أخذ عشرة دنائير عيونا كانت معها في الصرة، وقلت أقل ما يكون من كرم مولانا المنصور أن يسمح لي بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر خذ صرتك وانظرها وأصدقني عن عددها ففعل وقال : وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له، فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا تنقض عليك فرحتك، ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان توابه موفورا، ثم أمر للتاجر بالعشرة دنائير ولصاحب الجنان بعشرة دنائير توابا على تأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال له لو بدأتنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناك جزاء وإحسانا، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقال له : والله لأبشن في الأقطار عظمة ملكك، وأبين أنك تملك طير عملك كما تملك بشرها، فلا تعتصم منك ولا توذي جارك فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك، انتهى.

وذكر ابن عذارى في البيان المغرب حكاية أخرى عن المنصور بن أبي عامر أغرب من هذه تدل على شدة فطنته ودهائه ونصه : قال ابن حبان إنه أي المنصور كان جالسا في بعض الليالي وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فجّ طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي، قال فنهض الفارس في الحين وبقي في الفج في البرد والريح والمطر، واقفا على فرسه إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الخطب، فقال له الفارس : إلى أين تذهب يا شيخ ؟ قال وراء حطب، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا فما عسى أن يريد المنصور منه، قال :

فتركته، ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته، فنهضت الى الشيخ وقد سار عني قليلا، فقلت له : ارجع الى مولانا المنصور، فقال : وما عسى أن يريد المنصور مني ؟ سألتك بالله لا تفعل واطركني لطلب معيشتي، فقال له الفارس : لا أفعل ولا أتركك حتى تقوم بين يديه، ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه، فقال المنصور للصقالبة أي عبيد الدار فتشوه هل تجدون معه كتابا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا، فقال فتشوا برعدة حماره، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى يأمرونهم أن يقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة، فلما انبلج الصبح أمر المنصور بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم (8)، انتهى، وهذا من العجائب التي كادت أن تكون من الإخبار بالغيب، لا مدخل للدهاء فيها، ولكنها سعادة محضة.

«ومما حكاه القاضي شمس الدين بن خلكان في ترجمة ملك شاه بن البارسلن أن سواديا لقيه وهو يبكي، فسأله عن سبب بكائه، فقال : إنني ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك غيرها، أردت الاستفضال ببيعها أتقوت بذلك، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذه مني، ومالي حيلة سواه، فقال له : أمسك ثم استدعى فراشا وقال له : إن نفسي اشتاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر وانظر من عنده شيء منه، فأحضره فعاد ومعه بطيخ، فقال له عند من رأيته ؟ فقال عند الأمير فلان، فقال فأحضره، فقال له : من أين لك هذا البطيخ ؟ فقال جاء به الغلمان، فقال : أريدهم الساعة، فذهب وقد عرف نية السلطان فيهم، فهربهم وقال : لم أجدهم فالتفت السلطان الى السوادى وقال له : هذا عبدك قد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، والله لئن خليت لأضربن عنقك، فأخذ السوادى بيده وأخرجه فاشترى الأمير منه نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد الى السلطان وقال يا سيدي قد بعت ذلك العبد بثلاثمائة دينار، فقال له : وقد رضيت ؟ قال : نعم يا سيدي، قال اذهب بسلام» (9)، انتهى.

(8) قصة الشيخ في (بيان المغرب) لابن عذارى ج 2 ص 290.

(9) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ن).

ومما روي من دهاء إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية أن رجلا من سجلماسة ذكرت له رفقة توجهت إلى مصر، فخرج مبادرا ليدركها ومعه ثلاثة آلاف دينار، قال : فإذا بالرفقة قد فاتتني، فجعلت أطوي المراحل وحدي حتى وصلت إلى قابس، فلما خرجت منها وسرت أميالا لقيني سبعة من الفرسان، فأنزلوني عن دابتي وأخذوا الخرج بما فيه، وأرادوا ذبحي فتضرعت إليهم، فقلت : قد أخذتم ديتي مضاعفة، وأنا رجل غريب لا أعرفكم، فأطلقوني، فرجعت إلى قابس، ثم سرت إلى القيروان، وقصدت الأمير إبراهيم بن الأغلب وهو في المقصورة، وقلت رجل غريب، وصحت وراءها رجل ملهوف، فأمر بإدخاله وسألني عن أمري ؟ قصصت عليه قصتي، فأمرني بالجلوس وجعل يأمر وينهى ويسارر بعض من هو معه، وظننت أنه نسيني، فلما انصرف قال لخادمه : الحقني بهذا الرجل، فركب ومضينا في أثره حتى دخل القصر، فأدخلت في بيت وأنا لا أدري ما يفعل بي، فبعد ساعة أتيت بالمائدة التي رفعت من بين يديه فوضعت بين يدي فاطمأننت وأكلت ونمت، فلما انتبه الأمير من قائلته دعاني فرفعت إليه وهو في روشن على باب القصر، وقد فتحت البوابات التي فيه، فأمرني بالجلوس إلى جنبه، وإذا به قد دعا حاجبه في الوقت الذي ذكرت له قصتي، وقال له : هل وجهت إلى طرابلس خيلا في هذه الأيام ؟ قال : نعم، وجهت سبعة من الفرسان، وقد أتوا، فقال له مر جميع من على بابك من الخيل أن يأتوا بعد قيامي من القائلة، ووجه مناديا بأسمائهم، قال فوقف خادم بين يدي القصر ينادي فلان بن فلان، فيجوز ناحية، وقال لي إن وقعت عيناك على واحد من أصحابك فعرفني به، فكلما مر واحد عرفته به فبأمر بوقوفه ناحية، فلم يزالوا يمرن حتى عرفت السبعة، فأمر بصرف غيرهم وأدخل السبعة وأنا جالس إلى جنبه، فقال لهم : أتعرفون هذا الرجل ؟ فأنكروا، فجعل يلاطفهم حتى قالوا نحن سلبناه، وماله بدار فلان في الخرج لم نأخذ منه إلا سبعة دنانير، فقال : أحضروها فجاءت ووضعت في المال، وقال لي خذ متاعك، وقال لي أقيم أو تلحق بالرفقة ؟ فقلت له وأنتي لي بالرفقة ؟ فقال لي لم أبرح من الجامع حتى وجهت إلى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليك، وإنني أوجه معك من يصحبك إليها، فدعوت الله له ووجه معي من يصحبني ويلحقني بالرفقة فبلغتها سالما بجميع مالي، انتهى.

«ومما حكى من فطنة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور العباسي، أنه لما دخل المدينة في حجته، قال للربيع وزيره أبلغني رجلاً عاقلاً عالماً ليوقفني على دور المدينة، فقد بعد عهدي بديار قومي، فالتمس الربيع له فتى من أعلم الناس وأعقلهم، فكان لا يبتدئ بالإخبار عن شيء حتى يسأل عنه فيجيب بأحسن عبارة، فأعجب المنصور به فأمر له بمال، فتأخر عنه ودعته الضرورة إلى استنجاهه، فمر ببیت عاتكة بنت عبد الله بن أبي سفيان الأموي فقال : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنسي قسماً إليك مع الصدد لأميل انتهى
ففكر المنصور في قوله وقال : لم يخالف عادته ابتداءً بالإخبار دون استخبار، إلا لأمر، وأقبل يردد أبيات القصيدة ويتصفحها شيئاً فشيئاً حتى وقف على قوله فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذاق لحديث يقول ما لا يفعل
فقال المنصور : يا ربيع، هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا له به ؟ فقال إلى الآن ما وصل إليه، فقال : عجله له مضاعفاً، انتهى، وهذا من الذكاء والفتنة من أمير المؤمنين المنصور رحمه الله» (10).

السرية الخامسة من القسم الأول في المشورة

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوما وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تبصر ما منها نأى ودنا ولا ترى نفسها إلا بمسراة
لا أضر على الرأي من الاستبداد، ولا أنفع في الحزم من الاستعداد، وأما ما وقع للمرشد لما استولى عليه وزراؤه البرامكة، فأمر بعض الشعراء مغنية فأنشدته قوله :

(10) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف).

ليست هنذا أنجزتنا ما تعد وشفيت أرواحنا مما نجد
واستبدت مسرة واحدة إغنا العاجز من لا يستبد

فكان ذلك سبب الانتقام من البرامكة كما هو معروف، فإن هذا مقام آخر، ونوع من المكر والاحتتيال على التوصل إلى كفاية من أريدت كفايته من الأعداء، وذلك من الحكم التي اشتمل عليها الشعر كما قيل :

الشعر نار بلا دخان وللقوافي رُقَى لطيفه

وأما المشورة لو لم تكن أعظم الأسباب، لسعادة أولي الألباب، ما أمر الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : {وشاورهم في الأمر} مع أنه صلى الله عليه وسلم في غاية الاستغناء بأنوار الهداية، بما تكفل الله له به من إرشاده، ووعد به من تأييده وإمداده، وإنما أمره الله تعالى بذلك ليستن به غيره، لما علم فيها من الفضل الكثير، قال صلى الله عليه وسلم : «ما تشاور قوم إلا هدهم الله لأرشد أمورهم» (11)، وقال صلى الله عليه وسلم : «المشورة حصن من الندامة، وأمان من الملامة» (12)، وقال صلى الله عليه وسلم : «لن يهلك امرؤ عن مشورة» (13)، وقال صلى الله عليه وسلم : «من نزل به أمر فشاور فيه من هو دونه تواضعا عزم له على الرشد» (14)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه : «نعمت الموازنة المشاورة، ويس الاستعداد الاستبداد، وقال الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الرأي الواحد كالخيوط السحيل، والرأيان كالخيطين، والثلاثة آراء كالثلاثة خيوط لا تكاد تنقطع، وقال عمر بن عبد العزيز : المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يعضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم، وقال بعض الحكماء : من كثرت استشارته، حمدت إمارته، وقيل لحكيم : ما يؤيد العقل وما يضر به ؟ فقال يؤيده ثلاثة : التثبت، والتجربة، والمشورة، ويضره ثلاثة : العجلة، والتهاون، والاستبداد، وقيل لرجل من بني عباس : ما أكثر صوابكم ! فقال : نحن ألف رجل فينا حازم واحد، فنحن نشاوره ونطيعه فصرنا ألف حازم.

(11) لم تلق على تخريجه.

(12) لم تلق على تخريجه.

(13) لم تلق على تخريجه.

(14) لم تلق على تخريجه.

ويطلب في المشاور أمور : منها أن يكون ذا عقل وافر، قال صلى الله عليه وسلم : «استرشدوا العاقل ترشدوا» (15)، وقال عبد الله الكامل لولده محمد النفس الزكية : احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان عدوا، وقال بعض الحكماء : من استعان بذوي العقول، فقد فاز بإدراك المأمول، ومنها أن يكون ذا تجربة للأمور، ولذلك قال مولانا علي رضي الله عنه : رأى الشيخ خير من مشورة غلام، ومنها أن يكون ذا دين، فإن من غلب عليه الدين كان مأمون السريرة، موفق العزيمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «من أراد أمراً فشاور فيه مسلماً تقياً وفقه الله لأرشد أموره».

ومنها أن يكون ذا نصيحة ومودة، فبذلك يمحض الرأي، ويصدق الفكر، قال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجلي عنك الغمر (16)، ولا يكون ذلك إلا من ناصح ودود، ومنها أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وشغل مانع، فإن من غمرت فكره الهموم، لم يستقر له رأي، وقد مر حارثة بن بدر بالأحنف بن قيس فقال له : لولا أنك عجلان لشاورتك، فقال له : أجل، كانوا لا يشاورون الجائع ولا العطشان ولا الحاقن ولا المضل، يعني الذي ضل رحله أو حملة، ولا الطالب، وكان كسرى إذا أهمله أمر استشار مرزبته، فإن قصروا في الرأي عاقب قهارمته، وقال : أبطأتم بأرزاقهم، فعلقت خواطرم بهم، فأخطأوا في رأيهم، وكان ملوك العجم إذا أرادوا مشاورة رجل أعطوه قوته وقوت عياله لسنة حتى يتفرغ ليه لما يراد منه.

ومنها أن لا يكون له في الأمر غرض، فإن الرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد، ومنها أن لا يكون المشاور ممن سبقت له عداوتك ثم دعت الضرورة إلى مصادقتك، فأظهر لك غاية المحبة والنصيحة فإنه يترصد بك الدوائر، ويضمرك لك الغوائل، ولا يرتجى صلاحاً إلا في فسادك، ولا يرى رفعة إلا في سقوط جارك، قال الأخطل :

إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالضر (17) يكمن حيناً ثم ينتشر

(15) رواء الخطيب، حديث ضعيف.

(16) الغمر مثلث الغين ومحرك. وهو من لم يجرب الأمور. الجاهل الغمر.

(17) في (ش) فالضر.

وفي حكمة الهند : إذا أحدث لك العدو صداقة لعله الحاجة إليك، فمع ذهاب العلة ترجع العداوة، كالماء تسخنه فيسخن، فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً، والشجرة المرة لو طلبتها بالعسل وسقيتها برب النخل ما أثمرت إلا مرا، وكل ذي عقل سليم يدرك ذلك كما قال دريد بن الصمة :

وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح

روي أن بعض ولاية خراسان قطع يد رجل وكان ذلك الرجل دليلاً خريتا ثم احتاج ذلك الوالي إلى دليل في بعض غزواته، فلم يجد غير ذلك المقطوع، فدعاه وأحسن إليه ثم سار به وقال له : إنني أختصر لك الطريق، فمضى به في مفازة ثلاثة أيام ثم قال له : اسمع إنك الآن في فلاة بينها وبين الماء ثلاثة أيام من كل ناحية كلها سبخاء قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى، وأنت وكل من معك هالك، فافعل ما بدا لك، فمات هو ومن معه من الجنود عطشاً، ومن كلام الحكماء : من نالته إساءتك، فهمته مساءتك، وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس :

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لم يحصد بها عنباً
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثباً
وقال غيره :

ذعرته ثم أفسحت المجال له فلا تنم عنه فالمدعور يقظان

السرية السادسة من القسم الأول في تدبير الحروب

هذا من أشد أركان الملك، فإن أهل الإمامة الكبرى، والرياسة العظمى، يصدد معاداة كل أحد، روى أن المأمون كان في سفر فانعزل عن الجيوش لحاجة، فلما بعد عنهم لقي أعرابياً فسأله المأمون عن اسمه وبلده، فأجابه عن ذلك كله، فقال الأعرابي : قد سألتني فأجبتك، فأنا أسألك من أنت ؟ فقال له : أنا جميع العرب، فقال له : إذن أنت من قریش، فمن أيهم ؟ فقال له : أنا من الذين تعاديهم وتكرههم جميع قریش، قال له : إذن أنت من بني هاشم، فمن أيهم ؟ قال : أنا الذي تعاديهم وتكرههم جميع بني هاشم، فقال : إذن أنت المأمون، السلام عليك يا أمير المؤمنين، انتهى.

فإذا كان الإمام بهذه المثابة فما أحوجه إلى الاعتناء الكثير بتدبير أمور الحرب، قال بعض العلماء الحكماء : إن الله تعالى قد جمع آداب الحرب في آية واحدة، وهي قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين}. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا أو سرية يقول : «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً» (18)، وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما نصه :

إلى سعد بن مالك ومن معه من المسلمين، أما بعد، فإني آمرك ومن معك بتقوى الله، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحرب، وكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من العدو، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل من هو شر منهم، إذ عملوا بمعاصي الله، كفررة المجوس، (فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا)، واسألوا العون من الله على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم، وترفق على المسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص منهم ولا من قوتهم، فإنهم صاثرون إلى عدو مقيم، جام النفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، لتكون لهم راحة بها، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تشق يدينه، ولا ترزأوا أحدا من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

(18) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي والإمام أحمد.

بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فوفوا لهم ما صبروا لكم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئتم أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض ممن تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وإذا دنوت من أرض عدوك فأكثر من الطلاع، وبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا ابتدارهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واختر للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخبر لهم سوابق الخيل، واجعل أمر السرايا إلى أهل الرغبة في الجهاد والصبر على الجلاء، ولا تخص أحدا بها بهوى فيضيع من أمرك ورأيك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليهم فيه ضيعة، وإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ولا تعاجلهم بالمناجزة، ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعه بك، ثم أذك حراسك على عدوك، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان هـ.

وهذه الرسالة المباركة ما تركت قليلا ولا كثيرا مما يحتاج إليه في الحرب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحرب خدعة» (19)، هـ وقالت الحكماء : رب حيلة أنفع من قبيلة، وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

فالخازم من الملوك هو الذي يدبر مملكته بالآراء والمحاولة والاحتياط والمداواة التي لا تخل بمنصب الملك، وآخر ما يرتكب قرع الكتائب انتهى، وقد أوصى عبد الملك بن مروان أميرا سيره لأرض الروم فقال له : أنت تاجر الله تعالى لعباده، فكن كالضارب الكيس الذي إن وجد ريحا تجر وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيالك عدوك عليك انتهى.

(19) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وينبغي لمن وجه جيشاً أن لا يقدم عليه إلا الرجل الشجاع الباسل
البطل، الرابط الجأش، الجريء القلب، الصادق البأس، الممارس للحروب،
المقارع للأقران، فقد قالت الحكماء : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب
يقود ألف أسد، انتهى. وأول ما يجب عند إرادة الحرب هو إذكاء العيون
كما تقدم في رسالة مولانا عمر رضي الله عنه، ليكون ما يأتي أمير
الجيش وما يذر من توقف وحركة وسرعة وإبطاء على معرفة منه، وتيقن
بسرائر عدوه، فليختر أمير الجيش لذلك قوماً عقلاء فطناء نصحاء أوفياء،
لا يقدر غيره على استخراج ما في ضمائرهم، فإن ظفر بهم على هذه الصفة
فقد أصاب حاجته، وإن لم يصب على هذه الصفة إلا واحداً ضم إليه جماعة
لا يعرف بعضهم بعضاً، وبعضهم مفترقين، فبذلك يعرف صدقهم من كذبهم
باتفاقهم واختلافهم، حتى لا يقدم على أمر إلا بعد تيقن حاله، وعلى أمير
الجيش أن يخفي نفسه على العدو قدر طاقته، فلا تكون له حالة واحدة
يعرف بها من ملبوس أو مركوب أو مستقر أو حلية، بل لا يزال يبدل ذلك
ويغيره في أكثر أوقاته حتى يعمي أمره على عدوه، فإنه إذا عرف بزي
طلبت غرته، ويبحث عليه بكل وجه من وجوه الإذابة والهلاك، فقد اتفق
ذلك لكثير من الملوك قبل الإسلام وبعده، وذلك كملك الحبشة باليمن الذي
قام عليه سيف بن ذي يزن حسبما ذكر في السير، وكجرجير ملك النصارى
بأفريقية الذي قتله عبد الله بن الزبير أيام عثمان بن عفان رضي الله
عنهما، كما ذكره أصحاب الفتوحات، وكقضية علي بن عيسى بن ماهان
مع طاهر بن الحسين، وكقضية أبي الفتح البارسلان التركي مع ملك الروم
وغيرهم ممن يكثر ذكره، ولذلك قالوا : إن أمير الجيش لا يباشر الحرب
بنفسه بوجه إلا إذا رأى فرصة يخاف فوتها، أو رأى متورطاً في حبال
العدو ورجاً إنقاذه، أو رأى ناحية من جيشه يرى فيها خلل ولم يجد من
يسده غيره، وليجتهد في إخفاء شخصه عن عدوه في ذلك ما أمكنه، وأما
في غير هذه الوجوه فلا ينبغي له أن يباشره، وروي أن المهلب بن أبي صفرة
رأى في بعض وقائعه مع الترك اضطراباً من أصحابه، فألقى مغفره على
رأسه وتقدم مستسلماً للموت، فأتاه القعقاع بن الأعلم وقال له : أيها
الأمير ليس لنا عنك غنى، وأرجو أنك لا تحتاج إلى هذا الذي أردت، ولو
أصبت ما كنا إلا كغنم لا راعي لها، وليس للأمير أن يباشر المكافحة ما

وجد من يحامي عنه، فتقدم القعقاع في الناس يحرضهم ويرغبهم في الجهاد، فشابت قوى الجيش فقصدوا الجلال حتى هزموا العدو انتهى، وقد تقدم لنا في لواء اللمتون أن الشيخ عبد الله بن ياسين قال لأميره يوسف بن تاشفين : إنه وجب عليك حد لا بد أن آخذه منك، فقال له : ما هو ؟ فقال لا أذكره لك حتى آخذه منك، فقال له : دونك فكشف القميص عن ظهره، وضربه عشرين سوطاً، فقال له : إنك باشرت القتال بنفسك وغررت بالمسلمين.

ومن مكاييد الحرب اتخاذ الكمائن، قالوا ويجب أن يختار لها المواضع الخفية المنخفضة، وينتخب لها من الجند أهل التيقظ والجرأة ومن ليس به سعال، ومن الدواب ما ليس له صهيل، ويكون إقدامهم بعد الثقة بإصابة الفرصة، وليكن إيقاعهم كضرام الحريق سرعة، ويكون نهوضهم من مكمنهم في وقت يظن فيه غفلة الحراس، فإن كان في الصيف ففي أشد ما يكون من الحر، وفي الشتاء في أشد ما يكون من البرد، وليكن أكبر همهم النكاية في العدو، قال بعضهم : وكما يجب في حق الملك اتخاذ الجند من السيوف كذلك ينبغي له اتخاذ جند من الكفوف، وذلك مما يتنافس فيه أفاضل الملوك وأخيار الوزراء، ومن أحسن ما روي في ذلك ما رواه الفهرري قال : كان نظام الملك وهو الذي تنسب إليه المدرسة النظامية ببغداد قد توزر لأبي الفتح بن البارسلان ملك الترك، وكان وزيراً لأبيه من قبله، فقام بدولتهما أحسن قيام، فشد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، ووالى الأولياء، وعم إحسانه العدو والصديق، والمحب والمبغض، والقريب والبعيد، حتى ألقى الملك العزيز بجرانه، وذل الخلق لسلطانه، والذي مهد له ذلك مع توفيق الله تعالى أنه أقبل بكلية على مراعاة حملة الدين، فبنى المدارس للعلماء والرباطات للعباد والصلحاء، وأجرى لهم الجرايات مشاهرة، ورتب لهم الكساء، وعم بالخيرات جميعهم، فلم يكن أحد ينتمي إلى العلم وإلى الصلاح إلا ونالته كرامتهم الشاملة السابغة في جميع مملكتهم، وهي مسيرة أربعة أشهر من أطراف الشام إلى ما وراء نهر جيحون، وما بالشام والعراقيين وسمرقند وخراسان إلا من عمته صلته وإحسانه، فيخرج من بيوت أمواله في تلك الأسباب الصالحة ستمائة ألف ألف دينار في كل سنة، فاشتغل به السعاة عند الملك وقالوا : هذه الأموال

يقام بها جيش تركز رايته في سور قسطنطينية، فحملة ذلك على أن قال له يوما : يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف ألف إلى من لا ينفعنا بشيء، فبكى نظام الملك وقال للملك يا بني : أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أبلغ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تبلغ ثلاثين ديناراً، وأنت مشغول بلذاتك، منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا جميعاً كافحوا عنك بسيف طولها ذراعان، وقسي أقصى مدى مرماها ثلاثون ذراعاً، وهم معك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي مولاهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم، يدعون لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وبركاتهم تمطرون، وبدعواتهم ترزقون، تخرق سهام دعائهم إلى السماء السابعة وتجاوزها بالدعاء والتضرع، فبكى أبو الفتح وقال لنظام الملك : يا أبت أكثر لي من هذا الجيش، فجزاك الله على حسن نظرك خيراً.

السوية السابعة من القسم الأول في جباية المال

إذا أخذ المال من وجهه ووضع في محله أمدته البركات، وحفظته العنايات، فكان نافعاً لصاحبه، وإن كان قليلاً، مكفولاً بالله وكفى بالله كفيلاً، وإن كان مجموعاً من تهاوش أذهب الله في نهائر (20) وإن كان كثيراً فهو كأمس الدابر، وهو على الوصف المحمود مادة الملك، وأغزر عناصره، وأقوى مؤيده وناصره، وقد صنع أرسططاليس للإسكندر الشكل الدوري المعروف عند الحكماء، وكتب عليه : العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يؤيده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمععه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف به صلاح العالم، العالم بستان، انتهى، وقولنا : وهو على الوصف المحمود أي إذا أخذ من وجهه وصرف في محله، هذا

(20) في الأصل "نهائر" وصوابه "نهائر".

القيد لا بد منه في كونه نافعاً لصاحبه، وإلا كان وجوده كعدمه، وكثرته كقلته، وهذا مشاهد الضرورة كم رأينا وسمعنا من جمع من الأموال ما لا يعد فلم ينفعه عند الحاجة إليه، بل يكون ماله أشد ضرراً عليه، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون لا يدخرون الأموال بل يبذلونها في وجوهها، ويصرفونها في حقوقها، فقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال الثقيلة فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد، «وقدمت على عمر رضي الله عنه خزائن كسرى التي ليس على وجه الأرض أكثر منها ولا أفسخ ولا أنفس من الذهب والفضة واليواقيت والجواهر والمسك والعنبر والحلي والحلل فوضعت في المسجد، فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد» (21)، وما ذاك إلا أن ادخارها غير نافع، وإنما ينفع ادخار الرجال وما يقوم بهم من آلات الحرب والكراع، قال بعضهم : بيوت الرجال، خير من بيوت الأموال، لقوله تعالى {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} وكان بعض الحكماء يقول : عدو الملك بيت ماله، وصديقه جنده، فإذا ضعف أحدهما قوى الآخر، فإذا ضعف بيت المال ببذله للحماة قوي الناصر، واشتد بأس الجند، وأدرك الملك كل ما أراد، وإذا قوى بيت المال بالاختزان ضعف الحماة، وقل الناصر، وهان أمر الملك، فوثب عليه الأعداء انتهى، وقد أوصى بعض الملوك ولده فقال له : يا بني لا تجمع الأموال لتتقوى بها على الأعداء، فإن في جمعها تقوية للأعداء، فإنك إذا جمعت الأموال ضعفت الرجال، فاحتقرك الصديق ووثب عليك العدو انتهى.

ولما قام أبو عبد الله داعية بني عبيد في قبيلة كتامة على أمراء إفريقية واستجابت لدعوته البربر وزحف بهم إلى السلطان زيادة الله القائم بدعوة بني العباس جعل زيادة الله يعطي للناس بلا عدا، بل يحثو للرجل ما يحمله من الذهب والأطباق، ويعطيه من الخيل والسلاح فيخرج من عنده ويذهب للداعية، فلم ينفعه ماله المدخر حين احتاج إليه، لأنه إنما كان ادخر عداوة الناس لما احتجن عليهم مال الله المأخوذ لأجلهم، فكانوا يترصبون به الدوائر، فلما أمكنهم القيام لم ينفعه حينئذ دفع المال بعد فوات محله، وهذا دليل على عدم الانتفاع بالمال المدخر عن أهله.

(21) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش).

وأما قلة الهركة فيه فإنه روي أنه لما مات هشام بن عبد الملك بن مروان خلف أحد عشر ابنًا، وكان أوصى لهم بمال فاقسموه، فتاب كل واحد منهم ألف ألف دينار، ثم إن الله تعالى محق ذلك كله في مدة قليلة، حتى ما كان يرى من ولده أحد إلا وهو فقير، ولقد شوهدهم يوقد في نور الحمام، بجل، بطنه، ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دعا أولاده وكانوا أحد عشر، فلما نظر إليهم بكى وقال : بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء، فقال له مسلمة بن عبد الملك : تعقب يا أمير المؤمنين فعلك، وتدارك أمرك، وأغنهم فما يمنعك أحد في حياتك، ولا يرثعه الوالي بعدك، فنظر إليه مفضبا وقال : يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي، وأشقى به بعد موتي، أما ولدي فبين رجلين، إما مطيع فالله رازقه وكافيه، وإما عاص فلم أكن لأعينه على معصية الله، ثم التفت إلى بنيه وقال : إني لم أترك لكم مالا ولكني تركتكم وما لأحد قبلكم اتباعة، ولا تقع على واحد منكم عين أحد إلا ويرى له عليه حقا، فلما مات خلف بضعة عشر دينارا، فجهز منها بخمسة، واقتسموا الباقي، فحصل لكل واحد ثلاثة أرباع الدينار، ثم إن الله وسع عليهم حتى إن أحدهم جهز مائة فارس من خالص ماله في سبيل الله تعالى.

القسم الثاني : فيما يكون به حسن الملك وكماله، ويظهر به رونقه وجماله وفيه ثلاث سرايا، وخصال حميدة ومزايا.

السرية الأولى من القسم الثاني في الجود

أما الدرجة العليا من الجود فهي خاصة بنبينا مولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب في الأزل بلسان القدم، أنه لولاه : لم تخرج الدنيا من العدم (22)، وذلك أمر واضح شهير صريح، كما قال البصيري في بردة المديح :

فلان من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

هذا في سر الحقيقة، وأما في الشاهد فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يبارى في الجود ولا يجارى، قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله

(22) وعداء هكذا ولم تكتب على أنه حدين أو آخر.

عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان إذا لقيه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة (23) انتهى، وسأله رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال لهم : أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة أخرى، ثم مائة أخرى، فكان صفوان يقول : كان محمد أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلي، وأعطى المؤلف أزيد من ألف بعير في يوم واحد، ورد على هوازن سببهم وكانوا ستة آلاف، وأعطى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من الذهب ما لم يطق حمله، وجيء يوما بتسعين ألف درهم ففرقها وما رد سائلا حتى فرقت، وأهدي له طبق فيه رطب وقشاء فرده مملوءا ذهباً، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» (24)، ويقول : «الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار والبخل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار» (25)، وقال : «اصطناع المعروف بقي مصارع السوء» (26) وقال لبلال : «أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا» (27)، وقال له رجل أوصني يا رسول الله فقال له : «لا تحقرن شيئا من المعروف أن تأتيه ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، أو تلقي أخاك بوجه طلق» (28)، وقال : «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» (29).

واقترى به صلى الله عليه وسلم أصحابه وأهل بيته، روي أن أبا بكر رضي الله عنه أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانين ألفاً، وروي أنه خرج عن ماله ثلاث مرات، وورد عليه في صدر خلافته مال من بعض العمال فصبه في المسجد وأمر فنودي : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر، فجاء أبو أيوب وقال : إن

(23) رواه البخاري بلفظ آخر.

(24) رواه الطبراني في الكبير.

(25) رواه الترمذي.

(26) رواه البخاري.

(27) رواه الطبراني في الكبير.

(28) رواه مسلم بلفظ آخر.

(29) رواه الطبراني في الأوسط.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : « إن جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وأشار بكفيه » فقال له أبو بكر : اذهب فخذ، قال فحفت حفنة فقال : عدها، فوجدت فيها خمسمائة دينار، فقال عد مثليها، فانصرفت بألف وخمسمائة، ثم قسم الباقي على المسلمين.

وكان عمر رضي الله عنه يلبس المرقع ويأكل الخشن ويعطي نفائس الذخائر للمسلمين، ولا يرضى بإعطاء القليل، وكان يقول إذا أعطيت فأغن، ولما فتح العراق وجيء إليه من المال بما لم ير مثله قيل له : أدخله بيت المال، قال : لا ورب الكعبة، لا يرى تحت سقف بيت المال حتى يقسم، فغطى في المسجد بالأنطاع، وحرسه رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح ورأى الذهب والفضة والدرة والياقوت والزبرجد يتلأأ بكى، فقيل له : ما هذا يوم بكاء، ولكنه يوم شكر وسرور، فقال : والله ما كثر هذا في قوم إلا رجع بأسهم بينهم، ثم توجه إلى القبلة وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون متدرجا، فإني أسمعك تقول « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ثم قال أين سراقه ؟ فأتى به أشعر الذراعين فأعطاه سوارى كسرى فقال البسهما، ففعل، فقال : قل الله أكبر، فقال : الله أكبر، فقال : قل الحمل لله الذي سلبهما كسرى لكفره، وألبسهما أعرابيا من بني مدلج لإيمانه، ولم يعط سراقه سوى السوارين، وكان فيهما غنى الأبد، وقسم سائر المال على المسلمين، ولم يدخر منه شيئا، وإنما أعطى السوارين لسراقه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يوما وقد نظر إلى ذراعيه : « كأنى بك وقد لبست سوارى كسرى، فقال سراقه ملك الملوك، قال : نعم وقال عمر رضي الله عنه لما قسم تلك الأموال : إن الذي أدى إلينا هذا لأمين، فقال رجل : لما كنت أنت أمينا كان الناس كلهم أمنا، ولو رتعت لرتعوا، فقال : نعم.

وكان عثمان رضي الله عنه ذا جود وعطاء يتبع بعطاياه وجوه البر، فقد روي أنه لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو تبوكا رغب الناس في النفقة في سبيل الله تعالى، فقال عثمان : علي مائة بعير بأقتابها وأحلاسها، ثم رغب صلى الله عليه وسلم في النفقة في سبيل الله

فقال عثمان : وعلي مائة أخرى بأقتابها وأحلاسها، ثم فعل مثل ذلك في الثالثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما على عثمان ما فعل بعد هذه» (30)، وكانت في المدينة المشرفة بئر جديدة لرجل من اليهود فما يسقي أحد منها إلا يثمن، فاشتراها عثمان بأربعين ألفا وصرفها للمسلمين، وكان بإزاء المسجد بيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من اشتراه وزاده في المسجد فله الجنة، فاشتراه عثمان بعشرين ألفا وأدخله المسجد» (31)، قال الحسن البصري : شهدت عثمان بن عفان يخطب وأنا قد راهقت، فلم أر منظرا أحسن منه، فسمعتة يقول : أيها الناس أغدوا علي كسوتكم فيجاء بالخلل، فتقسم بينهم حتى إنه والله يقول : يا معشر المسلمين، اغدوا علي السمن والعسل فيقسم بينهم، ثم قسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره، والأعطيات دارة والخير كثير انتهى.

وكان الإمام علي رضي الله عنه في الدرجة العليا من الجود، قدم عليه أعرابي فقال : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفعت إليك حاجة قد رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرته، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال له : خطها، فإني أكره أن أرى عليك مذلة السؤال، وكذلك كان يقول رضي الله عنه كل من عرضت له حاجة عندي فليرفعها إلي في كتاب، فإني أكره أن أرى ذل المسألة في وجوهكم، فكتب الأعرابي في الأرض إني عار وأنا فقير، فقال علي لغلامه : يا فتى ائت بالحلة الفلانية، فدفعها إلى الأعرابي فلبسها وقام بين يديه وأنشد :

كسوتني حلة تبلى محاسنها	وسوف أكسوك من باقي الثنا حللا
إن نلت حسن ثناء نلت مكرمة	وليس تبغي بما قد نلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه	كالغيث يحيي نداء السهل والجبال
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به	كل امرؤ سوف يجزى بالذي فعلا

(30) رواء البخاري في كتاب التفسير.

(31) رواء البخاري ومسلم.

فقال علي رضي الله عنه : هات يا فتى الدنانير التي عندك وادفعها للأعرابي، ثم قال له يا أعرابي أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، وكانت مائة دينار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تشكروا لمن أثنى عليكم (32)، انتهى».

وقال رجل لمعاوية يوما أعطني فإني أتيت من عند أبخل رجل وأجبنه وألكنه، فقال معاوية : من هو ويحك ؟ قال علي، فقال له : كذبت والله لو كان لعلي بيت تبر وبيت تبين لأنفق تبره قبل تبينه، وما كان علي قط في فئة إلا غلبت، ولا أخطب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي، فقم قبحك الله، وأشرف الإمام علي يوما في أيام ولايته على بيت ماله فرأى فيه فضة كثيرة وذهباً كثيراً فتغير لونه وأرعد وقال : يا بيضاء ابيضني وغري غيري ويا حمراء احمري وغري غيري، ثم أمر بقسم جميعه على الناس وأمر بكنسه ورشه، ودخل وصلى فيه وقال : الآن استرحمت والحمد لله، وحسبك من منقبة في جوده رضي الله عنه جوده بنفسه في الليلة التي مكثت فيها قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، التي أنزل الله في شأنها قوله تعالى : {وإذ يكرهك الذين كفروا} الآية، فقد فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، فلبس لباسه، وارتدى بردائه، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انج بنفسك ودعني في مكانك أقيك بنفسي، فنام على فراشه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجو الله أن يقيك شرهم (33)، وروي أن الله تعالى قال في تلك الليلة لجبريل وميكائيل عليهما السلام، إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالزيادة، فاختر كل منهما أن تكون الزيادة له، فأوحى الله إليهما : هلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد فبات علي فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله، وهما يقولان بخ بخ، من مثلك يا بن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة، وفي ذلك أنزل الله {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله} (34)، هـ.

(32) رواه ابن عساکر في تاريخه، والأصفهاني في تربيته.

(33) رواه الطبراني.

(34) متفق عليه.

هذا بعض البعض مما روى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم في هذه الخصلة التي هي الجود، وأما بقية المشاهير من الصحابة فإنه لا يمكن أن يجمعه ديوان وذلك كالحسنين السبطين رضي الله عنهما، وابن عباس وابن جعفر وابن عوف وطلحة بن عبيد الله ومن لا يحصى من المهاجرين والأنصار.

وأما أجاود الملوك من الدولتين الأموية والعباسية ومن بعدهما، فلو ذهبنا إلى ذكر القليل من ذلك لخرجنا عن المقصود، ولا بأس بالإلمام بما فيه غرابة أو طرفة أو حكمة، من ذلك ما حكى عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه مرض مرة فاستبطأ الناس في عيادته فسأل فقيل له : إنهم يستحيون منك لمالك عليهم من الديون، فقال : أخزى الله مالا يمنع من زيارة الإخوان، فأمر مناديا ينادي من لقيس عليه مال فهو في حل، فازدحم الناس عليه حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد، ووقفت عليه امرأة يوما وقالت له : أشكو إليك قلة الجردان في بيتي، تعني الفئران، فقال : ما أحسن هذه الكناية، فأمر أن يملأ بيتها بالحنطة والإدام وسائر الأقوات، ومن ذلك ما حكى عن عرابة الأوسي الذي قيل فيه :

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايسته رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين(35)

قيل إنه لما ضعف حاله في آخر عمره خرج إلى المسجد ويده اليمنى على كاهل غلام، ويده اليسرى على كاهل غلام، وهما يقودانه لأنه صار أعمى، فلقيه رجل في طريقه فسلم عليه وقال له : إني رجل غريب انقطعت بي السبل، ونفدت نفقتي وقصدتك لتعينني بما يجري الله على يدك، فرفع يديه عن الغلامين وقال له خذهما مباركاً لك فيهما، والله ما يملك عرابة غيرهما، وجعل يقول : من يأخذ بيدي إلى المسجد وأجره على الله، ومن الأجاود عبيد الله بن أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه، روي أنه كان ينفق على جيرانه أربعين داراً عن يمينه وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، يقوت الجميع ويكسوهم ويضحي لهم، وكان يعتق كل عيد مائة رقبة، وروي أنه اشترى يوماً جارية بعشرة

(35) عرابة بن أوس الحارثي الأنصاري من سادات المدينة الأجاود المشهورين، أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم صغيراً تزوج بالمدينة من "الاصابة" ج 2 ص 473.

آلاف وقال لغلامه ائت بدابة تحمل عليها، فقال له رجل : هذه دابتي فقال
أحملوها عليها إلى داره، ومن الأجواد مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبي
صفرة، كان كأبيه وجده وأهل بيته المهالبة، أنشده رجل :

آل المهلب قوم إن نسبتهم كانوا الأكارم آباء وأجدادا
لو قيل للمجد حدّ عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجسادا

فأعطاه مائة ألف درهم، ثم عاد إليه فقال له مخلد : ألم تكن أتيتنا
قريبا فأجزناك، قال : بلى، ولكن ذكرت قول الكميت فيك :

سألناه الجزيل فما تلكا وأعطى فوق منيتنا وزادا
فأعطى ثم أعطى ثم عدنا فأعطى ثم عدت له فعادا
مرارا ما أعود إليه إلا تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

فأعطاه ضعف ما كان أعطاه قبل، ومات مخلد هذا في حياة أبيه
يزيد، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وقال : اليوم مات فتى العرب، ولو
أراد الله بأبيه خيرا أبقاه له، ثم أنشد عمر بن عبد العزيز فيه متمثلا :

على مثل عمرو تذهب النفس حسرة وتضحى وجوه القوم مغبرة سودا

ومن أجواد العرب المضروب بهم الأمثال في الدنيا معن بن زائدة
الشباني أحد أمراء الدولتين مروانية والعباسية، روى أن صاحب بن
عباد فرق على الناس كسا كثيرة، فسمع بذلك بعض شعراء زمانه فكتب
إليه بهذه الأبيات :

أيا من عطاياه تدني الغنى إلى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسا لم تخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون فسي ثياب من الخز إلا أنا

فقال صاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلا سأله مركوبا
فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ونعل وقال : لو علمت مركوبا
غير هذا لأمرت لك به، وأنا قد أمرت لك بجبة وقميص ودراعة وفروة
وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وخفين، ولو علمت
ملبوسا غير هذا لأمرت لك به انتهى. وروي أن رجلا قصد معنا فقبل له :

هو داخل هذا البستان، فأخذ عودا فنقش فيه هذا البيت وجاء الى مدخل الماء للبستان فألقاه في الماء والبيت هو هذا :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فليس إلى معن سواك رسول

فدخل الماء بالعود فرآه معن فأخذه وقرأه وقال : انظروا هل بالباب أحد ؟ فوجدوا الرجل فأدخل عليه وقال له : أنت صاحب هذا العود ؟ قال نعم، فأمر بإنزاله في محل، وبعث إليه مائة ألف ووضع العود تحت وساده، فلما كان الغد قرأ العود أيضا وبعث إليه بمائة ألف أخرى، وفي اليوم الثالث قرأ العود وبعث إليه بمائة ألف أخرى، فلما رأى الرجل كثرة المال الذي وصل إليه فاستعظمه وخاف ألا يبقى له، فجمع تلك الأموال وذهب بغير استئذان، فلما كان اليوم الرابع بحث عنه فلم يوجد له خبر، فقال معن : عزمت أن أبعث إليه كل يوم مائة ألف كلما قرأت شعره حتى ينفى جميع ما في بيوت أمواله. كان معن بن زائدة يتصرف لبني أمية في أنواع من الولايات، وكان منقطعا الى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين، فلما وقعت الحروب التي بين ابن هبيرة وأبي جعفر المنصور أبلى فيها معن بلاء عظيما، فلما قتل ابن هبيرة خاف معن فاختفى، واشتد طلب أبي جعفر له، وجعل لمن يأتيه به عشر ديات، قال معن : فلما طال بي الأمر تعرضت للشمس حتى حال لون وجهي، وخففت عارضي، ولبست جبة صوف، وركبت جملا، وخرجت في زي الأعراب متوجها الى البادية، فلما خرجت من باب المدينة تبعني أسود متقلدا بسيفه، حتى إذا بعدنا عن الحرس قبض على خطام البعير وأناخه، وقبض على يدي، فقلت له : مالك ؟ فقال أنت طلبية الملك، فقلت : ومن أنا حتى يطلبني الملك، قال : ألسنت معن بن زائدة ؟ فقلت له لست بمعن، فقال أنا أعرف بك منك، فلما رأيت منه الجدة قلت له : عندي جوهر هو أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بي إليه، فخذ، ولا تكن سبب سفك دمي، فقال : هاته، فأعطيته إياه، فلما نظر إليه قال : صدقت في قيمته، ولكن لست أقبله منك حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت : قل، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط، قلت لا، قال : فنصفه ؟ قلت لا، قال فثلثه ؟ قلت لا، حتى بلغ العشر فاستحييت، فقلت أظن أنني فعلت

هذا، قال : ما ذاك بعظيم، أنا رجل رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما، وهذا الجواهر قيمته ألوف دنائير، وقد وهبته لك، ووهبتك لجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري وأطلق خطام البعير وقال : انصرف في حفظ الله، فقلت يا هذا، قد والله نصحتني وأحسننت إلي، فخذ ما دفعته لك فإنني عنه في غنى، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالتي هذه، والله لا أخذت في معروف ثمننا أبدا، ومضى لسبيله، قال معن : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يأتيني به ما شاء، فما عرفت له خبرا، ولم يزل معن مختفيا إلى أن كان يوم الهاشمية، وكانت في ذلك اليوم مقتلة عظيمة، وكان معن متواريا بالقرب، وهو يوم ثار فيه جماعة من أهل خراسان على أبي جعفر في المدينة التي بناها السفاح بالأنبار، وتسمى الهاشمية، فخرج معن متلثما فتقدم وقاتل بين يدي المنصور قتالا عظيما أبان فيه نجدة وشهامة، وفرق القوم شذر مذر، فلما أفرج عن المنصور قال : من أنت ؟ فكشف لثامه، وقال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين، أنا معن بن زائدة، فأمنه وكساه وحباه وصار من خواصه، وقال في ذلك شاعره المنقطع إليه مروان بن أبي حفصة قصيدة بديعة يمدحه بها فأعطاه عليها مائة ألف درهم، فروي أن معن دخل يوما على المنصور فقال لاهيه يا معن أتعطي ابن أبي حفصة مائة ألف على أن قال فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفا إلى شرف بنو شيبان
فقال لا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته ذلك على قوله في هذه القصيدة :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمان
فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهند وسان
فقال أحسننت، انتهى.

وقد جمع بنا القلم عما نحن بصدده من الاختصار، لأن النفوس تستلذ مطاعم الكرم وإن كان حبله اليوم قد انقطع وانصرم، والمراد إنما هو الإشادة بفضيلة الجود، الذي اتفق أهل العقول المتقدمون والمتأخرون على أنه محبوب عند كل أحد محمود، قال الحكماء : إن الجود أساس الملك

وكماله، وحسنه وجماله، تعنو له الوجوه، وتدل له الرقاب، وتسترق به الأحرار، وتستمال به الأعداء، وتحقن به الدماء، فكم من شخص فارق بسببه وطنه وأهله وأحبابه، وكم من تارك لأجله دينه وملته، وأحق الناس به أحوجهم إلى عطف القلوب عليهم، وصرف الوجوه إليهم، وهم الملوك وولاة الأمر، انتهى.

وقد حكى أن الامام أبا الوليد بن رشد الجند (36) لما سمع أخبار الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن جعفر المعروف بالسبتي، وجه صاحباً له وقال له : الزم هذا الرجل حتى تستقرئ أحواله على التمام وأخبرني بذلك، فلامه ذلك الرجل سنة كاملة، فلما رجع إلى ابن رشد قال له حاصل الخبر عنه أنه رجل تدور أموره كلها على الصدقة، فقال أبو الوليد : لعله من قوم يرون أن الوجود، ينفع بالجود، انتهى، هذا مبلغ علم أبي الوليد في شأن من لم يدر ما وراء ما هو فيه، والمراد من حكاية هذا الكلام قوله، ان الوجود ينفع بالجود، فإنه صحيح لا يحتاج إلى برهان، دليله المشاهدة والعيان.

وليكن هذا القدر كافياً في هذه السرية، وإلا لو أراد الإنسان أن يعد من اشتهر بالجود في الإسلام والجاهلية، لأعجزه ذلك من الملوك وغيرهم مثل حاتم الطائي ومعاصره، أوس بن حارثة، وهرم بن سنان، وعبد الله بن جدعان، وأبي دلف العجلي، وكعب بن مامة، والبرامكة : يحيى بن خالد الذي قيل فيه البيتان اللذان طارت بهما رياح الاشتهار، وبلغا مبلغ الليل والنهار، وهما :

سألت الندى هل أنت حر ؟ فقال : لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء ؟ قال : لا بل وراثة تملكني عن والد بعد والد
وولديه جعفر والفضل، فقد أفرد الناس أخبار جودهم ومآثرهم بالتأليف، ومثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل، ومثل طاهر بن الحسين الخزاعي وولده عبد الله بن طاهر وغير من ذكر عن يفوت العد، و لا ينتهي إلى حد، والله واسع عليم.

(36) أبو الوليد زعيم فقهاء رفته بالأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بمصحة النظر وجودة التأليف ولي قضاء الجماعة بمقرطبة سنة 511 هـ وفيه كتاب «البيان والتحصيل» ت 528 هـ 1126 م شجرة النديج 1 ص 142.

السرية الثانية من القسم الثاني في الشجاعة

هذه الخصلة بها تظهر سعادة أهل الرئاسة، وتتم المقاصد لولاية الأمر وأرياب السياسة، فمن خلا منها لم يتم أمره، ولم يلح في مشارق الكمال بדרه، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحل الأعلى منها، قال ابن عمر رضي الله عنهما، ما رأيت أشجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال مولانا علي رضي الله عنه : كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وقال أنس رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه، وهو يقول : لن تراعوا لن تراعوا، وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه : ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب، انتهى.

قيل ما من شجاع إلا وأحصيت له فرّة سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتفق المؤالف والمخالف على أنه ما نكص قط ولا أحجم، فقد حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الأبطال غير ما مرة، وهو مقبل غير مدبر، وقد قيل للبراء بن عازب : أفررت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، لقد رأيته على بغلته البيضاء يركضها نحو الكفار وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وكان عمه حمزة وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أشد الناس إقداما بعده صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم بعض أخبار مولانا علي رضي الله عنه، وأما سيدنا حمزة رضي الله عنه فيكفي فيه ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السماوات : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وكان يوم بدر معلما بريش نعامة أحمر، ولما أسر عبد الرحمان بن عوف أمية بن خلف وابنه عليا، قال له : يا عبد الرحمان من المعلم بريش نعامة

أحمر ؟ قال : حمزة، قال ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، وكان ذاك كالفحل الهائم لم يلقه أحد إلا صرعه، فقتل من صناديد قريش الذين يعدون بألف أحد عشر رجلا منهم شيبه بن ربيعة وطعيمة بن عدي، وكانت له يوم أحد في المشركين نكاية عظيمة، قتل منهم في أول حملة ثلاثة، منهم أرطاة صاحب لواء المشركين.

ومن مشاهير أبطال الصحابة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكفى في فضله أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه سيف الله على الكفار، وكان من عظماء قريش في الجاهلية، له كانت القبة والأعنة، أما القبة فكانوا يجمعون فيها ما يجهزون به جيوشهم، وأما الأعنة فهي قيادة الجيش في الحروب رضي الله عنه، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف الصديق رضي الله عنه ولى خالد اقتال أهل الردة فكان له في ذلك الغناء العظيم كما هو مشهور لا سيما أهل اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب الذين لم يلق الصحابة أشد بأسا منهم، وهم المراد بقوله تعالى {ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد} فلما فرغ من أهل الردة وجهه أبو بكر رضي الله عنه إلى العراق، ووجه أبا عبيدة إلى الشام، فلما بلغ أبو عبيدة إلى الشام جمع الروم من الجنود ما لا يحصى لقتال المسلمين، فكتب بذلك أبو عبيدة إلى أبي بكر، فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، فكتب إليه أن الحق إخوانك المسلمين بالشام، فإن الروم قد جمعوا لهم، وإذا بلغتهم فأنت أمير الجماعة، فكان فتح الشام كله على يديه أميراً في خلافة الصديق، وتحت لواء أبي عبيدة أيام الفاروق رضي الله عنهم أجمعين، قال بعض من حضر وقعة فحل وكانت من الوقائع العظام بالشام، لما لقينا العدو حمل خالد على الميمنة فدق بعضها ببعض، ثم على الميسرة فدق بعضها ببعض، وعلى القلب كذلك قتل من بطارقتهم أحد عشر دون من سواهم وهو ينشد :

أضربهم بالصغار المهنسد ضرب طبيب الدين هاد مهتد
لا واهن الحول ولا مهنسد

وأعظم الوقائع في تلك الحروب وقعة اليرموك كان عدد المشركين فيها مائتي ألف وأربعين ألفاً، وكان المسلمون في ستة وثلاثين ألفاً،

فنصرهم الله على عدوهم حتى لم يفلت منهم إلا قليل، مات منهم غريقا في نهر الواقصة مائة وعشرون ألفا، وقتل باقيهم بالمعركة، واستشهد من المسلمين قريب من ثلاثة آلاف، وكان خالد متولى الحرب ذلك اليوم وهو أول من هزم من تولى قتاله فتوالت بعد ذلك الهزائم وفي ذلك يقول بعضهم :

لما لقينا أولياء الشيطان دعوا هرقل ودعونا الرحمان
والله قد أخزى جنود باهان بخالد النجج أبي سليمان

ومن طالع كتب الفتوحات لم يخف عليه قدر خالد وشهامته ومكانه من الإقدام، ولما حضرته الوفاة قال : شهدت أزيد من مائة زحف وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.

ومن مشاهير الشجعان الصحابة رضوان الله عليهم الزبير بن العوام وولده عبد الله ومصعب، وبیت بني العوام بیت شجاعة وإقدام في الجاهلية والإسلام، أما الزبير فمواقفه شهيرة، وكان يعد بألف، خرج في أول يوم للتعزير من أيام اليرموك بطريق يطلب البراز فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم خرج ثان فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم ثالث كذلك ثم رابع كذلك فخرج خامس فأراد الخروج إليه فأقسم أبو عبيدة عليه فرده، ولما بعث عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر يستمده لما رأى جيوش أهل مصر كثيرة وطلب منه أن يمده، فبعث إليه أربعة آلاف على كل ألف منها رجل يعد بألف فارس، وهم الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة، وكتب إليه : اعلم أن معك اثني عشر ألفا، وكان في عصر الصحابة جماعة غير هؤلاء يقوم الواحد منهم مقام ألف، وأما عبد الله بن الزبير فهو الذي قتل جرجيرا أمير الروم في أول فتوح إفريقية، ونقله عبد الله بن أبي سرح ابنته كما هو مشهور، ومعها أربعون جارية، وهي من أعظم الغنائم، وأما مصعب بن الزبير فتكفيه شهادة عدوه، روي أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه : من أشجع العرب ؟ فقال بعضهم أمير المؤمنين، وقال بعضهم شبيب الخارجي، وقال آخرون قطري بن فجاعة، وذكروا أناسا، فقال عبد الملك بل أشجع الناس رجل جمع بين سكيئة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب التي لا أجمل منها في عصرها، وعائشة بنت

طلحة التي تسامىها في الحسن والجمال، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز وابنة زيان سيد العرب، وولي العراقين خمس سنين، وأصاب الأمان، وأعطى ألف ألف وألف ألف وألف ألف فأبى وسل سيفه وتقدم يصرع الأبطال حتى قتل حميدا عزيزا مقبلا غير مدبر، ذاك مصعب بن الزبير، فقال القوم : صدق أمير المؤمنين.

ومن شجعان الصحابة وهو أولى بالتقديم طلحة بن عبيد الله، كانت له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد مشهورة سيما يوم أحد، فقد روي أنه جرح يومئذ خمسا وسبعين جرحا ما بين ضربة وطعنة ورمية، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى شلت يده وقطع منها أصبع، فقال صلى الله عليه وسلم : إنها سبقتة إلى الجنة، ومع ذلك لم يوهنه ما أصابه، فإنه حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصعد فوق الصخرة ولم يقدر برك له طلحة فرقى فوق ظهره حتى استوى عليها، وكان الصديق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كله لطلحة، وهو أحد الأجواد المشاهير كما هو معلوم.

ومن مشاهير الشجعان من الصحابة رضوان الله عليهم أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه، وهو ممن يقوم مقام ألف، روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج يوم أحد سيفا وقال من يأخذه بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ فقال أن تضرب به في العدو حتى ينحني، فقال أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه يقاتل، وكان الزبير ممن سأل السيف، فلما أخذه أبو دجانة، قال الزبير منعني وأنا ابن صفية عمتي. وأعطاه إياه، والله لأتبعنه حتى أنظر ما يصنع به، قال فأخرج عصابته الحمراء وعصب بها رأسه، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا المقام أو مثل هذا الموطن فتقدم وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا دلف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله يجمع بينهما، فلما التقيا اختلفا ضربتين فعضت سيف المشرك في درقة أبي دجانة وضربه أبو دجانة فقتله، قال الزبير فقلت حينئذ الله ورسوله أعلم، قال أبو دجانة رأيت رجلا يحمش الناس حمشا شديدا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة، وقال أبو خيثمة : لما انكشف المسلمون يوم اليمامة رأيت أبا دجانة يضرب بسيفه في نحور القوم أمامه وعن يمينه ويساره، وصرع رجلا منهم فتفرقوا عنه ونكصوا حتى تراجع المهاجرون والأنصار، فحملنا على المشركين حتى أقحمناهم الحديقة، فقال أبو دجانة : ارفعوني على الترسه وألقوني في الحديقة، فضاربهم حتى فتحنا الحديقة فوجدناه ميتا رحمة الله عليه، وقتل مسيلمة لعنه الله في الحديقة قتله وحشي بعدما ضربه عبد الله بن زيد الأنصاري بسيفه فأوهته، ثم زرقه وحشي بحريته، والله أعلم أيهما قتله، انتهى.

ومشاهير الأبطال من الصحابة يفوت عددهم من طلبه، فأحرى غيرهم من سائر العرب في الجاهلية والإسلام، وليس مرادنا في هذه السرايا المذكورة في هذه الساقاة الاستقصاء، ولا بلوغ الغاية في الإحصاء، والشجاعة باقية في هذا الجنس الإنساني ما بقي الدهر، ولكن شجاعة كل زمان بحسبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

السرية الثالثة من القسم الثاني : في الحلم

هذه الخصلة من خصال الشرف العالي، ومن أحق ما يتصف به ذوو الألباب، وفيها راحة للأسرار، وسلامة للأعراض، واستجلاب للمحامد والثناء الجميل، لا سيما لولاية الأمر وملوك الأمم، فما أحوج من ولاء الله شيئا من أمور خلقه إلى ما يملك به قلوبهم، ويستدعي به رضاهم، وهو الحلم عليهم الذي هو غاية الإحسان إليهم، والنفوس مجبولة على حب المحسنين، قال بعض العلماء : حد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب، وقال جعفر الصادق : لأن أندم على العفو خير من أن أندم على العقوبة، وسئل أبوه محمد الباقر : ما حقيقة الحلم ؟ فقال كيف يعرف فضل شيء ما

ظهر كماله في أحد، فإن الناس أكثر ما يغشون أبواب الملوك عند تنازعهم، وضيق أخلاقهم، فإذا لم يكن الملك ذا حلم يرد به بوادهم تحمل من أمورهم حملاً ثقيلاً، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أعلى درجات منه، فقد أثنى الله على الخليل عليه الصلاة والسلام فقال {إن إبراهيم لأواه حليم} وقال في ولده الذبيح إسماعيل عليه السلام «فبشرناه بغلام حليم» وقال في نبيه شعيب عليه السلام على لسان قومه : {إنك لأنت الحليم الرشيد} وروي أن عيسى عليه السلام مر على قوم من اليهود الملاعين فقالوا له شراً : فقال لهم خيراً، فقبل له في ذلك، فقال كل ينفق مما عنده، انتهى، ولأجل ذلك قال بعض العلماء : كاد الحليم أن يكون نبياً.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في الدرجة العليا من الحلم، فكان لا يزيد على كثرة الجهل عليه إلا صبراً، ولا على إساءة المسيء إلا حلماً، قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها إلا أن تنتهك حرمة من حرم الله سبحانه، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً قوله تعالى {وقال نوح رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً} فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أحلمك وأكرمك ! لقد دعا نوح على قومه فهلكوا، ولو دعوت علينا لهلكنا عن آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمى وجهك، وكسرت ربا عيتك، وقيل لك : ادع عليهم فأبيت أن تقول إلا خيراً وقلت «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وروي أنه لما كذبه أهل مكة وبارزوه بالعداوة جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، فقال له : يا محمد إن الله أمر ملك الجبال أن يطيعك فيما تأمره به، وقال له ملك الجبال، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقلت، فقال صلى الله عليه وسلم «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»، وقد هبط عليه من التنعيم ثمانون رجلاً عند صلاة الصبح ليقتلوه فأخذوا فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك نزلت {وهو الذي كف أيديهم عنكم} الآية، وعفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره، وقد أوحى إليه بشرح ذلك فلم يعاتبه فضلاً على أن يعاقبه، وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة التي سمتها وشوتها وأهدتها إليه، فأخبره بذلك ذراع الشاة عند مناولته فدعي بها فاعترفت، وقال لها : ما

حملك على ذلك ؟ فقالت قلت إن كان نبيا لم يضره، وإن كان كاذبا أراحنا الله منه، فعفا عنها علي، الصحيح، ولما أظفره الله بأهل مكة بعدما فعلوا به من قتل أصحابه وعمه وتشييلهم بهم وتحزيبهم عليه، فما زاد علي أن عفا عنهم، وقال : ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال : أقول كما قال أخي يوسف « لا تشربا عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء » ومن ذلك حلمه عن عبد الله بن أبي وغيره من المنافقين بعد إطلاع الله له على خبث رأيهم وقبيح أسرارهم، وقال لمن سأله قتلهم « لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه » (37) إلى غير ذلك مما يناله من جفاة الأعراب، وكان يقول إذا رأى منهم جفاء وغلظة « يرحم الله أخي موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر » (38) وقال عليه الصلاة والسلام « وجبت محبة الله تعالى لمن أغضب فحلم » (39) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحلیم الحي ويبغض الفاحش البذي » (40) وقال للأشج عبد القيس « إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة » (41) وقال « إذا كان يوم القيامة ينادي : من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس »، ثم تلا « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وقال « ما ازداد أحد بعفو إلا عزا فاعفوا يعزكم الله » (42) وقال « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه » (43) ولما نزل قوله تعالى { فاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } سأل جبريل عن معناه ؟ فقال : « يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك وتعطي من حرمك » (44) وروي مثل هذا في قوله تعالى { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأسبينك سبّا يدخل معك قبرك، فما زاد علي أن تبسم وقال : بل معك يدخل يا أخي والله لا معي، واغتاضت عائشة رضي الله عنها على خادم لها، ثم رجعت

(37) رواه البخاري في كتاب التفسير.

(38) رواه البخاري ومسلم.

(39) رواه ابن عساکر في تاريخه والاصفهانى في تروحيه.

(40) رواه الطبرانی.

(41) متفق عليه.

(42) رواه مسلم.

(43) لم نقف على تخريجه.

(44) رواه أصحاب السنن.

إلى نفسها فقالت : لله در التقى ما ترك للغیظ شفاء، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عیینه بن حصن استأذن له الحر بن أخیه على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فلما دخل علیه قال له : والله يا بن الخطاب ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر وهم أن يوقع به، فلما رأى ذلك ابن أخیه، قال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافا عند كتاب الله تعالى، انتهى.

وأقوى ما ورد في حلم عثمان رضي الله عنه قضية يوم الدار إذ قام عبیده وخواصه وجماعة من المهاجرين ليقاتلوا الذين حاصروه، فقال لعبیده من أغمد سيفه فهو حر، وقال لغيرهم : من كانت لي في عنقه بيعة فليغمد سيفه، فقالوا إنهم يقتلونك ؟ قال : وإن قتلوني فلا تراق دماء المسلمين بسببي، وكان مولانا علي رضي الله عنه يحرض على الحلم ويوصي به ويقول : من تحلم ساد، ومن تفهم ازداد، وقال له سلمان يوما : ما الذي يباعدني من غضب الله ؟ قال : ألا تغضب، وقال يوما لعامر بن مرة : من أحق الناس ؟ قال : الذي يظن أنه أعقل الناس، قال : فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال، قال : صدقت، وقال : أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره، ولذلك كان الأحنف يقول : وجدت الحلم عن الرجال أنصر لي من الرجال، وما ذاك إلا لأن من حلم كان الناس أنصاره، وقال أكثم بن صيفي : العز والغلبة للحليم، وقال معاوية رضي الله عنه لخالد السدوسي : إنك تحب عليا حبا مفرطا ؟ فقال : أحبه والله لحلمه إذا غضب، وعدله إذا حكم، ووفائه إذا وعد، وصدقه إذا حدث، وسأل علي رضي الله عنه أحد كبراء الفرس عن أحمد ملوكهم عندهم ؟ فقال : لأزدشير فضل السبق، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال : فأى أخلاقه كان أغلب ؟ قال : الحلم والأناة، فقال علي رضي الله عنه : هما توأمان ينتجهما علو الهمة، ولما قبض الملعون ابن ملجم بعد طعنه لعلي رضي الله عنه قيل له : ما تأمرنا أن نصنع به ؟ قال : إن أعش فالأمر إلي، وإن مت فالأمر إليكم (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، وروى أنه دعا غلاما له يوما فلم يجبه، فدعاه ثانيا وثالثا كذلك فقام إليه فرآه مضطجعا، فقال : أما سمعت ندائي ؟ قال : بلى، قال فما منعك من جوابي ؟ قال

أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال : امض فأنت حر لوجه الله العظيم {ومن كرم الرجل سوء أدب غلمانه} (45)، وقال إنا نصافح أكفا نود قطعها، واستمر ذلك في أهل بيته رضي الله عنهم، فروي أن رجلا من أهل الشام قال : دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة فلم أر أحسن منه وجهها ولا سمئاً ولا مركوباً، فقال قلبي إليه، فسألت عنه فقبل لي : هو الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فجئته وقلت له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال لي : أنا ابنه، فقلت : فعل الله بك وبأبيك، وجعلت أسبه وأسب أباه وهو يتبسم، فلما انقضى كلامي قال : أحسبك غريباً ؟ فقلت أجل، فقال : إن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإن احتجت إلى مال واسيناك، وإن احتجت إلى معونة أعناك، قال : فانصرفت وما على وجه الأرض أعز ولا أحب إلي منه، وكان لسيدنا الحسين رضي الله عنه غلام جنى جناية توجب عقوبة شديدة، فلما أقعده للضرب قال : يا مولاي «والكاظمين الغيظ» فقال : قف فقال : يا مولاي «والعافين عن الناس» قال : قد عفوت عنك، قال : يا مولاي «والله يحب المحسنين» قال : أنت حر لوجه الله العظيم، ولك ضعف ما كنت أعطيك، وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر أنه كان يقول : من كظم غيظاً يقدر على إمضائه حشا الله قلبه إيماناً، وكان ابنه جعفر الصادق يقول : لأن أندم على العفو أحب إلي من أن أندم على العقوبة، وروي أن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي هجاء أبو عاصم الأسلمي، فلما ولي الحسن المدينة أتاه مستنكراً في زي الأعراب وأنشده :

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد	وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل مد غاب عنها	أبو حسن تعاديهما الدهور
قبور لسو بأحمد أو علسي	يلسو مجيرها حفظ المجير
هما أبواك من وضعا فضعه	وأنت برفع من رفعا جدير

فقال الحسن : من أنت ؟ قال أبو عاصم الأسلمي، فقال ادن حياك الله ويسط له رداءه وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وكان الداعي العلوي صاحب طبرستان من ولد الحسن هذا، فكان إذا افتتح

(45) ساقط من (م).

الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها، فيفرقه في قبائل قريش على درجاتهم، وفي الأنصار والفقهاء وأهل القرآن وسائر الطبقات حتى لا يبقى منه شيء، فجلس في سنة من السنين ليفرق على عادته فبدأ ببني عبد مناف، فتقدم إليه رجل فقال : من أي بني عبد مناف أنت ؟ قال له : من بني أمية، فقال : لعلك من بني معاوية ؟ ومن ولد يزيد ؟ قال نعم، قال بئس ما اخترت لنفسك، إذ جئت آل أبي طالب وعندك ثأرهم، وجعل العلويون ينظرون نظرا منكرا، فقال لهم الداعي : كفوا عافاكم الله تعالى، فليس في مثل هذا أدرك لشار الحسين، وقد حرم الله تعالى أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت والله لا يعرض له أحد إلا أقدمته به، واسمعوا مني حديثا يكن لكم قدوة، حدثني أبي عن أبيه قال : عرض على المنصور سنة حج جوهر فاخر فعرفه وقال : هذا كان لهشام بن عبد الملك وصار لابنه محمد، وما بقي أحد غيره، ثم قال للربيع : إذا كان غدا وصليت بالناس في المسجد الحرام فأغلق أبوابه كلها وافتح بابا واحدا وقف عليه فلا يخرج إلا من عرفته، فلما كان الغد فعل الربيع ذلك فعرف محمد إذ ذاك أنه المطلوب، فتحير، وإذا بمحمد بن زيد بن علي بن الحسن، فلما رآه متحيرا وهو لا يعرفه أنكر أمره فقال له : يا هذا أراك متحيرا ؟ فمن أنت ولك الأمان، وعلي تخلصك إن شاء الله، قال أنا محمد بن هشام بن عبد الملك، فمن أنت ؟ قال أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسن، قال : فعند الله احتسب نفسي إذن، قال : لا بأس عليك يا ابن عمي، فإنك لست قاتل زيد، وأنا أولى بخلاصك مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه يكون سبب خلاصك إن شاء الله تعالى، فقال : أنت وذاك، فطرح رداءه في عنقه وليبه وأقبل يسحبه، فلما قرب من الربيع بحيث يراه لطمه وقال للربيع يا أبا الفضل هذا الخبيث، جمال من الكوفة أكراني جماله ذاهبا وعائدا وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى لبعض قواد خراسان، ولي عليه شهود، فضم إلي حرسين يسيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخرساني من التعرض لنا، فأمر الربيع حرسين فمضيا به معه، فلما بعد من المسجد قال له : يا خبيث أتؤدي إلي حقي ؟ قال نعم، يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للحرسين انصرفا في حفظ الله، ثم أطلقه، فقبل محمد بن هشام رأسه وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته، ثم أخرج

جوهرا له قدر عظيم ودفعه له وقال : يا سيدي تشرفني بقبوله فأبى، وقال إنا نحن أهل بيت لا نأخذ على معروف أجرا، وقد تركت دم زيد وهو أعظم قدرا من متاعك، فأنصرف رحمك الله راشدا واختف من هذا الرجل، فإنه مجد في طلبك، فأنصرف وقد نجا ثم أمر الداعي للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمره أن يبلغوه مأمنه، ويأتوه بخطه بسلامته.

وكان معاوية رضي الله عنه يقول : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا يواربها ستري، ويقول : إني لألقى الرجل أعلم في قلبه علي ضغنا فأستشير فيثور إلي منه بقدر ما في نفسه، فيوسعني شتما وأوسع حلمي، حتى يعود صديقا أستنجده فينجدني، وقسم يوما قُطُفاً على الناس فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة لم تعجبه فحلف أن يضرب بهما رأس معاوية، وجاء وأخبره وقال له أوف بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ، وكان قيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه من أشهر العرب بالحلم، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مسلما «أتاكم سيد أهل الوبر» (46) وفيه يقول بعض الشعراء وقد مر على قبره :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ غادرته غرض الردى إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان خال الأحنف بن قيس، ومنه تعلم الأحنف الحلم، قال : بينما نحن عنده يوما جلوس إذا جاءته خادم بسفود عليه شواء فسقط من يدها على ابن له صغير كان بين يديه فمات، فدهشت الأمة فقال : لا روع عليك أنت حرة في سبيل الله، وقال لا يذهب ما أصابها من الروع إلا سرورها بتعجيل العتق، وسئل الأحنف ممن تعلم الحلم ؟ فقال من خالي قيس بن عاصم، ولقد كنا نتردد إليه لتعلم الحلم كما كنا نتردد إلى العلماء لتعلم

(46) قيس بن عاصم، قال ابن سعد : كان قد حرم الخمر في الجاهلية ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم، فأسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا سيد أهل الوبر، وكان سيدا جرادات نحو 20 هـ 640 م بالبصرة. «الاصابة» ج 3 ص 252 «درغبة الأمل» ج 3 ص 10 ج 4 ص 99-234.

العلم، وكنا يوما عنده وهو جالس يحدثنا فإذا بجماعة قد أتوا بقتيل ومكتوف وقالوا له : هذا ابنك قد قتله أخوك هذا، فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ، ثم أنشد :

أقول للنفس تأسساءً وتعزيسةً إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت الى ابن له آخر وقال يا بني : أطلق عمك ووار أخاك وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ولدها فإنها غريبة فيكم، والبيتان اللذان تمثل بهما هما لامرأة من العرب قتل أخوها ابنها فأنشدتهما في ذلك، وقد ذكروا قضية الحيص البيص الذي قتل جرو كلبة فهجاه بعضهم، والقصة مشهورة لا تطيل بها، وكان الأحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم، روي أن رجلاً أدركه في طريق فجعل يسبه بأقبح سب وهو يماشيه، فلما قرن من الحي وقف الأحنف وقال يا أخي إن كان بقي لك شيء من السب فقله ها هنا، فإني أخشى أن يسمعك فتیان الحي فيؤذوك، وجعل عمرو بن الأهتم ألف درهم لمن يسفه الأحنف فأقبل عليه رجل يسبه سباً عنيفاً ليغضبه، والأحنف مطرق صامت، فلما رآه الرجل لا يكلمه جعل يعض أصابعه ويقول واسوأته والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه، وفعل به آخر كذلك وأطال إلى أن أراد الأحنف القيام إلى الغذاء فأقبل على الرجل وقال : يا هذا إن غذاءنا قد حضر فانهض بنا إليه فإنك منذ اليوم تحذو على جمل ثفال أي بطيء، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول ما قرن شيء إلى شيء أفضل من علم إلى حلم ومن عفو إلى قدرة ويقول : من اجتمعن فيه فقد سعد من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر عفا وصفح، وجنى رجل في أيامه جناية أوجبت عقوبته، فنذر لئن أظفره الله به ليفعلن به ما يستحقه فلما ظفر به أمر بعقوبته فقال له رجاء بن حيوة قد فعل الله لك يا أمير المؤمنين ما تحب فافعل أنت ما يحب الله من العفو، قال صدقت وأمر بإطلاقه، وأسمعه يوماً رجل كلاماً يكرهه، فقال له عمر : لا عليك إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنا لك منك اليوم ما تناله مني غداً، فأنصرف غفر الله لك ورحمك، فأنصرف وهو يقول :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عجزوا لأقوام
ويشتموا فتسرى الألوان كاسفة لا صفح ذلّ ولكن صفح أحلام

وروى أن المهدي العباسي نذر دم رجل كان سعي في فساد دولته وجعل لمن دل عليه ألف درهم، فتوارى الرجل حيناً ثم ظهر وهو خائف يترقب، فرآه من عرفه فأخذ بمجامع ثوبه وقال : هذا بغية أمير المؤمنين، فأيقن الرجل بالهلاك، وإذا بوقع الخوافر فنظر الرجل فإذا معن بن زائدة في موكبه، فصاح يا أبا الوليد أجرنني أبارك الله، فوقف معن وقال للذي تعلق به أرسله، فقال له : إنه بغية أمير المؤمنين الذي بذل فيه لمن دل عليه ألف درهم، فقال انطلق إليه وأخبره أنه عندي، وحمل معن الرجل وانطلق الآخر الى المهدي بالخبر، فأمر بإحضار معن، فلما أتاه الرسول دعا بنيه ومواليه وقال لهم : لا يخلص أحد إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف وركب وأتى المهدي فسلم عليه ولم يجبه وقال : أتجير علي يا معن ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، قال ونعم أيضاً، واشتد غضبه، فقال معن يا أمير المؤمنين قتلت على طاعتكم في يوم واحد خمسة عشر ألفاً إلى أيام أخرى كثيرة كان لي فيها حسن بلاء أفما تروني أهلاً أن يوهب لي رجل واحد استجار بي ؟ فأطرق المهدي كثيراً ثم قال : قد أجرنا من أجرت، وقال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة فيكون قد أحياء وأغناه ؟ فقال قد أمرت له بخمسة آلاف، فقال يا أمير المؤمنين إن الملوك صلاتهم تكون بقدر جنيات الرعية، وإن ذنب الرجل كبير، وعفو أمير المؤمنين أكبر، فأجزل له الصلة، فقال : قد أمرت له بمائة ألف، قال عجلها يا أمير المؤمنين فإن أفضل الخير أعجله، فأمر بتعجيلها له، فدعا له معن وانصرف ولحق به المال فأعطاه للرجل وقال : الحق بأهلك وإياك ومخالفة الخلفاء فيهم يؤيد الله الدين ويحوط الإسلام.

وقيل إن هارون الرشيد خرج عليه رجل فجهز إليه جيشاً فظفروا به، فلما أدخل عليه قال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، فأطرق الرشيد ملياً ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلما خرج قال بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين يقتل رجالك، ويفني أموالك، وتفلقته بكلمة واحدة ؟ هذا يجري عليك أهل الشر، فأمر برده، فعلم الرجل أنه سعى به عنده، فلما وقف بين يديه قال : يا أمير المؤمنين، لا تطعمهم قئاً، فلو أطاعهم الله فيك ما استخلفك عليهم لحظة واحدة، فأمر بإطلاقه وقال لهم لا تعاودوني فيه.

وكان للمأمون في الحلم ما برز به على سائر أهل بيته حتى صار له جبلة، فكان يقول : ليس علي في الحلم مشونة، ولو وددت أن أهل الجرائم علموا رأيي في العفو، فذهب عنهم الخوف مني، فخلصت لي قلوبهم، وقال أيضا : لقد حبيب إلي العفو حتى إنني خفت أن لا أوجر عليه، ولو علم الناس بما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إلي بالجرائم، قال القاضي عمر بن الحبيب العدوي (47)، وفد أهل البصرة على المأمون وأنا معهم، وكنت أصغرهم سنا لينظر لهم قاضيا فنحن معه إذ جيء برجل مقيد مغل، ثم بسط النطع وجيء بالسيف وأمر بضرب عنقه، فقلت في نفسي : لأقومن فأكلمه لعل الله تعالى ينجي هذا، فقامت وقلت يا أمير المؤمنين حدثني أبوك عن جدك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من بطنان العرش ليقم من كان أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه» (48) فاعف عنه عفا الله عنك فقال المأمون : آله أن أبي حدثك بهذا الحديث، فقلت والله إن أباك حدثني به، فقال : صدقت أن أبي حدثني به على الوجه الذي ذكرت فأطلقوه وأمر لي بالقضاء انتهى، ولما خالف عمه إبراهيم بن المهدي عليه وظفر به في خبر طويل عجيب مشهور، ووقف بين يديه وأنشده :

أتيت ذنبًا عظيمًا وأنست للعفسو أهل
فإن عفوت فمسن وإن جزست فعسدل

رق له المأمون وقال له : لو لم يكن يا عم في حق رحمك ما يوجب الصفيح عنك لبلغك ما أملت حسن توسلك، ولطف تنصلك، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق المعتصم وابنه العباس ومن حضره وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشاروا عليه بقتله، وسكت أحمد بن أبي خالد (49) وكان وزيره وقال له : تكلم، فقال يا أمير المؤمنين : إن قتلت فلك نظراء تقدموا واقتديت بهم، وإن عفوت لم يكن لك نظير، فنكس المأمون رأسه ساعة ينظر متفكرًا، ثم أنشد متمثلاً :

(47) عمر بن حبيب العدوي قاض، من رجال الحديث، ولي قضاء البصرة وغيرها في خلافة المأمون، لم نعثر على وفاته، وكيع في "أخبار القضاء" ج 2 ص 142، "تهذيب التهذيب" لابن حجر ج 7 ص 432 "الأعلام" ج 5 ص 43 (سير أعلام النبلاء) ج 9 ص 409.

(48) لم نلق على تخريجه.

(49) أحمد بن أبي خالد، كان من الموالى عند المأمون العباسي، وهو على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتبًا فصيحًا، بصيرًا بالأمر، وقد وزره ت 210 هـ 825 م (تاريخ الإسلام السياسي) لحسن إبراهيم حسن ج 2 ص 257.

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت أصابني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جكلاً ولئن سطوت لأوهنن عظمي

ثم قال المأمون يا عم لا تشرب عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك جميع أموالك وضياعك، وقد شاورت العباس وأبا إسحاق فأشارا بقتلك، فرأيت أن حقدك أعظم من جرمك، فعفوت عنك، فإن غيرت فالله مغير بك، فقال إبراهيم بن المهدي : أما إنهما قد بلغا في نصحك الغاية رعيًا لعظيم قدر الخلافة، وما جرت به عادة السياسة، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم أنشد :

أفديك يا خير من يعيا (50) بمؤتلف
اثني عليك بما أوليت من نعم
رددت مالي ولم تبخل علي به
فأبت منك وقد خولتني نعمًا
وقام علمك بي فاحتج عندك لي
لئن جحدتك معروفًا مننت به
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به
ما كان ذاك سوى عارية رجعت
رأيت ذلك أجرا فاحتسبت به
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به

فقال المأمون : قد مات حقدني عليك بحياة عذرك، وأعظم من عفوي عنك رفعي عنك مرارة شفاعة الشافعين، انتهى ؟ ولما قال عبد الله بن طاهر الخزاعي قصيدته التي يذكر فيها مآثر أبيه ويفخر فيها بقتلهم المخلوع محمد بن زبيدة الأمين عارضه محمد بن يزيد الحصني، وكان من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان فأفرط في السب وجاوز الحد، في قبيح الرد، فمن ذلك قوله :

يا بن بيت النار يوقدها ما يحاذيه سراويل
من حسين ومن أبوك ومن مصعب غالتكم غول
نسب في الخزي مؤتشب وأبوات أراذيسل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مطلسل

(50) لمي (م) يفر و (ف) يعيا..

وهي طويلة، فلما ولي عبد الله بن طاهر مصر ورد إليه تدبير أهل الشام قامت على الحصني قيامته، وعلم أنه لا يفلت منه إن هرب، فأقام بموضعه مستسلما وفتح باب حصنه، قال محمد بن الفضل : وكان من خواص ابن طاهر لما شارفتا بلده، ونحن نتوقع من الأمير أن يوقع به، دعاني عبد الله ليلا فقال : بت عندي، وليكن فرسك معدا، فلما كان السحر أمر أصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب في السحر، وأنا وخمسة من غلمانہ الخاصين به معنا، فصبحنا الحصني وإذا بباب حصنه مفتوحا، وهو جالس مترسل، فقصده عبد الله وسلم عليه، ونزل وجلس عنده، وقال له : ما حبسك هاهنا وحملك على فتح باب حصنك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل مع ما في نفس أميره عليك فقال : ان هذا لم يغب عني ولكن فكرت في أمري فقلت إني أخطأت في أمري خطيئة حملني عليها نزق الشباب، وإني وإن هربت لم أفته، فاستسلمت نفسي، وكل ما أملك فأنا من أهل بيت أسرع فينا القتل ولي فيمن مضى أسوة، ووثقت بأن الرجل إذا قتلني وأخذ مالي شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، فوالله، ما تلقاه عبد الله إلا بدموعه على خديه، وقال له : أتعرفني ؟ قال : لا والله، قال أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله خوفك، وحقق دمك، وحرس نعمتك، وصان حرمك، وما تعجلت لك وحدي إلا لتأمن قبل هجوم الجيش لثلا تخالط عفوي عنك روعة تلحقك، فبكى الحصني فرحا وقام وقبل رأسه، فضمه عبد الله وأدناه، ثم قال : أما إنه لا بد من عتاب، إني قلت شعرا في قومي أفخر بهم، وكانوا أهلا لذلك، ولم أظعن فيه على حسبك، ولا ادعيت عليك فضلا، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهو من القوم الذين تارك عندهم، وكان يسعك السكوت وإن لم تسكت لا تسرف، فقال : أيها الأمير الكريم، قد عفوت تفضلا، فاجعله عفوا لا يخالطه تشريب، ويكدر صفوه بتأنيب، قال : قد فعلت، فقم بنا ندخل منزلك حتى توجب علينا حقا بالضيافة، فقام مسرورا ودخلنا منزله وأتى بالطعام كأنه كان أعده، فأكلنا وجلسنا نشرف في مستشرف له، وأقبل الجيش، فأمرني عبد الله أن أشير عليهم بالجواز، وأن لا يتزلوا إلا بعد ثلاثة فراسخ، وأقام عنده إلى العصر، ثم دعا بدواة وكتب له بتسويغه خراجہ ثلاث سنين، وقال له : إن نشطت فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك، فقال : بل أ تجهز وألحق

بالأمير، ففعل ولم يزل عنده أثير المنزلة مدة ولايته.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، إن أخبار الحكماء المنقولة في دواوين أهل الأدب لا تنحصر، ولا فرق بين المطنب والمختصر، وقد أشرنا إلى المستحسن الكافي في هذه السرايا العشر، واكتفينا من ذلك بخالص اللب دون القشر، وبقي الكلام على الأمور التي لها بالرياسة الكبرى غاية الاشتباك، ولا يمكن عنها انفكاك، وهي (الوزارة) و (الحجابة) و (القهرمانة) وهي من جملة السرايا المرصودة في هذه الساقة.

حكم الوزارة

أما الوزارة، فهي التي يسدل بها الملك رداءه ويعقد إزاره اعلم أنه لما كانت الرياسة الكبرى التي هي سياسة النوع الإنساني من أعظم المشاق اللاحقة بالظاهر الجسماني، والباطن النفساني، كما قال بعض رؤساء الحكماء : لمعانة نقل الجبال من أماكنها بأضعف الجبال، أهون من معاناة قلوب الرجال، كان الملك القائم بها أحوج الناس للمؤازرة وهي المعاونة على ما دفع إليه من استرعاء أحوال الخلق، فإنه لا يقدر على الاستغناء عن غيره حتى في أمور نفسه الخاصة به، في تدبير معاشه، فأحرى أمور الرعية، فلا بد له حينئذ بالضرورة من يشد به أزره، ويشاركه في أمره كما قال نبي الله موسى عليه السلام : (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي) وقال تعالى : {وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً} وما زال الأمر على هذا فيما قبل الإسلام في دول فارس والروم حتى جاء الإسلام الطاهر الظاهر على الأديان، وصار الملك خلافة، وذهب رسم الملك، وذهبت تلك الخطط اللازمة له بذهابه، وبقيت المعاونة بالرأي والمفاوضة في المصالح المستجلبة، والمفاسد المستدفة، فلم يمكن زوال هذا إذ هو أمر طبيعي لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في المهمات العامة والخاصة فيما لم يوح إليه فيه شيء، ويخص الصديق بخصوصيات أخرى حتى كان بعض العرب الذين عرفوا دول العجم قبل الإسلام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا كان عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر، ولم تكن العرب تعرف لفظ الوزير في هذه المرتبة، وإنما علمها منهم من خالط العجم كما ذكرنا، هذا حاصل ما

ذكره ابن خلدون، وقد اختصرناه وحصلناه وشرحناه بزيادة عليه وقد ذكرنا أن السلطان لا يستغني عن غيره بالضرورة وأنه لا بد له من أعوان، وهم أصحاب الخطط الأربعة التي قلنا إنها تلازمه، ولا تنفك عنه ولا ينفك عنها، وأشدّها الوزارة التي معناها في لفظها فهي أما من المؤازرة التي هي المعاونة وذلك أظهر من غيره، وأما من الوزر الذي هو الحمل، وذلك لأن الوزير يشارك الملك في تحمل المحمولات، وثقل النوائب والشدائد، فعلى هذا كل أمر تكون فيه معاونة السلطان يقال لمن تولى ذلك الأمر وزير، سواء كان ذلك الأمر من ناحية رئاسة السيف، أو من ناحية رئاسة القلم» هذا على الوجه العام الذي يقتضيه الاشتقاق المذكور (51)، وأما ما جرت به الأعراف في الدول السابقة فهو مختلف كل دولة تطلق لفظ الوزير على ما جرى به عرفها، ويعلم ذلك باستقراء أخبار الدول الماضية، فمن الدول من لا يسمى الوزير إلا من له أعنة الخيل، واستتباع حملة السلاح، ومنهم من يشترط في هذا أن يكون من قبيل السلطان وذوي رحمه، ومنهم من لا يشترطه، ومن الدول من يطلق الوزير على رئيس الكتاب الذي له التصرف التام في جميع أمور الباب {السلطاني} (52)، وهذا هو الواقع في زماننا وما قرب منه، بل ولو لم يكن له حظ في الكتابة، وإنما له النظر العام في الكتاب وغيرهم من رؤساء الأجناد، ومباشرة العمال، والوساطة بين الناس وبين السلطان مثل العربي قادوس عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والقائد أحمد مولى أتابي عند السلطان العادل مولانا سليمان، وإذا كان مع ذلك يحسن الكتابة والترسيل فهو غاية الكمال فيه، كالسيد عبد العزيز الفشتالي عند المنصور السعدي، ومثل العلامة الرئيس أبي العباس اليماني عند مولانا إسماعيل، ومثل أخينا في الله جمال الدولة أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس عند السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، ومثل سعد الدولة الوزير الأعظم أبي الثناء سيدي الطيب بن اليماني عند مولانا المظفر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان.

ولابأس بالإشارة الخفيفة إلى بعض أحوال هؤلاء الوزراء المذكورين في هذا اللواء الشريف الحسني أعز الله بها برهانه.

(51) ما بين القوسين ساقط من (م).

(52) ما بين القوسين ساقط من الأصل و (شر) و (ف).

أما الوزير أبو العباس اليعمدي

فقد كفانا مؤونة التعريف به الفقيه العلامة الداهية أبو الحسن السيد علي المصباحي بتأليفه المسمى "سنا المهتدي الى محاسن اليعمدي" (53) وهو تأليف عجيب ملأه آداباً غضة، أنصع من جوهري الذهب والفضة، وهو موجود تقر به عين من وجده، وملك لؤلؤه وعسجده، وهو من أنفس الذخائر، التي يفاخر بها من يفاخر، رأيت نسخة منه بخط مؤلفه بفاس عند بعض حفدة المؤلف، ذكر فيه المؤلف أن اليعمدي منسوب الى بني يحمى، مضارع حمد يحمى فهو إذن بفتح الميم لا بكسرهما كما يجرى على الألسنة، وهي قبيلة من قبائل جبال الزيب، وكفى هذا الوزير ثناء عليه ما تقدم لنا في راية مخدمه السلطان الأعظم مولانا إسماعيل بن الشريف أنه لما ولى ولده مولاي المأمون مراکش أمره أن يذهب إلى رئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه الكبير أبي العباس اليعمدي يأخذ منه رسم التقليد، ويسمع وصيته، ويعمل بها، وكان مولاي المأمون يكره اليعمدي أشد الكراهة، فتوجه إليه كرها وأخذ المكاتب من عنده، وسمع وصيته جبراً عليه، وعاد إلى والده وقال له يامولاي : إن اليعمدي ينقصك ويزعم أنه هو الذي علمك الدين، وأنتك جاهل لا تعرف الفرض والسنة، فقال له السلطان : والله إنه لصادق إن قال ذلك، هو الذي علمني ديني، وعرفني بري، انتهى، فهذا يدل على فضل السلطان والوزير والله ذو الفضل العظيم.

وأما الوزير أفاندي العربي قادوس

وهذا اللفظ عجمي، وهو أفاندي، فإن سلطانه سيدي محمد بن عبد الله كان يدعو به بذلك استعظاماً واستفخاماً لشأنه، وكان من مواليه الذين نشأوا في حجب تربيته، ورضعوا أخلاق حضرة الملك وارتشفوا لبانها، وتدرجوا في مغارس الرفاهية أنبوا فأنبوا حتى صاروا دوحه، وصار غاية العز أفنانها وقضبانها، وأصله من أعلاج الإسبنيول كما أخبرني ولده السيد محمد، وكان الوزير المذكور شعلة من الذكاء والفتنة، وركنا شديداً من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من

(53) علي بن أحمد المصباحي الزروالي صاحب كتاب سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير ابن العباس اليعمدي ترجم فيه لوزير السلطان المولى إسماعيل، توفي سنة 1150 هـ 1737 م.

أمور الحضرة قليل ولا كثير، وكان شأنه في أمور الكتابة أن يأمره السلطان أن يأمر الكتاب بالكتابة لفلان بكذا، ولذوي فلان بكذا، فيكتبون ما أمرهم به فيأخذه منهم ويطبعه ويدخل إلى حضرة السلطان فيسرد عليه تلك الأوامر، ثم يخرج بها ويدفعها لأربابها.

ومن أغرب ما نقل عنه في هذا أن السلطان أمره ذات ليلة أن يكتب نحو ثمانين كتاباً في أمور متعددة مختلفة، فنسي أن يملئها على الكتبة، فلما جاء في الصباح دعاه السلطان وقال له كتبت تلك المكاتب، فلم يجد بداً من أن يقول نعم، وكانت الرقاع البيض تكون عنده مطوية مهيسة للكتابة فيها، فجعل يخرج صفيحة بيضاء وينظر فيها ويسرد على السلطان مضمن المراد لفلان ويطويها، ثم يأخذ أخرى كذلك حتى سرد عليه جميع تلك الأوامر التي أمره بها والسلطان يظن أنها مكتوبة مطبوعة على العادة، فخرج إلى الديوان فأملى على الكتاب [فكتبوها] (54)، ودفعها لأربابها، هكذا أخبر بعض أصحاب السلطان المذكور، وهذا من العجائب إن صح، وقد أدرك من فخامة الجاه، وضخامة الرياسات أقصى الغايات، قالوا : كانت الملوك الأعظم تقيم ببابه فلا يتيسر لهم لقاءه إلا بعد ثلاثة أيام ونحو ذلك، ولما مات السلطان امتحن مولاي اليزيد ذلك الوزير غاية الامتحان، وفعل في عذابه ما يبغضه الله، ويحببه الشيطان، وعند الله تجتمع الخصوم، ويقتص من الظالم للمظلوم.

وأما الوزير الأكبر، الحاجب الأشهر، الرجل الصالح، القائد أحمد، فإنه أحق أن يخص ويفرد

كان هذا الرجل مع طول رياسته، ونفوذ كلمته، في جميع مملكة المغرب، واتصال عزه، وعدم منازعته ومشاركته في مرتبته، ما نقلت عنه قط مظلمة ارتكبها، ولا موبقة اعتمدها، ولا مسألة خان فيها مخدومه أو لبس عليه فيها، أو مضرة كتمها عنه اتباعاً لهواه، أو موافقة لغيره، كان سلطانه العادل يذكر عنه ذلك ويمدحه به في كثير من المقامات رحمهم الله تعالى، كانت وزارته ممتدة بطول ولاية سيده نحواً من ثلاثين سنة، ولا أظنه فاته صلاة في جماعة حضراً وسفراً ولا يفارقه دلائل الخيرات في قبه كلما

(54) ما بين القوسين ساقط من (م) و من الأصل.

وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأها، ما تيسر منه، مع ملازمة أوراده، وإقامة الرواتب المشروعة، هكذا رأيناه، وأما مباشرته الناس، وملازمة الضعفاء وذوي الحاجات والضرورات، فكان أرحم وأرفق بهم من الوالدة بولدها، ولا يخاطبهم إلا بالسيادة والتمويل، وأما أن يقهر أحداً أو يسبه فإنه في البعد الأبعد عن ذلك، وكان هو ووالداه وإخوته ممالك لمولانا السلطان العادل رحمه الله أعطاهم له والده السلطان سيدي محمد، فنشأ الوزير في كفالتة، وتخلق بأخلاقه، من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل، فإنه من يوم قتل رحمه الله سنة خمسة وثلاثين ومائتين وألف، انتشر نظام مملكته، واختلت أسبابها، فلم تنزل في اضمحلال حتى انطفأ سراجها، وكان قتله عبيد البخاري ظلماً وعدواناً بعد رجوع السلطان من وقعة زيان، وكان السلطان بعد قتله يقول في كثير من الأمور : لو كان أحمد حياً ما وقع هذا، أو لكان كذا، ومن مناقبه الدالة على فضله الذي لا يطمع في مثله إلا أفراد الرجال، أنه خرج من الدنيا ولم يخلف قليلاً ولا كثيراً إلا كسوته التي على ظهره مع ما ذكرناه من عظم الشأن، وعلو المرتبة، ونفوذ الكلمة في أقطار الأرض، فإنه كان هو السلطان في حقيقة الحال.

حدثنا السلطان العادل رحمه الله تعالى وقد ذكره يوماً وأكثر من الثناء عليه حتى قال : والله لو لا أنني كفنته وجهزته ما وجد ما يكفن به، فإننا وجدنا في صندوقه الذي وجدنا مفتاحه معلقاً معه ستمائة مثقال، ووجدنا زماماً بخطه عليه من الدين ستمائة مثقال، فقضينا ذلك الدين بتلك الدراهم فخرج من الدنيا كيوم وضعته أمه، مع ما ظفر به من الشهادة، انتهى، فمن سمع هذا وتحققه فليعلم أن من سبقت له السعادة لا يضره شيء، فهذا الرجل قد خاض في غمرات الدنيا وقام في مقام مجموع الفتن، ومزرعة المظالم والسيئات، التي تستفز الرجال، وتهد الجبال، ووقف مع الذين قيل إنهم دعاة على أبواب جهنم، فلم يتعلق به من تلك الأدناس شيء، وأدرك الفوز الذي وقف دونه أطماع السابقين، فسبحان المتفضل الكريم، الواسع العليم، ومن تشوف إلى البرهان على ما ذكرناه، يقال له طلبك البرهان على مثل هذا مما لا تقول به أولو العقول والأذهان، فهل رأيت هذا الرجل شيد القصور، أو غرس البساتين، أو تأثّل الأصول، أو

ادخر الذخائر، أو استعد للنوائب، كما يفعله من عمر دنياه ولم يبال بما
تخرب من أخراه عافانا الله بفضله آمين.

وأما الوزير العلامة المفوه الرئيس أخونا في الله

سيدي محمد بن إدريس

فإنه كان عصام الدولة وحلية جمالها، ومجلى محاسنها ومظهر
كمالها، بآثاره تزي دولة بني مولانا هشام، بدولة بني مروان بالشام،
ساعده أحكام السعود، وعاملته بإنجاز الوعود، فأدرك في ظلال دولة
السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان من الجاه والعز والصولة، ما لم يدركه
الوزير المهلبى مع ملوك الديلم ومعز الدولة، فضحككت له الأيام بعد
عبوس، وأركبته أعز المراكب وألبسته أفخر ملبوس، وبيتته في فاس ومنبته
منبت طيب، وأصله الأصيل ناشئ عن واكف من الأصالة صيب، وجدت
بخطه يوما في ذكر بعض آبائه الكرام، محمد بن إدريس بن محمد بن
إدريس بن محمد بن إدريس ثلاث مرات، فقلت له ما هذا التكرار ؟ فقال
لي : هكذا بخط والدي مرفوعا إلى السيد محمد بن الإمام إدريس بن
إدريس بن عبد الله الكامل، تكرر محمد بن إدريس في عمود آبائنا تبركا
بالجد المذكور، وقال : فقلت لوالدي هذا النسب صحيح ؟ فقال : هكذا كان
أباؤنا ينتسبون، وكانت عندهم ظهائر الملوك المتضمنة للتوقير والاحترام،
وضاعت لهم في بعض الفتن الواقعة في باديتهم قبل انتقالهم لفاس، وكان
بعض من ذكر في ذلك العمود، وهو السيد عبد القادر بن محمد بن إدريس
رجلا صالحا زاهدا في الدنيا معرضا عن كل شيء من أسبابها، وكان
أولاده أرادوا تجديد تلك الرسوم التي ذهبت فنهاهم عن ذلك، وقال لهم :
أما النسب فإنه ثابت لنا والحمد لله بالحياة المستمرة، والمزية النافعة النفع
الحقيقي إنما تظهر في الآخرة، وأما في الدنيا فإن كان مرادكم التوقير بين
الناس والخروج من وظائف العوام فأنا ضامن لكم ذلك إلى آخر الدنيا،
انتهى.

(قال عليه غفر الله له : ينبغي هنا التنبيه لنكتة جليلة، وذلك أن أكثر
الناس، لا سيما من يدعى الورع يزهد في الانتساب إلى من لم يتحقق له

عنده الاتصال به، مثل هذا السيد الذي نهى أولاده عما ذكر، وذلك جهالة محضنة، ومخاطرة في الدين، قال العلامة القادري في أزهاره في ترجمة الشريف سيدي عبد القادر الشبهي (55) لما ذكر الحديث المعروف وهو (من انتسب لغير أبيه إلى آخره) (56) ما نصه : قال الشيخ الكامل المكمل، برزخ الشريعة والحقيقة، سيدي أحمد زروق رضي الله عنه : من وجد بيد آبائه نسبا فليتمسك به للتبرك، وإن لم يقف على صحته للحديث (تبرء من نسب وإن دق كفر) (57) والناس مصدقون في أنسابهم ما لم يعلم خلاف ما قيل انتهى كلام الشيخ زروق، وعبارته في شرح الوغليسية (58) لما تكلم عن فضائل أهل البيت الشريف، والناس مصدقون في أنسابهم حتى يعرف ذلك بيقين انتهى كلام الأزهار، وقولنا : إن ذلك مخاطرة في الدين، أعني لما يظهر من قوله عليه السلام (تبرؤ من نسب وإن دق كفر) انتهى، فهذا وإن كان يحمل على التغليظ مخاطرة لا محالة.

وكننت أنا وقع لي مثل ذلك، وجدت آبائي ينتسبون إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فحصلت لي ريبة في ذلك لما وقفت على قول الشيخ بن عبد السلام التونسي (59) وتلميذه ابن عرفة، يصعب إثبات نسب له ستمائة سنة، فبحثت عن تحقيق تلك النسبة لأسلافنا كل البحث، فلم أقف لذلك على ما يعتمد عليه، إلا أن الشيخ ابن ناصر كان ينسب لهم ذلك لما صاهرهم على ابنته ولم أتحقق أيضا قول الشيخ ابن ناصر رضي الله عنه، فتركت ذلك الانتساب، فلما وقفت على الحديث الذي نقله الشيخ زروق رجعت إلى تلك النسبة رجاء بركتها، وخوفا من الوقوع في ذلك الخطر).

وكان مقام سلفهم بقبيلة زمور من بني عمرو منهم من عهد قيام مغراوة على الأدارسة، واختفاء الأدارسة في أغمار القبائل، وكان والده

(55) عبد القادر بن عبد الله الشبهي الجوطي الحسني دعي بالشبهي للشبه بمحمد صلى الله عليه وسلم بسبب ما كان بين كنفه من صورة الخاتم ت 1099 هـ 1687 م.

(56) في الجامع الصغير بالفاظ متقارنة.

(57) روى الامام احمد والدارمي بالفاظ متقارنة.

(58) كتاب فقهي للامام احمد زروق توفي سنة 899 هـ 1493 م.

(59) أهر الفتح محمد بن عبد السلام التونسي نزيل دمشق ولد بتونس وبها نشأ وطلب العلم عالما حافظا متفتنا توفي سنة 749 هـ 1344 م الديباج المذهب ص 336.

المذكور سيدي إدريس رجلا صالحا أدركناه وزرناه مرارا، وكان يلتبس منه الخير، ويرغب الناس في صالح دعواته، فلا يلقاه أحد إلا قبل يده، وطلب منه الدعاء، ولا يعرف أحدا إذا لم يكلمه كأنه مصطمم ولكن ليس كل الاصطلام، ويذهب من داره بدرب اللطى إلى جامع الأندلس، ولا يلقاه أحد الا هنالك وكان يقرأ الأحزاب الموظفة بجامع الأندلس ويصلي الصلوات المفروضة كلها هنالك، ويجلس في ناحية من المسجد، وإذا لم يحضر الإمام الراتب لا يصلي غيره، حتى كان كأنه هو الراتب، لأن الأئمة يتكلمون على وجوده هنالك في كل وقت، فلا يحتاجون إلى طلب من ينوب عنه، هكذا أدركناه، وكنت أقرأ هناك حزبا بين الظهرين، وهو من جملة أهل ذلك الحزب، فأغتنم زيارته وتقبيل يده ودعائه، مع ما كان بيني وبين الوزير المذكور من شدة الاتصال في زمن القراءة بسبب المناسبة الأدبية الجامعة بين المتجانسين، وسببه أني لما قدمت لفاس أول مرة وذلك عام تسعة وعشرين ومائتين وألف، وكنا نحضر معا عند الفقيه الأزمي، وجدناه في باب الشهادات من المختصر، فلما ختم أنشد الناس في ذلك فصائد على العادة، ومن جملة ذلك قصيدة لي أولها :

ختام الهوى قد فض منك بسره فما لك تطوي الحب من بعد نشره

فكتب إلي الوزير يطلب نسخة منها بقطعة أولها :

ختام أنهوى هام الحبيب بحسنها

فتمكن من يومئذ بيننا وبينه حب روحاني، بقضاء سابق سبحاني، فقضينا زمان الشبابة في تحصيل ما كتب من علوم الرسوم في اشتراك المشايخ والمجالس، واقتناء الفضائل والنفائس، وإقامة الأفراح والمنتزهات والمخاطبات والمساجلات والمباسطات، في الجدد والترهات، فمضت لنا في ذلك ليال وأيام أرق وأطيب من أيام ذي سلم، بلا منغص إلا سرعة زوالها كأحلام من حلم، وكان والده المذكور في أول أمره يعلم الصبيان في المكتب الذي بباب درب اللطى زمانا، وانتفع الناس به، فلما ترعرع ولده الوزير أقامه مقامه، وغلب عليه الهروب من الناس والانفراد كما أشرنا إليه، فكان الوزير في ذلك لامتشال أمر أبيه، وكان لا يخالفه لا فيما قل ولا فيما جل، ولا يفعل أمرا من الأمور المهمة إلا بإذنه، ولا يسقط في يده

درهم فأعلى إلا ألقاه في يد أبيه، فأقام في ذلك المكتب فأعانه الله عليه، وبارك في حركته، وأعطى القوة الباهرة، فكان يكتب الصبيان ويكتب غالب الكتب التي يقرأ بها، ولا يفوته ما هو بصدد من حضور مجالس التعلم، وإذا ذهب إلى القراءة يترك عمه سيدي أحمد ينوب عنه في المكتب حتى يرجع، وقد كتب على تلك الحالة كتباً عديدة زيادة على الأنصبة التي يحضر بها وهي شيء كثير، كتب ثلاث نسخ من الشفاء وسفرها بيده وباعها ودفع ثمنها لأبيه، ونسختين من القاموس وباعهما بثلاثين مثقالاً لكل واحدة، وذلك أغلى ثمن في ذلك العهد، والشفاء بعشرة مثاقيل لكل واحدة وهو ثمنها، والأشياء في ذلك الوقت رخيصة، والدراهم قليلة.

ولما فرغ السلطان العادل مولانا سليمان من بناء الدارين اللتين بزقائي الحجر والرواح، لولديه مولاي إبراهيم ومولاي علي، جعل وليمة عظيمة للشرفاء والعلماء وخوادم الطلبة ومن يشار إليه بالخير، فأحيا الناس تلك الليلة بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الوزير المذكور ممن حضر وأنشد قصيدة طنانة عجيبة المنزع أو لها :

حياك حياك رب العرش يادار ولا تحل حماك الدهر أكرار

فعجب الناس بها في ذلك المجمع وأنشدها الناشدون في كل بيت من بيوت الدارين، وكان من جملة الحاضرين شيخنا أبو الفيض سيدي حمدون بن الحاج فأخذها وتركها عنده، وفي صبيحة الليلة طلع بها للسلطان وقال له : هذا نفس غريب في هذا الزمان، ظهر في ولد من أهل فاس، وأنشد هذه القصيدة في هذه الليلة، فأمر له السلطان بمائة مثقال، ولكل واحد من الفقهاء بخمسين مثقالاً، ولكل واحد من مطلق الحاضرين بعشرة مثاقيل، فدعا شيخنا الوزير ودفع له مائة مثقال، وكان مائة مثقال إذ ذاك لها بال عظيم، فقال الناس فلان أعطي مائة مثقال، فذهب بها الوزير وصبها في حجر أبيه، وبذلك مع ما باع به الكتب التي كان يكتب زوجها أبوه، فما زالت الأيام تدرجه وترقيه حتى كان ما تقدم من قيام أهل فاس على الإمام العادل مولانا سليمان ومبايعتهم لأولاد مولاي اليزيد، حتى انطفأت نارهم، وانكشف دخانهم، ورجع الناس لإمامهم العادل، وولى على فاس ولد أخيه

السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، فاتصل الوزير بخدمته، فلما بويع بعد موت عمه العادل بقي الوزير على رتبته تسمو به السعادة حتى استقل بالوزارة وكان يقول : إنه ما أدرك ما أدرك إلا ببركة ولي الله تعالى سيدي مولاي عمرو، وهو رجل صالح مشهور بالزهد والعبادة والتجافي عن جميع أسباب الدنيا، مقبل بكلية على ما خلق لأجله، وكان الناس يقصدونه للزيارة، ويستمدون منه الخير والبركة، وهو مقيم بمدرسة الصهرنج التي في جوار جامع الأندلس، وهو رجل أستاذ يقرأ بالجماعة، دائم العكوف على التلاوة والذكر، قيل إن السلطان العادل كان طلب منه الوصول إليه فامتنع فأتاه السلطان في بعض الليالي مختفيا، وهو لا يعرفه، فزاره ودعا له، ولو عرفه ما ظهر له، وكان الوزير ملازما له لأجل الخدمة، والقيام بكل ما يحصه من الضروريات زمانا طويلا، وكنت طلبت منه أن يوصلني إليه لطلب الزيارة، فاستأذنه لي فأذن، فدخلت عليه في بيت بأعلى المدرسة، فرأيت رجلا تذكر الله رؤيته جالسا على حصير أظنه بلا لبدة، لابسا حائكا وقميصا لا غير، وكان الزمان باردا جدا، وهو ضعيف الجسم، نحيل مائل إلى الطول، أسود اللحية، فدعا لنا بالخير، وقرأ الفاتحة والحمد لله على لقاء أهل السعادة، فإنه ما أفلح من أفلح، إلا بصحبة من أفلح، وكان هذا السيد لا يقبل عطية أحد، ذكر الوزير أنه كان يعرف في بعض الكهوف بخارج باب الفتوح من حضرة فاس معدن الفضة، فكان إذا احتاج إلى القوت يأتي بتراب منه ويدفعه للوزير أو لرجل آخر كان يخدمه أيضا، يقال له السيد محمد المغيرفي فيسبكه من دفعه إليه فيصرف منه عليه حتى ينقضي ويأتي بآخر، ولم أتيقن تاريخ وفاة السيد عمرو المذكور، وإن كنت حاضرا في الصلاة عليه وفي دفنه، إلا أنني ما كنت أقيد شيئا من أمثال هذا، وأما وفاة الوزير فإنها كانت سنة أربع وستين ومائتين وألف في أوائل المحرم كما تقدم.

وأما الوزير الأعظم، المبارك الأعز الأكرم، الذي له في ساحة المجد أرفع المباني، العلامة أبو الثناء سيدي الطيب بن اليماني

فإن هذا السيد انتشأ في حجب السعادة والصون، وصادف من العناية كل تأييد وعون، فجمع له بين الرياستين، فتردد بين المرتبتين

النفيستين، بعدما اقتنى من علوم الشرع ما اقتنى، وحاز منها ما توجه إليه الاعتناء، اتخذهُ السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بن هشام معلماً لأولاده الكرام، الذين خصهم الله بغاية الاعتزاز والاحترام، فلما قدم مولانا المظفر مراهقاً من سجلماسة في صدر خلافة والده أضافه إلى تربيته ونظره، وخصه بكفالتة في ورده، وصدره، فانتشأ مولانا المظفر في حضانتة انتشاء الدر في صوان الصدف، وما خرج عن أخلاقه الحسان ولا صدف، حتى جمع عليه القرآن العظيم حفظاً ورسمًا، وأدرك غاية الكمال مسمى واسماً، وقرأ مقدمات العلوم وأمهاتها، وأحاط بصورة النجابة من جميع جهاتها، فلزمه بعد ذلك حتى تجلت شمس الخلافة في مشرقه، ولاح تاج الإمامة الكبرى على مفرقه، فهو الآن قطب دائرة ملكه، ویتیمه عقد سلک، بيمينه حفظ الله الله سيادته وأدام في سماء العلى سعادته، ومما كتبت له في بعض قدماته مع مولانا نصره الله من فاس لمراكش، وكان قد طال مكثه بالغرب مانصه :

أيها السيد الرفيع المكانة	والذي شرف الإله مكانه
أنت يا أيها الوزير همّام	أمر المجد أن يكون مكانه
طيب الأهل والفروع زكي	أنت والله حافظ للأمانه
بيس للملك غيرك اليوم كاف	رافع بالنهي له بتيانه
كلما دجت الخطوب أنارت	منك ما قد دجى شمس الفطانه
قد وسعت الورى بخلق كريم	وأبنت الأمور كل الإبانة
قدم اليمن إذ قدمت وجاءت	كل من يستعين منك الإعانة
فهنيئاً لهم بمقدم بحر	لافظ دره لهم وجمانه
بحر علم من آل قليلة قوم	نصر الدين بأسهم وأبانه
حفظ الله ذلك المجد حفظاً	دائماً وأعزّه وأعانه

المراد بآل قليلة الأوس والخزرج، وهو أعزّه الله ليس ببدع في هذه المرتبة، ولا بأجنبي من خدمة عز هذه العتبة، فإن والده المرحوم كان في دولة السلطان العادل مولانا سليمان رئيس الكتبة، وكان للوزير الصالح القائد أحمد به اعتناء زائد خارق للعوائد، لا يفارق جنبه الأيمن في صدر الديوان، لأنه لا يتلون بغير الصدق والعفاف، والمروعة بشيء من الألوان، وكان لنا رحمه الله معاشر الكتاب موردا صافيا، لا نخشى تغييره ولا كدره، وكنا له طائعين أولادا برره، وبيتته في مكناس ثابت السيادة والأصالة ولا يبلى طول الزمان مآثره وخصاله.

حضرت يوما عند صاحبنا الفقيه الحاج المعطي الزداغي المراكشي (60) وكان قدم لحضرة السلطان العادل لحضرة مكناس بقصد سرد صحيح البخاري على العادة، فأنزله عند قهرمان الحضرة الأمين الحاج الطاهر بادو فأنزله بدار العريفة حول داره، فبينما نحن جلوس إذ قدم عليه الفقيه الكاتب سيدي اليماني، جاءه بأمر سلطاني، فساره بذلك ثم خرج، وكان معنا فتى من أهل مكناس، بذى اللسان مسلط على الأعراض، لاسيما أهل المروءة والدين، وكان إذ ذاك مشهورا بالأنظام الملاحين، التي يتعاطاها سفهاء العوام، لاسيما أهل مكناس، فلما خرج الفقيه الكاتب قال ذلك الفتى الموصوف كلمة ناقصة غاضة في حق الكاتب، فسمعه رجل كان معنا يقال له الحاج قدور الواقفي، شيخ كبير تاجر من أهل مكناس، جال البلاد شرقا وغربا، وسودانا وبرا وبحرا، أخباريا نسابة صادق في كل ما يحدث به، يرجع إليه في الأمور العظام، لاسيما في الأنساب، فلما قال ذلك الفتى تلك المقالة قاله الحاج قدور، ماذا تقول ؟ قال له : كذا وكذا، فسأل عنه فقال للحاضرين ولد من هذا ؟ فقالوا هذا يقال له السيد فلان، طالب نجيب، حسن الخط أديب >وهو الذي غلب العميري شيخ الكلام لما تهاجيا بالملحون وفضحه على رؤوس الأشهاد> (61)، فقال لهم : سألتكم عن أبيه ؟ فقالوا لا نعرف أباه، وكان في ذلك المجلس أيضا رجال مسنون السيد المكي بادو واثنان آخران لا أعرفهما، فقال له أنت مجهول الأب، وهؤلاء كبار أهل مكناس لا يعرفون أباك، وتقول في الفقيه المسلم السيادة والأصالة مما لا يليق بمنصبه ثم قال لأولئك الأشياخ : هل فيكم من يجهل والد الفقيه السيد اليماني ؟ فقالوا : نعرفه ونعرف جده بالمعاصرة، ونعرف سلفه المشهور بالخير والدين والنباهة والسيادة والوجاهة، فقال لهم : ما بالكم تسمعون كلام هذا السفيف المجهول {الأب} (62)، ولا تنكرون عليه، هذا سبب خراب العالم، أن يسبب الفاسد الصالح ولا ينكر عليه، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما زال يشنع على القوم ويقبح سكوتهم عن ذلك، وكان أكبر منهم بكثير، وكان فيهم ذا جلاله وقدر، وجعلوا يأخذون بخاطره ويسعون

(60) المعطي الزداغي المراكشي من علماء دولة مرلانا سليمان الدين يحضرون معه قراءة صحيح البخاري عام 1232 هـ، وجه عليه لذلك من مراكش ومكناس الاعلام المراكشي ز 7 ص 257.

(61) ما بين القوسين ساقط من (م).

(62) ساقط من (م) والأصل ر (ش) ومرجود في الفاسية.

في رضاه حتى استنزله من حالة الغاضب الذي اعتراه، فسكن قليلا، ثم قال والله اني لأعرف أصل هؤلاء القوم بني العشرين فإنهم من بلاد الأندلس، وكانوا أولا بتونس عند انتقالهم من الأندلس، ثم انتقلوا لتلمسان، ثم لفاس، ثم لسلا، ثم كانوا مدة بجبال الزيب، ومن ثم انتقلوا لهذه البلدة، وهم ينتسبون الى الأنصار، انتهى كلام الحاج قدور المذكور. وكانت هذه القصة عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف، ولما كانت فتنة أولاد مولاي اليزيد، قدم الفقيه الكاتب سيدي اليماني لحضرة السلطان لفاس الجديد، وهو محاصر لفاس البالي فنزل معنا سيدي اليماني بدار الموقت التي هي متصلة بمنار الجامع الكبير، ونحن جماعة، وكنت أنا أباشره وأتسخر له، لأنني أصغر القوم، وكان به ضعف وألم، لأنهم قدموا به ليلا فتضرر بذلك، وكانت الطريق التي بين فاس ومكناسة مخوفة لا تسلك إلا ليلا على خطر (وكانوا يمرون على طرف من جبل زرهون على قنوفة فتعب الفقيه بذلك غاية التعب، وكان السلطان أمر خليفته بمكناس مولاي الحسن بتوجيه الفقيه سيدي اليماني، أراد سؤاله عن الأحوال الباطنة الخاصة ببيت المال، لأنه وقع فيه إسراف وتبذير، وعلم السلطان أنه لا يشفي غليله في ذلك إلا الفقيه سيدي اليماني، وقال السلطان لمولاي الحسن يركب القائد محمد أو ميمون الجرواني مع طائفة من إخوانه مع سيدي اليماني حتى يصل إلينا عزماء فجاءوا به على الحالة المذكورة، فلما جاء نزل معنا كما تقدم) (63) ثم حدثته ذات يوم بما وقع من حديث الواقفي، فقال لي صحيح كل ما ذكره عن سلفنا، إلا أنني ما عرفت إلا الانتقال من تونس لفاس، لا إلى تلمسان ثم فاس، وقال لي : إن سبب الانتقال من سلا إلى الجبل أن بعض الأسلاف إذ ذاك كان متزوجا ببنت بعض أهل الجبل (الساكنين بسلا) (64) ثم حصلت هبة بسلا من الغلاء فخرج بقومنا صهرهم إلى الجبل، فأقاموا هنالك مدة ومنه إلى مكناس، والله يعلم، ثم إلى أين، قال لي : وكان قومنا يقال لهم بنو أبي العشرين البياشي بالشين المعجمة فتنوسي الوصف الأخير، وبقي الأول، ولم أدر ما سبب الوصفين لا الأول ولا الثاني، هذا حاصل ما ذكر لي الفقيه سيدي اليماني رحمه الله تعالى.

(63) ما بين القوسين من هامش الأصل بخط مؤلفه وساقط من (ش) و (ن).

(64) ما بين القوسين ساقط من (م).

قلت : رأيت السيد أحمد المقرئ في نفح الطيب ذكر أبا العشرين في محلين وذهب عني ذلك المحل، وكنت عاهدت من عادتي في المطالعة أن أوقف على المهمات في الهامش عند المطالعة، ولم أكن طالعت منه إلا السفر الثاني والثالث، فأعدت مطالعة السفرين المذكورين، لكن إنما أنظر في الهامش لعلني أرى توقيفة على ذلك فسردتهما ورقة ورقة، فلم أجد ذلك، وعجزت عن مطالعة السفرين من أصلهما، ثم إنني رأيت في وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان، في ترجمة الشيخ أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي الأنصاري، قال أحد فضلاء الأندلس وحفاظها، ثم قال وطاف بأكثر بلاد الأندلس، وتنقل فيها، ولما قدم من جزيرة الأندلس إلى مدينة تونس جمع للأمير أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر صاحب إفريقية كتاباً سماه "الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام" ابتداءً فيه بمقتل الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية، ثم قال ابن خلكان في آخر ترجمته : وكان مولده يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة تونس، والبياسي بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المشناة من تحت والسين الغير المنقوطة، هذه النسبة إلى بياسة، مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، هكذا قاله ياقوت الحموي في كتاب المشترك وضعاً، انتهى كلام ابن خلكان. وهذا يدل على أن ما ذكره الفقيه سيدي اليماني من أن البياشي بالشين المعجمة إنما هو تصحيف جرى على ألسنة العوام، كما هي عادتهم في كثير من الألفاظ، هذا ولا يبعد أن يكون هذا النسب هو الذي ينتمي إليه قوم البياز بفاس، فأبدلوا السين بالزاي لقرب المخرج، وكثيراً ما يتعاقب الحرفان المذكوران، كالسراط والزراط، والسعتر والزعتر، فيكون نسبهم إلى البياسي المذكور، ويصح لهم نسب الأنصارية بلا إيراد ما حدثني به الفقيه أبو مالك السيد عبد الواحد الضرير السجلماسي البوعصامي (65) رحمه الله تعالى، قال : كنت عند القاضي الشريف مولاي عبد الهادي، وكان عنده عامل فاس السيد الطيب البياز، فقال له القاضي : هذا النسب الذي

تنتسبون فيه الى الأنصار هل تنتسبون الى بعض المشاهير من صحابة الأنصار ؟ قال نعم، قال الى من منهم ؟ قال : لعبد الله بن رواحة، فقال له القاضي : عبد الله بن رواحة ما عقب ؟ فقال له العامل السيد الطيب ومن ذكر أنه ما عقب ؟ قال : فسكت القاضي، فلا أدري هل سكوته لكونه ليس على يقين من ذلك، أو إنما ترك ذلك خشية اللجاج انتهى، وربما يكون إنما اغتر القوم أهل فاس المذكورون لما سمعوا إطلاق البيازين على رضى غرناطة من الأندلس، فتمسكوا بهذا اللفظ، وإلا فالأصل البياسي كما قلنا، وهو مسلم النسبة الأنصارية، والله أعلم.

وقد ظهر بمجموع ما ذكرناه أن نسب القوم آل أبي العشرين إلى الأنصار واضح الصحة جدا، بل هو أصح من نسب البيازين ومن كثير من الأنساب الطويلة المدى، «بل صرح بذلك الأئمة الثقات الأماجد الهداة كالإمام أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، قال مؤلف "دوحة المجد والتمكين، في وزارة العالمين ابني العشرين"، قال العلامة أبو زيد الفاسي في الورقة الثانية من تأليفه في مشاهير علماء فاس في القديم ما نصه: "ومنهم بيت بني عشرين الخزرجين، بيت علم وأصالة، منهم فقهاء أئمة، كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين، كان فقيها حافظا محصلا مستبحرا في الفقه، تفقه عليه فقهاء المغرب، وكان يحفظ المدونة، ومن صدره نقلت بعد أن أحرقها ملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي، يروى أنه لما جبرت من صدره في أول الدولة المرينية قوبلت بعد ذلك مع نسخة فوجدوها كما هي، لا خلاف بينهما إلا في مثل فاء أو واو، انتهى بلفظه، يعني كلام الفاسي وإن أردت بيان ما ذكر وإيضاحه فانظره في رسالتنا المسماة "بخمائل النسرين في الوزراء بني العشرين"» (66)، ومآثر هذا الوزير ومحاسنه وآثاره في تشييد أسباب الخير في الدولتين الهشاميتين لا تعد، ولو ذهبنا الى تقييد ما شاهدنا من ذلك بالعيان لا انقضي الزمان قبل انقضائه، وأقضى بنا الى براح العجز وفضائه، ولو

(66) ما بين القوسين ساقط من (ش) و (ف) وأما رسالة خمائل النسرين في الوزراء بني العشرين فهو لمؤلف الخيشر قلت وعنده كتاب آخر في نفس الموضوع سماه حسام الانتصار في بني العشرين الانتصار، وفي الاعلام ان الفقيه الأديب السيد ج محمد بن الوزير ج ادريس بن الوزير الط أخبره بأن الحسام قد طبع، وان الخمائل ذيل الأول في أربع كراريس وان الأصل في عشرين كراسيا ه الاعلام ج 6 ص 322 بترجمة الوزير محمد الط.

أفرد بالتأليف لكان بذلك حقيقاً، وكان فعل ذلك لفاعله إلى نيل السعادة سبباً وثيقاً.

وأما الحجابة

فإن هذا اللقب ظاهر معناه أن الحاجب هو الذي يحجب السلطان عن العامة، ويغلق الباب دونهم أو يفتح له على قدر المصالح الضرورية السلطانية، وهكذا كان في دولة بني مروان وبني العباس، وأما في الدولة الأموية بالأندلس فإن الحاجب يحجب الخاصة والعامة، ويكون واسطة بين الناس وبين السلطان، الوزراء فمن دونهم، فلا تبرم الأمور الجليلة ولا الحقيرة إلا على يده، فتكون هذه المرتبة لها الرياسة على غيرها من المراتب، ثم تعاظم قدرها حتى وقع استبدادها، أي الحجابة واستقلالها كما وقع للمنصور بن أبي عامر في حجابته لهشام المويد، وأما دولة اللمتون فليس فيها شيء من ألقاب المملكة لبدأوتها الصرفة، وكذلك أول الدولة الموحدية فإنها لم تستمكن في مقام الحضارة «الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز المراتب والخطط الملوكية» (67)، إلا في أواسطها لما استفحل أمرها، فلم يكن عندهم من المراتب إلا الوزير، وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام المشارك للسلطان في الرأي الخاص، كابن عطية وعبد السلام الكومي، ثم خصوا بعد ذلك هذا اللقب الذي هو الوزير بأهل نسب الدولة، كابن جامع وغيره، وكذلك دولة الحفصيين بإفريقية، وأما دولة زناتة وأعظمهم بنو مرين فلم يكن عندهم أثر لهذه المرتبة التي هي الحجابة.

وأما القهرماننة

فإن السلطان إذا اتسع ملكه، وكثر في داره رواتب المرتزقين فإنه يحتاج بالضرورة إلى قهرمان خاص، أي أمين متصرف في أحوال أهل الدار من كل ما تدعو الحاجة إليه يجرىها على قدرها ويرتبها على مراتبها المضبوطة، وقوانينها الطبيعية، فلا يتعدى شيء مركزه من قوت وكسوة ونفقة في المطابخ والصطبلات وغير ذلك، ومن ذلك حصر الذخائر وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة

(67) ما بين الترسين ساقط من (م).

على السجلات، وهذه المرتبة في الدولة الشريفة الحسنية الإسماعيلية أعز الله ذكرها كلها بجميع تفاصيلها مندرجة في اسم الأمين في الاصطلاح، كالحاج حمو بن حيون عند السلطان العادل مولانا سليمان، وابن العادل في أول دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وابن شقرون في دولة مولانا أمير المؤمنين نصره الله تعالى.

وأما الكتابة

هذه المرتبة أشرف من جميع المراتب المتقدمة، لتوقف الجميع عليها، وعدم قيام شيء منها بدونها، فإنها أخت السيف وقرينته، بل قالوا إن القلم أحد وأمضى من السيف، وشأنه أجل من أن يدرك بالكيف، قال ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يقاومه ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبريت إن السيوف لها مذ أرهفت خدم
وإنما أخرت الكلام في هذه المرتبة لأتفرغ لها، فإن بيننا وبينها رحما
وشيجة العروق، ومنتسبا واضح الشروق، إذ كنا لها برهة من الزمان
منتحلين، وإن لم تكن في عصبتها مستفحلين، فأردنا بحول الله تعالى أن
نأتي في هذا التقييد عند بسط الكلام، بما يكون تحفة لحملة الأقلام، صلة
لتلك الرحم المهجورة، وتسريحا لمثابة الحسن والاحسان المحجورة، فإن هذا
الزمان قد غمض هذه الرتبة حقها، حتى ساومها (68) محوها ومحققها، ولم
يبق لها حرمة، ولا راعى حقوق الذمة، فليس إلا أطلالا بالية، ورسوما
خالية، وعسى الله أن يجري فلكها جري السعادة ويدير، فإنه على كل
شيء قدير.

فنقول : إن الكلام فيها ينحصر في سبعة مقاصد، الأول في مدلول
الكتابة في لغة العرب، الثاني في أوليات تتعلق بها كأول من خط الخط
العربي، وأول من كتب أما بعد، وأول من قال من فلان الى فلان، الثالث
في آلات الكاتب، الرابع في المكتوب فيه، الخامس في المكتوب به،
السادس في الكاتب، السابع في المكتوب إليه.

(68) في (م) سامها بدل سرامها.

المقصد الأول : في معنى الكتابة في اللغة

يقال كتبه كتباً وكتاباً خطه ككتبه واكتتبه أو كتبه خطه، واكتتبه استملاه، كاستكتبه انتهى بلفظ القاموس، ولم يذكر الكتابة من المصادر، وكأنه جعلها حرفة كالتجارة، وقد فسر كتب بخط، وليس مراده بالخط الامتداد الوهمي الذي هو قسيم النقطة والجسم، ولكن المراد الرقم الظاهر على وجه الصحيفة ونحوها، ولم يعرفها صاحب الاقتضاب، وإنما قال في بعض كلامه، الزيارة والتزيرة : الكتابة، قال رجل من أهل اليمن : أنا أعرف تزيرتي أي كتابتي، قال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدواة يزيره الكاتب الحميري

وقال امرؤ القيس :

كخط زيور في مصاحف رهبان (69)

قال ابن قتيبة الزيور في هذا البيت الكاتب، يقال زابر وزيور بالزاي وذابر وذبور بالذال المعجمة انتهى، وأما أهل الرياضي فإن رئيسهم إيقليدس عرف الخط الذي هو بمعنى الكتابة، فقال : الخط هندسة روحانية ظهرت بآلات جسدانية، وقال أيضا : الخط شيء أظهره العقل بواسطة هي القلم، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر.

المقصد الثاني : في أول من كتب بالعربي

{قال القاضي شمس الدين ابن خلكان ان أول من خط العربي إسماعيل عليه السلام، والصحيح عند أهل العلم أنه مرامر بن مرة من أهل الأنبار، وقيل : إنه من بني مرة، ومن أهل الأنبار انتشرت الكتابة في الناس هـ} (70) قال في القاموس : مرامر بن مرة أول من خط الخط العربي انتهى، وقد ضبط مرامر بقوله كعلابط وقال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب آلة الكتاب ذكر أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : أول من وضع الخط يعني العربي نفر من طي من

(69) شطر بيت :

كخط زيور في مصاحف رهبان

أنت بعدي عليها فأصبحت

من قصيدة قفا نضحك من ذكرى عيب وعرفان لا من قصيدة قفا نضحك وذكرى حبيب ومنزل.

(70) ما بين القوسين بهامش الأصل وفي الملكية وساقط من (ش) و (ف).

بولان، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدره، وعامر بن جذرة، فصاروا إلى مكة فتعلمه منهم شيبة بن ربيعة بن حرب بن عبد شمس، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهشام بن المغيرة المخزومي، ثم أتوا الأنبار فتعلمه نفر منهم، ثم أتوا الحيرة فعلموه جماعة منهم : سفيان بن مجاشع بن عبد الله بن دارم، وولده بالكوفة يسمون أولاد الكاتب، ثم أتوا الشام فعلموه جماعة فانتهدت الكتابة إلى رجلين من أهل الشام، يقال لهما الضحاك وإسحاق بن محمد، وكانا يخطان الجليل، فأخذ إبراهيم بن الشجزي الخط الجليل من إسحاق بن حماد، واخترع منه خطا أخف منه وسماه الثلثين، وكان أخط أهل دهره بخط الثلثين، ثم اخترع قلما أخف من الثلثين وسماه الثلث، وأقام ابن الخميس على الخط الجليل الذي أخذه عن إسحاق بن حماد إذ أخذ عن إسحاق بن حماد الخط الجليل اخترع منه قلما آخر أهون من الجليل تاما مفرط التمام مفتحا، فأعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل فأمر الكتاب ألا يحرروا الكتب إلا به، وسماه الرياسي، ثم أخذ ابن الأحول عن ابن الشجزي الثلثين والثلث، فاخترع منهما قلما سماه النصف، وقلما آخر سماه خفيف النصف، وقلما أخف من الثلث سماه خفيف الثلث، وقلما سماه المسلسل متصل الحروف لا ينفصل بعضها عن بعض، وقلما سماه غبار الحلبة، وقلما سماه خط المؤامرات، وقلما سماه خط القصص، وقلما قصيرا خفيفا سماه الحوائجي، وقلما سماه المحدث، وقلما سماه المدمج، وقلما سماه الطوماري، انتهى، وحاصل ما نقل عن ابن مقلة من الأقلام ما يبلغ عدد أصنافه أحدا وعشرين، وهي هذه : الجليل، وقلم الثلثين، ويسمى السجلي، والرياسي، والنصف، وخفيف النصف، والثلث، وخفيف الثلث، ويسمى قلم الرقاع، والمسلسل، وغبار الحلبة، وصغير الغبار، وهو المسمى قلم المؤامرات، وقلم القصص، والحوائجي، والمحدث، والمدمج، وثقيل الطومار، وخفيف الطومار، والشامي، ومفتح الشامي، والمنشور، وصغير المنشور، وقلم الجزم قال ابن مقلة : للخط أجناس قد كان الناس يعرفونها ويعلمونها أولادهم، ثم تركوا ذلك وزهدوا فيه كزهدهم في سائر العلوم والصناعات، وكان أكبر تلك الأجناس وأجلها قلم الثلثين، وهو الذي كانت السجلات تكتب به فيما يقطعه الأئمة، وكان يسمى قلم السجلات، ثم ثقيل الطومار، والشامي، وكان يكتب بهما في

القديم عن ملوك بني أمية، ويكتب إليهم في المزامرات بمفتاح الشامي، ثم استخلص أولاد العباس قلم النصف فكتب به عنهم، وترك ثقل الطومار والشامي، ثم إن المأمون تقدم إلى ذي الرياستين بأن يجمع حروف قلم النصف ويساعد بين سطوره ففصل ذلك وسمى القلم الرياسي، فصارت المكاتبة عن السلطان بقلم النصف والرياسي، والمكاتبة إليهم بخفيفهما، والمكاتبة من الوزراء إلى العمال بقلم الثلث، ومن العمال إلى الوزراء بصغيره، ومن الوزراء إلى السلطان بقلم المنشور عوضا عن مفتاح الشامي. وصغير المنشور، وسميا بقلم المزامرات وقلم الرقاع وهو صغير الثلث، للحوائج والظلمات، قال : وأكثر أهل هذا الزمان لا يعرفون هذه الخطوط ولا يدرون ترتيبها، قد اقتصر كل كاتب على ما وقف عليه خطه كإقتصارهم في سائر الأمور.

وأما أول من افتتح كتابه بالبسملة فسلیمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وأول من قال أما بعد فداود عليه السلام، وأول من كتبها من العرب قس بن ساعدة الإيادي، وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها باسمك اللهم، فجرى الأمر على ذلك في صدر الإسلام حتى نزل {باسم الله صجراها ومرساها} فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الله حتى نزل {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان} فكتب باسم الله الرحمان، حتى نزلت {وإنه باسم الله الرحمان الرحيم} فصارت سنة إلى يومنا هذا.

وأما أول من طبع الكتاب أي الطبع عليه من خارج بعد طبعه فعمرو بن هند، وسبب ذلك أنه كتب كتابا للمتلمس الشاعر إلى عامله بالبحرين يوهمه أنه أمر له بجائزة، وقد أمر العامل فيه بضرب عنقه، فاستراب المتلمس فدفعه إلى من قرأه عليه فأخبره القارئ، فرمى بالكتاب في النهر وفر على وجهه وفي ذلك يقول :

وألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك أجزى كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار في كل محفل

فلذلك أمر عمرو بن هند بالكتب فختمت، وفي الصحيح أن رسول الله عليه وسلم كتب إلى ملك الروم كتابا فلم يختمه، وقد روي أن أول من ختم الكتاب نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وقالوا في تأويل

قوله تعالى {إني ألقى إلي كتاب كريم} أي مختوم.

وأما أول من كتب في فلان إلى فلان فرسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار ذلك سنة، يكتب الكاتب ويبدأ باسمه قبل اسم من يخاطبه، ولا يكتب لقبا ولا كنية، حتى ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتسمى بأمير المؤمنين كما تقدم في رايته أول هذا التقييد، فجرت العادة بذلك إلى أول ولاية الوليد بن عبد الملك، فكان الوليد أول من اكتنى في كتبه، وأول من عظم الخط والكتب، وجود القراطيس، ولذلك قال أبو نواس :

سبط مشارفها دقيق خطها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

وكان الوليد يقول : لا أكاتب الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضا، فجرت العادة على ذلك إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما لما وليا ردا الأمر إلى ما كان عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمان الصحابة رضوان الله عليهم، فلما ولي مروان بن محمد رد ما كان في زمان الوليد.

المقصد الثالث : في آلة الكتابة

كالدواة ومدادها وصوفتها، والخارقة التي يمسح بها، والسكين وقرابها، والمقص وما يجعل فيه الأقلام، هذه هي الآلات المشهورة التي يتوقف الكاتب عليها، وربما توقف على أمور أخر في النادر.

فأما الدواة فيقال : هي الدواة والنون، قال بعض المفسرين في قوله تعالى {نون والقلم} إن النون هي الدواة انتهى، وجمع الدواة دويات كقناة وقنوات، ويقال دواة ودوي كما يقال أيضا قناة وقناة، قال الشاعر :

لمن السدار كخسط بالسدوي أنكر المعسروف منها وامحى
ويقال دواة ودوي كما يقال قناة وقني قال الشاعر :

وكم تركت ديار الشرك تحسبها تلقى الدوي على أطلالها ليقا
وجمع النون في العدد القليل أنوان وفي العدد الكثير نينان، كما يقال في جمع حوت أحوات وحيثان، واشتقاق الدواة من الدواء، لأن بها صلاح أمر الكاتب، وجعلها بعض الشعراء من دوي الرجل يدوي إذا صار

في جوفه الداء فقال :

أما الدواة فأدوى حملها جسدي وحرف الحظ تحريف من القلم
وليس للنون فعل يصرف منها، وأما الدواة فقد صرف منها أفعال،
واشتقت منها أسماء، فقالوا أدويت دواة، إذا اتخذتها فأنا مدو، فإذا
أمرت غيرك أن يتخذها قلت ادو دواة، ويقال للذي يبيع الدوي دواء، كما
يقال لبائع الحنطة حناط، ولبائع التمر تمار، فإذا كان يعملها فهو مدو، كما
يقال للذي يعمل القناة مقن قال الراجز :

أطر الثفاف خرص المقتني (71)

ويقال للذي يمسك الدواة ويحملها داو، كما يقال لحامل السيف
سائف، ولحامل الترس تارس ويقال لما تدخل فيه الدواة ليكون وقاية لها
صوان وغلاف وغشاء، فإن كان شيء يدخل في قمها لثلا يسيل منها شيء
فهو سداد وصمام وعفاص، وكذلك القارورة ونحوها، ومن اللغويين من
يجعل العفاص ما يدخل في رأس القارورة، ويجعل الصمام والسداد ما
يدخل فيها، ووزن دواة فعلة، وأصلها دوية تحركت الياء وانفتح ما قبلها
فقلبت ألفا، ويدل على أن لامها ياء قولهم في جمعها دويات، فإن قال
قائل : فإن الواو في دواة قد تحركت أيضا وانفتح ما قبلها فهلا قلبت
ألفا، ثم تحذف إحدى الألفين للالتقاء الساكنين، فالجواب عن ذلك من
وجهين : أحدهما أن حكم التصريف يوجب أنه إذا اجتمع في موضعي
العين واللام حرفان، يجب إعلالهما أعلت اللام وتركت العين، لأن اللام
أضعف من العين وأحق بالإعلال، إذ كانت طرفا، وفي موضع تتعاقب عليه
حركات الإعراب، وهي محل التغيير، والثاني أنهم لو فعلوا ما سامنا هذا
السائل لأجحفوا بالكلمة وذهب معناها، ويقوي هذا الجواب ويدل على
صحته أنك تجد الواو التي يلزم إعلالها إذا وقعت بعدها ألف لم يعلوها
في نحو نزوان والكروان لثلا يلزمهم حذف إحدى الألفين، فيلتبس فعلان
بفعال، ولم يأت في الكلام إعلال العين وتصحيح اللام إذا كانا جميعا
حرفي علة إلا في مواضع يسيرة شاذة مما عليه الجمهور نحو غاية وآية

(71) وفي كتاب الاقتضاب بعض الثقاني خرص المقتني.

وطاية وثاية وراية انتهى. من كتاب الاقتصاب للشيخ الجليل أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطلوسي (72) رحمه الله تعالى وأما إصلاح الدواة بالمداد فإن صوفة المداد قبل أن تبيل بالمداد يقال لها : البوهة فإذا خالطها المداد، فهي الليقة، وجمعها ليق، يقال لقت الدواة وألقتها فهي ملاقة، ويقال لها ليقة قبل بلها تسمية لها بما تؤول إليه، كما يقال للكباش ذبيح وذبيحة قبل أن يذبح، وللصيد رمية قبل أن يرمى، تقول العرب بئس الرمية الأرنب، وقال تعالى (وقدیناه بذبح عظیم) فإذا عظمت الصوفة فهي الهرشفة، فإن كانت قطنة فهي قطفة، والكرسفة والقطن كله يقال القطف والكرسف، ويقال كرسفت الدواة كرسفة وكرسافا.

وأما المداد فإنه يذكر ويؤنث فيقال : هو المداد وهي المداد، ويقال له نقس بكسر النون، وأما النقس بفتح النون فهو مصدر نقست الدواة إذا جعلت فيها نقسا، وقد حكى الإمام ابن قتيبة في كتاب آلات الكتاب أنه يقال للمداد نقس ونقس بالفتح والكسر، قال : والكسر أفصح وأعرب، ويقال مددت الدواة أمدها مدا إذا جعلت فيها مدادا، فإذا كان فيها مداد فزدت محليه قلت أمددتها إمدادا، وإذا أمرته أن يأخذ بالقلم من المداد قلت استمدد، وإذا سألته أن يعطيك على القلم مدادا قلت أمددني من دواتك، وقد استمدته إذا سألته أن يمدك، وحكى الخليل : مدني وأمدني أعطني من مداد دواتك، وكل شيء زاد في شيء فهو مداد له، قال الأخطل :

رأت بارقات بالأكسف كأنهسا مصاييح سسرج أوقسدت بمسداد
يعني الزيت، والخبر من المداد مكسور لا غير، فأما العالم فيقال له خبر وخبر، وقال بعض اللغويين يسمى المداد حبرا باسم العالم كأنهم أرادوا مداد حبر فحذفوا المضاف، ولو كان ما قالوه صحيحا لقالوا للمداد حبر بالفتح أيضا، فالأشبه أن يكون سمي بذلك لأنه يحسن الكتاب من قولهم حبرت الشيء إذا حسنته، ويقال للجمال حبر وسبر، وفي الحديث (يخرج من

(72) البطلوسي كان عالما بالأدب واللغة، متبحرا فيهما، مقدما في معرفتهما وإتقانتهما سكن مدينة بلنسية، توفي سنة 521 هـ 1127 بمدينة بلنسية، وله مؤلفات كثيرة منها : "الاقتصاب في شرح أدب الكتاب" وجدير بالذكر التنبيه على أن شرح أدب الكتاب له، نسبة بعضهم إليه، ورأيت في التكملة لكتاب الصلة ج 1 ص 20 بترجمة أحمد أبي العباس بن بلال : أنه أي المترجم هو مؤلف "الاقتصاب" لا البطلوسي بل قال أبو عبد الدين ابن خلاصة التحوي أنه أنقار عليه وانتحلته اهـ "وفيات الأعيان" ج 2 ص 282، ازهار الرياض ج 3 ص 103، وترجمه ترجمة طويلة من كتاب خاص لابن خاقان في التعريف بأبن السيد.

النار رجل قد ذهب حبره وسبره) (73) فإذا قيل مداد حبر فكأنه قيل مداد زينة وحسن، ويجوز أن يكون مشتقا من الحبر والحبار وهو الأثر، سمي بذلك لتأثيره في الكتاب، قال الشاعر :

لقد أشمتت بي آل قيدٍ وغادرتُ بجسمي حبرا بنت مصانٍ باديها
ويقال أمهت الدواء إذا جعلت فيها ماء فإذا أمرت بذلك قلت أمه
دواتك وموه.

وأما الخرقعة التي يمسح بها الكاتب قلمه فهي الوقيعة بالقاف، كما في الاقتضاب، قال كذا حكاهما الشعالي في فقه اللغة، وقال أبو عمرو الشيباني : وفيعة بالفاء، وكذا وجدتها مقيدة بخط علي بن حمزة، وأما ما يدخل فيه القلم فهو غمد وغلاف وقمجار وكذلك للسكين.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، كنا أردنا أن نذكر هنا طرفا من صناعة المداد، ثم رأينا ذلك يخرج بنا إلى فادح الطول، والدخول في الفضول، فإن ذلك باب واسع، ولكن لا بأس أن نذكر منه صنعة غريبة نسبها بعضهم إلى الإمام الشافعي، وذكر الأبيات العشرة في صفتها ونسبها له أولها :

إن رمت صنعة حيسر بسين الأفاضل تذكر
وتلخيص هذه الكيفية أن تأخذ من الماء رطلا وثلاثا وتلقي فيه أوقية ونصفا من عقص مسحوق ينقع فيه خمسة عشر يوما حتى يصير أحمر اللون، ثم يصفى، وتأخذ أوقية زاج مسحوق ويجعل في خرقعة صفيقة ويغمس في ذلك الصفو ويحرك ويعصر المرة بعد المرة حتى لا يبقى في الخرقعة شيء، ثم تسحق أوقيتان من الصمغ العربي الأشقر، ويلقى في الماء المذكور ويحرك حتى يذوب، ثم يجعل في ذلك ثلاثة دراهم سكرا، ثم يرفع في الإناء للادخار، والله أعلم.

وأما السكين فهي المديّة والخليفة والصلت والمجزأة، والرميضة، والمذبح، والمبراة، والسلط، والقالية، وآكلة اللحم، والسخينة، والشلقاء ممدودة على وزن الحرياء، قال الفراء : السكين يذكر ويؤنث، وأنشد :

(73) لم نقت عليه.

فعبث في السنام غداة قر بسكين موثقة النصاب
وقال ابن الأعرابي : في المدية ثلاث لغات، الفتح والضم والكسر، ويقال
إن السلط هي الكبيرة منها، ويقال لجانب السكين الذي يقطع به الحد
والغرب والغر والغرار والذلق، ولجانبها الذي لا يقطع الكل، ولطرفها
الذباب والظبة، وللذي يمسك الكف منها المقبض والمقبض بفتح الباء
وكسرهما، والنصاب، والعتر، والجزأة، يقال جزأت السكين وأجزأتها إذا
جعلت لها جزأة، وأنصبتها إذا جعلت لها نصابا، وأقبضتها إذا جعلت لها
مقبضا، وذكر ابن قتيبة في أدب الكتاب أن النصاب للسكين والمدية،
والجزأة للإشقي والمخصف، وهو رأي كثير من اللغويين، ويقال للمسمار
الذي تشد به الحديد في النصاب الشعيرة، وكذلك السيف، قال الراجز :

كأن وقب عينه الضريبة شعيرة في قائم مسمورة
ويقال لما يشد به النصاب اللكك، ويقال للحديدة التي تدخل في
النصاب من السكين السيلان، وكذلك من السيف، ويقال لوجهي السكين
الأللان واحدهما ألل فإذا كانت حادة قيل سكين حديد وحداد وحداد
ومرهف وذليق ومذلق وهذام وحد وصف بالمصدر قال الشمر دل بن شريك :

كأن جزارا هدام السكين جزله ليسر أفانين
ويقال وقعت السكين ورمضتها وطررتها وذريتها بالتخفيف وذريتها
بالتشديد وأرهفتها كل ذلك إذا أهدمتها، ويقال الرمض أن تحم الحديد بين
حجرين، فإذا انكسر طرفها قيل : انفلت انفلا وتقلل تفللا، وقضمت
قضما، وكذلك يقال في السيف قال الشاعر :

فسلا تعدني إنني إن تلاقني معي مشرفي في مضاربه قضم
ويقال لغمدها قمجار وغلاف وقراب، أنشد المطرز
(وأخرج السكين من قمجارها)

فإذا أدخلتها في غمدها قلت غلفتها وأغلفتها، وقربتها وأقربتها،
الشلثي مشدد العين، وقيل أقربتها جعلت لها قرابا وقربتتها إذا أدخلتها
في القراب، وغمدتها بالتخفيف وأغمدتها، وهذه الآلة التي هي السكين

هي أكد آلات الكتاب لا بد من حضورها وإلا كان عرضة للعوائق عن جملة أمره، قال الفقيه العلامة السيد العربي المستاري (74) في نظمه المعلوم :
ولتجعلن حولك سكيناً إذا ما قلم عصي فرأسه أنبذا
وأما المقص فلها أيضا أسماء متعددة، فهي المقص والمقطع والمقراض والجلم، فإذا أردت الموضع الذي يقص فيه ويقطع، قلت مقص ومقطع، ففتحت الميم، وكذلك مقرض ومجلم، وأكثر ما يقال بالثنائية، يقال اشتريت مقصين ومقراضين وجلمين، يجعلون كل واحدة من الحديدتين مقراضا ومقصا وجلما قال الشاعر :

ولولا نوال من يزيد بن مزيد لصوت في حافاتهما الجللمان
وقد جاء فيها الأفراد أيضا قال سالم بن وابصة :

داويت صدرا طويلا غمره حقدًا منه وقلمت أظفارا بلا جلم
وقال بعض الأعراب :

فعليك ما اسطعت الظهور بلمتي وعلي أن ألقاك بالمقراض
ويقال في تصريف الفعل منها : قصصت وقطعت وقرضت وجلمت
وقد قالوا : جرمت بالراء، ويقال لطرفيها الذبايان والظبتان ولحديهما
الغراران ولجانبيهما اللذين لا يقطعان شيئا الكلان، ولحافتيهما السمان
وكذلك يقال لشقبي الأنف السمان، وأنشد أبو حاتم :

ونفست عن سميهِ حتى تنفسا وقلت له : لا تخش شيئا ورائيا
ويقال للحديدة التي تسمر بها الشعيرة، ولصوتها الصليل والصرير،
وللثقب بطرفيها الوخز، وكل طعن وخز، قالت الخنساء :

بييض الصفاح وسمر الرماح فبالبيض ضربا بالسمى وخزا
ويقال خسقت وخزقت بالسين وبالنزاي إذا ثقت بسهم أو بإبرة أو
نحو ذلك.

(74) العربي المستاري أديب كثير النظم نسبت إلى بني مسارة من قبائل الجبال قرب وتهاز، صاحب المنظومة "سراج طلاب العلوم" التي شرحها اللفهيشي في كتابه "الابتهاج بنور السراج" توفي بعد 1199 هـ 1785 م "الابتهاج" ج 1 ص 5 إلى 14 "الاعلام" للزركلي ج 4 ص 224 ط 5 سنة 1980.

المقصد الرابع في المكتوب فيه

قال ابن قتيبة : إن كان الذي يكتب فيه جلدا فهو رق وقرطاس بكسر القاف، وقرطاس بضمها، وقرطاس، وقد تقرطست قرطاسا إذا اتخذته، وقرطست قرطاسا إذا كتبت فيه، وتقول قرطسنا يا فلان أي جئنا بقرطاس فإن كان من خرق فهو كاغد بالذال المهملة وحكي بالمعجمة، وقد يستعمل القرطاس في كل بطاقة يكتب فيها ، ويقال لما يكتب فيه صحيفة ومهرق، وأصله بالفارسية مهره، والقضيم والقضيمة قال الأعشى :

ورب كريم لا يكدر نعمة وإذا تنوشد بالمهارق أنشدا (75)
وقال امرؤ القيس :

(ويبين الشبوب كالقضيمة قرهب)

ويقال السجل والوصر بمعنى واحد، ويقال للصك قط، وجمعه قطوط وقطاط، وكذلك كتب الجوائز والصلوات قال الأعشى :

وألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك أقنو كل قط مضلل
وقال المتلمس :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقال الله تعالى {ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب} فإن كان كتابا كتب فيه بعد محو فهو طرس، ويقال رقت الكتاب رقما ولقمته لقما، ونمقته نمقا، ونمقت تنميكا، وحبرت تحبيرا، ونبقته تنبيقا، النون قبل الباء، وينقته تنبيقا الباء قبل النون، ورقشته ترقيشا، وزرجته زرجة وزرجا وزورته تزويرا، وزخرفته زخرقة، كل ذلك إذا كتبت كتابه حسنة، فإذا نقطته قلت وشمته وشما، ونقطته نقطا، وأعجمته إعجاما، ورقنته ترقينا قال طرفة :

كسطور السرق رقصه بالضحي مرقش يشيمه

وقال المرقش :

برقم ووشم كما نممت بمنشمها المزهاة الهدي

(75) يشار إلى ما في هامش الأصل، وهو : رب كريم لا يكدر نعمة.

قالوا وبهذا البيت سمي المرقش مرقشا، وقال رؤية :

(دار كرقسم الكاتسب المرقش)

فإذا فسد الخط قيل مجمجه مجمجة، وثبجه تثبيجا، وشرمجه شرمجة، وهلله هللة، ولهله لهلة، فإذا لم يبين خطه قيل : دخمسه دخسة، ومجمجة مجمجة، وعقمه عقما، وعقله عقلا، فإذا أدق الحروف وقارب بعضها من بعض، قيل قرمط قرمطة، وقرضع قرضعة، فإذا مد الحروف قيل مشق مشقا، ويقال المشق سرعة الكتابة وسرعة الطعن، وقد تقدم لنا ذلك، فإذا عظم الحروف وطولها قيل مدا ومط مطا، ومططها تمطيطا، فإذا نقص من الكتابة شيئا فألحقه بين الأسطار أوفي عرض الكتاب فهو اللحق وجمعه ألحاق :

عور وحسول وثالث لهم كأنسه بين أسطر لحق

فإذا سوى حروف كتابه ولم يخالط بعضها من بعض قيل : جزم يجزم جزما، وخط مجزوم وجزم، ويقال من السطر سطر بالتخفيف وبالتشديد، وسيطر، ويقال سطر وسطر بتسكين الطاء وفتحها وجمع سطر الساكن أسطر وسطور، وجمع سطر المفتوح أسطار، ويجوز فيه سطور كما قالوا أسد وأسود، وجمع الجمع أساطير فإذا وضع على الكتاب ترابا بعد الفراغ من كتبه قال أتربة إترابا، وترته تتريبا، ومن اللغويين من يقول أتريت ولا يجوز تريت.

قال النضر بن شميل كنت يوما عند المأمون وعلي أطمار فقال يا نضر: أتدخل علي في هذا اللباس ؟ ثم تجاذبنا الحديث فقال المأمون : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (76) : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كأن فيه سداد من عوز" قال النضر فقلت يا أمير المؤمنين حدثني عوف الأعرابي عن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها فإن فيه سدادا من عوز" وكان المأمون متكئا فجلس وقال : السداد في هذا الموضع لحن ؟ قلت نعم، قال ما الفرق

(76) ذكره السيوطي في "الجامع الصغير" وعزاه للشيرازي.

بينهما ؟ قلت هو بالفتح القصد في الدين ، وبالكسر البلغة وما يسد به الشيء ، قال أتعرف العرب هذا ؟ قلت نعم ، هذا العرجي من ذرية عثمان بن عفان يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمر
فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال : قبح الله من لا أدب له ، فقلت ما
لحن أمير المؤمنين وإنما لحن هشيم ، وكان لحانة فتبع ذلك أمير المؤمنين ، كما
تتبع ألفاظ الفقهاء ، فقال لي كيف روايتك للشعر ؟ فقلت أروي الكثير منه ،
فقال أنشدني أحسن ما قالته العرب في الحلم فأنشدته :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محل من العلى هويت إذن صفحا وحلما على المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

فقال ما أحسن ما قال ، فقال أنشدني أحسن ما قالته في الحزم ، فأنشدته :

على* كل حال فاجعل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فإن نلت أمرا نلت عن عزيمة وإن قصرت عنه الحقوق فللعذر

فقال أحسن فيما قال ، فأنشدني أحسن ما قالته في استصلاح العدو فأنشدته :

وذي غيلة سالته فقهرته وأوقرته مني بعيب التجمل
ومن لا يدافع سيئات عسوده بإحسانه لم يأخذ الطول من عل
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا لضغن عدو من وداد معجل

فقال ما أحسن ما قال ، فأنشدني ما قالته في التسكين والتهديد فأنشدته :

إني ليهجرني الصديق تجنبيا فأريه أن لهجره أسبابيا
وأراه إن عاتبته أغريته فيكون تركي للعتاب عتابيا
وإذا بليست بجاهل متحكّم حسب المحال من الأمور صوابيا
أوليته مني السكوت وربيا كان السكوت عن الجواب جوابيا

فقال أحسنت، ثم قال ما لك يانضر ؟ فقلت أريضة بمرور الروذ
أتمزرها (77) فقال أفلا أفيدك مالا ؟ قلت إن رأى أمير المؤمنين فذلك عادة
فضله، فدعا بدواة وقرطاس فكتب، ولا أدري ما كتب، ثم قال إذا أردت
أن تترب الكتاب كيف تأمر ؟ قلت أقول يا غلام أترب الكتاب، قال فهو
ماذا ؟ قلت مترب، قال فمن إسحائه ؟ قلت أقول يا غلام : اسح الكتاب،
قال فهو ماذا ؟ قلت مسحى، قال : فمن الطين ؟ قلت أقول يا غلام طن
الكتاب وأطن الكتاب، قال فهو ماذا ؟ قلت مطين ومطآن، فقال أترب
وأسح وأطن، وامض به إلى الفضل بن سهل، فلما أوصلته له قال : بما
استحققت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألفا ؟ فقصصت عليه الحديث،
فقال لحنت أمير المؤمنين، فقلت ما لحن إلا هشيم، فأعطاني الفضل أربعين
ألفا أخرى من عنده.

رجوعا إلى ما كنا بصدده، قال ابن قتيبة : فإن جعل عليه براية من
العيدان التي تسقط عند نشرها قيل أشره تأشيرا، ووشره توشيرا، ونشره
تنشيرا، لأنه يقال : أشرت الخشبة ووشرتها ونشرتها وهو المئشار بالهمزة
والميشار من غير همزة والمئشار بالنون، ويقال لما يسقط منه الإشارة
والوشارة والنشارة والذي يفعل ذلك الآشر والواشر والناشر، والعود مأشور
وموشور ومنشور، ويقال سحوت الكتاب سحوا وسحيته سحيا، إذا قشرت
منه قشرة، وأسم تلك القشرة سحاة وسحاية وسحاة، والجمع سحاءات
وسحايات وسحاء مكسور ممدود وسحاء مفتوح مقصور وسحايا وكذلك
القطعة الصغيرة منه، فإذا شددته بسحاة قلت سحيته بالتشديد تسحية،
ويقال للسحاة التي يشد بها خزامة، وقد خزمته فهو مخزوم، ويقال لها
أيضا إضباره وضباره بكسر الضاد، وقد ضبرته بالتخفيف وضبرته
بالتشديد والإضباره أيضا صحف تجمع وتشد، ويقال : وحيت الكتاب أحيه
وحيا فأنت واح إذ كتبت، وأوحيت فأنت موح، وقد قيل في تفسير قوله
تعالى : (فأوحى إليهم أن سبحوا) أي كتب إليهم، قال الشاعر :

ما هيج الشوق من أطلال أضحت قفارا كوحى الواحي

(77) في (ش) و (ف) أريضة أتمزرها.

ويقال للخطوط التي يكتبها الكتاب والصبيان ويعرضونها ليرى أيهم أحسن التناشير (78) والتحاسين، ويقال للكاتب اذ أسقط شيئا من كتابه، قد أوهمت إيهاما، فإذا غلط قيل له وهمت وهما بالفتح على مثال وجلت وجلا، فإذا أراد شيئا وذهب وهمه إلى غيره، قيل له، وهمت تهم وهما ساكن الهاء على مثال وزنت تزن وزنا.

وللكتاب أسماء وقع الاصطلاح عليها من اللغويين، فمنها ما يعم جميعها، ومنها ما يخص بعضها، فمن الأسماء العامة الكتاب والصحيفة فإنهما يقعان على جميع أنواعها، وليس كذلك المصحف لأن هذا الاسم لا يوقعونه في المشهور المتعارف إلا على الكتب السماوية المنزلة على الرسل، وقد يستعمل في غير ذلك وهو قليل، وأما القنداق والزمّام والأوارج والاختندج، وهو القنداق فلا تستعمل إلا في الكتب المتصرفية في الخدمة وحساب الخراج والعمال، ويقال من الأوارج أرجت تأريجا وورجت توريجا، والرسائل لا تستعمل إلا في المخاطبات والمكاتبات، والوثائق والسجلات لا تستعمل إلا في الكتب المتصرفية في مجالس القضاة والحكام، وقد تستعمل السجلات في كتب السلاطين، والعهد لا تستعمل إلا في كتب الأشرية، والصكوك والقطوط الغالب عليها أن تستعمل في كتب الولايات والإقطاعات والإنزالات والمحاشاة عن الوظائف والكلف، وربما استعملت في غير ذلك، والأشهر استعمالها فيما ذكرناه، قاله العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي في الاقتضاب وقد جرت العادة في الأكثر ألا يقال سفر إلا لما كان عليه جلد، وأما الدفتر فيطلق على المجلد وغيره، واشتقاق السفر من قولهم أسفر الصبح إذا أثار كأنه يبين الأشياء كما يبينها الصبح، وهذا الاشتقاق يوجب أن يقال : السفر لكل ما كتب، ولكن العادة بما ذكرناه قبل.

وأما الطبع والختم فإنه يقال طبعت الكتاب أطبعه طبعاً وختمته ختما واقفته اقفاً، ويقال للذي يطبع به طابع وطابع وخاتم وخاتم بالفتح والكسر، وأما الرجل الذي يطبع ويختم فطابع وخاتم بالكسر لا غير، ويقال للطابع أيضا مطبع، وفي الخاتم الذي يختم به لغات، خاتم وخاتم وخيتام وخاتام

(78) في (ف) ناشر يدل التناشير.

وختام وختم، وقول الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم

اختلفوا في قوله وعليها ختم، فقال قوم أراد الخاتم، وقال آخرون إنما

ختم فعل ماض أراد وختم عليها وأما الطين الذي يختم به فيقال له ختام

وجرجس وجولان وجعر، قال تعالى {ختامه مسك} وقال امرؤ القيس :

ترى أثر القرح في جلدي كما أثر الختم في الجرجس

وقال ملحة الحرمي :

كان قرادى صدرها طبعتهما بطين من الجولان كتاب أعجم

وقال أبو رياش : إن الجولان في هذا البيت موضح بالشام، وذكر أبو

عمر المطرز : أن الجعريين خاتم القاضي، ويقال أكرمت الكتاب إذا ختمته،

قال بعض المفسرين في قوله تعالى {إلقي إلي كتاب كريم} أي مختوم،

ويقال لخاتم الملك الخلق والهجار، قال المخبل السعدي يذكر أن رجلا من

قومه أعطاه الملك النعمان بن المنذر خاتمه :

وأعطي منا الخلق أبيض ماجد سليل ملوك ما تغب فواضله

وقال الأغلب العجلي :

ما إن رأينا ملكا أغارا أكثر منه قسرة ونارا

وفارسا يستلعب الهجارا

وذكر المطرز أن الهجار خاتم القاضي، وذكر أشياء كأنها مخصوصة

بالقاضي، وهي جائزة في غيره، ويقال للقاضي : الفتاح والفتوحة

والحكومة، والقواري عدوله، والخول أمناؤه، وأحدهم خائل، والهداهد

أصحاب مسائله، والمنافدون وكلاء خصومه وأحدهم منافد، قال والدرانية

حجابه، والمثالي كاتبه، والنون دواته، والمجزأة سكينه، والمزابر أقلامه،

والبوهة صوفة مداده، والزبرة قمطر المحاضر، والأوصار السجلات واحدها

وصر، يقال هذا وصري وخذ وصرك، والسلاب سواد القاضي، والساج

طيلسانه، والأخدرية قلنسوته، والمقطرة مجمرته، واللية بخوره، أنشد عليه

ثعلب :

لا تصطلي ليلة ربح صرصر إلا بعودلية ومجمر
والسندل جوربه إذا كان من خرق، فإذا كان من صوف رقيق فهو
المسماة، وإذا كان من كتان فهو الغلالة، والميزل خفه، والتلوة بغلته،
والبساط حصيره، والحسبانة وسادته، والهجار خاتمه، والجعرطين خاتمه،
ويقال طنت الكتاب إذا جعلت عليه طينا، وتأمر من يفعل ذلك فتقول : طن
الكتاب فإن أكثرت من ذلك فقل طينت، ويقال لما يجعل فيه الطين
ميطنة (79)، وأما الطابع الذي يطبع به الدنانير والدراهم فيقال له روسم، قال
كثير :

إلى النفر البيض الذين وجوههم دنانير شيفت من هرقل بروسم
وأما العنوان فيقال فيه عنوان وعلوان وعنيان، يقال عنونت الكتاب
أعنونه عنونة وعنوانا فهو معنون، وعننته أعنونه عونا فهو معون، وعننته
أعننته تعنيانا فهو معان، وعننته أعننه عنا فهو معنون، وعننته أعنيته تعنيته
فهو معنى، وعنوته أعنوه عنا فهو معنو وأفصحهن عنونته فهو معنون
قال الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا (80)
وقال آخر :

رأيت لسان المرء رائد عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنون
فالعلوان باللام مشتق من العلانية، والعنوان بالنون مشتق من عن الشيء
يعن إذا عرض، والواو على هذا زائدة، ووزنه فعوال، وقد قيل إنه مشتق
من قولهم عنت الأرض تعنو إذا ظهر فيها النبات، ويقوى هذا القول ما
ذكرناه من قولهم عنوت الكتاب وعننته، فيلزم على هذا أن يكون وزن
عنوان فعلان، وتكون الواو أصلا والنون زائدة، وهو عكس القول الأول،
ويلزم على هذا أن تكون اللام في علوان بدلا من النون كما قالوا في
جبريل جبرين، وأما من قال عننته وعننته بالنون فلا يكون في هذه اللغة إلا
من عن يعن إذا عرض، وتكون الواو في علوان زائدة، واللام في علوان

(79) بكسر الميم.

(80) في (م) و (ش) ضجرا.

بدلاً من النون، لا يصح غير ذلك، ومن قال عنته أعونه على مثال صفته أصوغه فإنه مقلوب من عنوته أعنوه، وقد قال قوم إن العنوان مشتق من العناية بالأمر لأن الكتب في القديم كانت لا تطبع، فلما طبعت وعنونت جعل القائل يقول من عني بهذا الكتاب، ولقي عني كاتبه به، وهذا الاشتقاق لا يصح إلا على لغة من يقول عنيان بالياء ولا يليق بسائر اللغات انتهى وقال قوم آخرون أصل العنوان الأثر، وبه سمي عنوان الكتاب، واحتجوا بقول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا
وهذا القول فيه نظر لأنه يلزم في العنوان الذي هو الأثر من الاشتقاق ما يلزم في عنوان الكتاب.

وأما الديوان فإنه اسم أعجمي عربته العرب، وأصله دوان بواو مشددة، فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها، ودل على ذلك قولهم في جمعه دواوين وفي تصغيره دويوين، فرجعت الواو حين ذهبت الكسرة، ومن العرب من يقول في جمعه دياوين بالياء قال الشاعر :

عداني أن أزورك أم عمرو دياوين تشقق بالمداد
قال ابن السيد البطليوسي هكذا رويناه بالياء، وفي ديوان شذوذ عما عليه جمهور الأسماء في الاعتلال من وجهين : أحدهما أن الواو الساكنة إنما تقلب ياء للكسرة التي قبلها إذا كانت غير مدغمة في مثلها، نحو ميزان وميعاد، فإذا كانت مدغمة في مثلها صحت نحو اجلواذ واعلواط، والوجه الثاني أن الواو والياء من شأنهما في المشهور المستعمل من صناعة التصريف أنهما إذا اجتمعتا وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء، نحو لويته ليا، وطويته طيا، ونحو سيد وميت، والأصل في تسميتهم الديوان ديوانا أن كسرى أمر الكتاب أن يجتمعوا في دار ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام وأعجلهم فيه واطلع عليهم لينظر ماذا يصنعون، فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يكون، وينسخون ذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال أي ديوانه معناه هؤلاء مجانين، وقبل شياطين، فسمي موضعهم ديوانا واستعملته العرب وجعلوا كل محصل من علم أو شعر ديوانا. وروي عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما

أنه قال : إذا قرأتم شيئاً من القرآن ولم تعرفوا ما غريبه فاطلبوه في شعر العرب، فإنه ديوانها، ويقال لخاتم الديوان الفيح وقد فيجت فلانا جعلته فيجا، والفيح أيضا الذي يحمل الكتب من بلد الى آخر، وأما فوجت بالواو فمعناه جمعت فوجا من الناس.

وأما البراءة فهي في الأصل مصدر من قولك برئت من الأمر براءة وبراء أي تبرأت منه تبرؤا، ويقال فلان بريء من ذلك، وهما بريئان، وهم برءاء على وزن ظرفاء، فإذا قلت هو براء بفتح الباء لم تكن ولم تجمع لأنه مصدر وصف به، ويقال قوم برءاء بكسر الباء على وزن ظركاف، وبراء بفتح الباء وبراء بضمها، وهو اسم للجمع بمنزلة ثوأم جمع ثوأم وعراق جمع عرق، وهو العظم بما عليه من اللحم، ونوق بساط وهي الناقة (81) معها ولدها، ولم يأت شيء من الجمع على فعال إلا ثمانية ألفاظ هذه بعضها ويروى بيت زهير :

إليكم إننا قوم براء

بالفتح والكسر والضم، فأما البراءة المستعملة في صناعة الكتابة فسميت بذلك لمعنيين أحدهما : أن يكون من قولهم برئت إليك من الدين براءة أعطيتك ما كان لك علي، وبرئت إليه من الأمر براءة إذا تخليت له عليه، فكان المرغوب يتبرأ من الراغب مما أمله لديه، ويتخلى له عما رغب فيه، وقيل إنما كان الأصل في ذلك أن الجاني كان إذا جنى جناية يستحق عليها العقوبة ثم عفا عنه الملك كتب له أمانا مما كان يتوقعه ويخافه، فكان يقال كتب لفلان براءة أي أمانا، ثم صار مثلاً استعير في غير ذلك.

قال في الاقتضاب : وقد جرت عادة الكتاب ألا يكتبوا بالبسملة في أول البراءة اقتداء بسورة براءة التي كتبت في المصحف بدونها، واختلف في العلة في عدم كتابتها فيها، فقال قوم : وهو رأي محمد بن يزيد المبرد، لم يفتح بها لأن باسم الله افتتاح للخير، وأول براءة وعيد ونقض للعهد، وسئل أبي بن كعب رضي الله عنه : ما بال براءة لم تفتح ببسم الله الرحمان الرحيم ؟ فقال : لأنها نزلت في آخر ما نزل من القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر في كل سورة ببسم الله، ولم يأمر في براءة

(81) انظر الاضائة

فضمت الى الأنفال، لشبهها بها، يعني لأن أمر العقود مذكور في الأنفال، وهذه نزلت بنقض العهود، فكانت ملتبسة بها.

وأما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك : ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب : لترد لهذا ظلامته، ولينظر في أمر هذا، ونحو ذلك، وكما يروي عن جعفر بن يحيى بن خالد أنه رفع إليه كتاب يشتكي فيه بعامل، فوقع على ظهره : يا هذا، قد قل شاكروك، وكثر شاكوك، فإما عدلت، وإلا عزلت، وقال الخليل بن أحمد : التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ منه، واشتقاقه من قولهم وقعت الحديد بالميقعة، وهي المطرقة إذا ضربتها، وحمار موقع الظهر أصابته في ظهره دبرة، والوقبة نقرة في صخرة يجتمع فيها ماء، قال ذو الرمة :

وقلنا سقاطا من حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع
فكأنه سمي توقيعاً لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سبب إلي وقوع
الأمر وإنفاذه من قولهم أوقعت الأمر فوق.

وأما التاريخ فيقال أرخت الكتاب تاريخاً، وهي أفصح اللغات، وورخته تورخاً، فهو مؤرخ ومورخ، وأرخته مخففة الراء أرخاً، فهو مأروخ، وهي أقل اللغات، والتاريخ نوعان : شمسي وهو المبني على دوران الشمس، وقمري على دوران القمر، وكان المتقدمون يسمون الحساب القمري حَسْرَمَان، وتاريخ العرب هو القمري، وهو الذي يجري به العمل. عند الفقهاء في الأحكام الشرعية، وكانت العرب تؤرخ بالكوائن العظام، والحوادث المشهورة، من قحط أو خصب، أو قتل رجل عظيم، أو موته، أو واقعة مشهورة، قال الربيع بن ضبع الفزاري :

ها أنذا آمل الحياة وقد أدرك عمري ومولدي حُجْراً
أبا امرئ القيس هل سمعت به هيهات هيهات طال ذا عُمْراً

وقال آخر :

" أزماء: تناعى الناس موت هشام "

يعني هشام بن الوليد المخزومي، وقال النابغة :

فمن يك سائلا عني فإني من الشبان أيام الخناب (82)

وقال حميد بن ثور الهلالي :

وما هي إلا في إزار وعلقة مغار بن همام علي حي خثعما (83)

وكانوا يؤرخون بعام الفيل والفجار، وبناء الكعبة، وبين الفيل والفجار عشرون سنة، وسمي الفجار لأنهم فجروا فيه، وأحلوا أشياء كانوا يحرمونها، وبين الفجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بناء الكعبة ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس سنين.

وكانت الفرس تؤرخ بالوقت الذي جمع فيه أزدشير ملك فارس بعد أن كانوا طوائف، ولم يكن في صدر الإسلام تاريخ إلى أن ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فافتتح بلاد العجم، ودون الدواوين، وجبي الخراج، وأعطى الأعطية، فقبل له ألا تؤرخ ؟ فقال : وما التاريخ ؟ فقبل شيء كانت تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، فقال عمر هذا شيء حسن، فأرخوا، فقال قوم نبأ بالتاريخ من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قوم بل من وفاته، وقال قوم بل من الهجرة، ثم أجمعوا على الابتداء من الهجرة في شهر ربيع الأول، وكان مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، فقدم التاريخ على الهجرة بشهرين، واثنتي عشرة ليلة، وكانوا يكتبون شهر رمضان وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، فيذكرون الشهر مع هذه الثلاثة الأشهر، ولا يذكرونه مع غيرها من الشهور، والشهور كلها مذكورة الأسماء إلا جمادى الأولى والثانية، وهي كلها معارف جارية مجرى الأسماء الأعلام انتهى.

(82) في (ب) من الشبان، وهو مغل بالوزن.

(83) في (ب) عتلة بدل عتلة.

المقصد الخامس في المكتوب به

وهو القلم والمزبر بالزاي، والمذبر بالذال المعجمة، سمي بذلك لأنه يزبر به ويذبر أي يكتب، وقد فرق بعض اللغويين بين زبرت وذبرت، فقال : زبرت بالزاي كتبت، وذبرت بالذال قرأت، وسمي قلما لأنه قلم أي قطع وسوي كما يقلم الظفر، وكل عود يقطع ويحد رأسه ويعلم بعلامة فهو قلم، ولذلك قيل للسهم أقلام، قال الله تعالى {إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم} وكانت سهامها مكتوبا عليها أسماؤهم، ويقال للذي يقلم به مقلم، ولما يبرى به مبرى، ومبراة، وقد برتته أبريه برى، وحصرمته حصرمة، عن ابن الأعرابي، ويقال : لما يسقط عن التقليم القلامة، وعن البرى البراية، وجمع القلم أقلام وقلام، كجبل وجبال وأجبال، وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ فجعل يفكر ويقلب أصابعه وينظر فيها، فقال : لا أدري فقليل له توهمه في نفسك، فقال عود قلم رأسه وجوانبه، كتقليم الأظفر، ويقال لعقده الكعوب، واحدها كعب، فإن كانت فيه عقدة تشينه وتفسده فهي الأبنة، ويقال لما بين العقد الأنابيب واحدها أنبوب، والمقال واحدها مقلم، والأنابيب والكعوب تستعمل أيضا في الرماح، وفي كل عود فيه عقد، وكذلك الأبن، فإن كان في القصبة أو العود تأكل، قيل فيه قادح وفيه نقد، وكذلك في السن والقرن قال جميل :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح
وقال الهذلي :

تيس تيسوس إذا يناطحها يالسم قرنا أرومه نقس
ويقال لباطنه الشحمة، ولظاهره الليط، فإن قشرت منه قشرة قلت تليطت من القلم ليطة، أي قشرتها، والليط أيضا اللون، قال أبو ذؤيب :

" صلاة طيب ليطها واصفرارها "

ويقال للقصب البراع والأبء، وقال قوم : الأبء أطراف القصب، والواحدة يراعة وأبءة، قال متمم بن نويرة يذكر فرسا :
ضافي السبيب كأن غصن أبءة ريان ينفضه اذا ما يقدع

ويقال للقطن الذي يوجد في جوف القصبة البيلم والقنصف، والفسخ،
واحدها بيلم، وقنصفة وفشغة، فإن كان فيه عوج فذلك الدرء وكذلك
العود، قال الشماخ :

أقام الثفاف والطريدة درأها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز
الطريدة خشبة صغيرة فيها حديدة تسوى بها الرماح ونحوها، ويقال
لغشائه الذي عليه الغلاف واللحاء والقشر، فإذا نزعت قلى قشرته وقشوته
وقشيتته ولتمته ولفأته وكشأته ولحوته ولحيته وسجفته وسحيتته وسحوته
وجلفته وجلهته ووسفته ونقحته، ويقال لطرفيه اللذين يكتب بهما : السنان
واحدها سن، والشعيرتان واحدهما شعيرة، فإذا قطعت طرفيه وهياأته
للكتابة قلت : قططته أقطه قطا وقضمته أقضمته قضا والمقط بالكسر ما
يقط عليه، والمقط بالفتح الموضع الذي يقط من رأسه، قال أبو النجم :

" كأنما قط على مقط "

وقال المقنع الكندي يصف القلم :

يحفى فيقضم من شعيرة أنفه كقلامه الأظفوس في تقلامه
فإذا انكسرت سنه قيل : قضم يقضم قضا، كحذر يحذر حذرا،
وكذلك كل تكسر في سن أو سيف أو رمح أو سكين، فإن أخذت من
شحمته بالسكين قلت : شحمته أشحمه شحما، فإذا أفرطت في الأخذ منها
قلت : بطنت القلم تبطينا، وحفرته حفرا، وقلم مبطن ومحفور، وأسم موضع
الشحمة المنتزعة الحفرة، فإذا تركت شحمته ولم تأخذ منها شيئا قلت
أشحمته إشحاما، ويقال للشحمة التي تحت برية القلم الضرة، شبهت بضرة
الإبهام، وهي اللحمية التي في أصلها، كذا قال ابن قتيبة في آلة الكتاب
وهو المعروف، ولكنه خالف في أدب الكتاب، فقال : الألية اللحمية التي
في أصل الإبهام، والضرة اللحمية التي تقابلها، فإن جعلت سني القلم
الواحدة أطول من الأخرى قلت قلم محرف، وقد حرفته تحريفا، وإن جعلت
سنيه مستويتين قلت : قلم مبسوط وقلم جزم، فإن سمع له صوت عند
الكتابة فذلك الصريف والصرير والرشق، ويقال قلم مذب بفتح النون أي
طويل الذنب، فإذا كثر المداد في رأس القلم حتى يقطر المداد قيل : رعف

القلم يعرف رعاها شبه برعاف الأنف، ومج يمج مجا وأرعفه الكاتب إرعافا وأمجه إمجاجا، ويقال للكاتب استمدد ولا ترعف، ولا تمجج ولا تمج أي لا تكثر من المداد حتى يقطر، ويقال للخرقة التي يمسح بها الكاتب الوقيعة بالقفاف وتقدم لنا عن أبي عمرو الشيباني أنها الوقيعة بالفاء.

المقصد السادس في الكاتب

ليس المراد هنا بالكاتب خاصة الإنسان الماخوذة في رسمه بقولهم : الحيوان الكاتب، فإن ذلك بالقوة، وهذا بالفعل، بل المراد بالكاتب هنا مقابل الشاعر، كما يقال فلان كاتب وفلان شاعر، فالأول ناثر، والثاني ناظم، ويشترط في كل منهما البلاغة التي هي المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة، وليس كل من نظم الكلام يقال له شاعر، ولا كل من كتب وإن كان خطه في غاية الحسن والتقويم يقال له كاتب، فظهر بهذا أن المرسل البليغ هو الكاتب، سواء كان يكتب كما يراد منه مثل العماد الاصفهاني، أو كما يريد فقط مثل القاسم الحريري، وأما الذي يحسن الخط وتقويم الحروف وهو خال من غير ذلك، فهو قال فيه ابن قتيبة في أدب الكتاب : معرضا بكتاب زمانه وتنقيصهم وهجوهم ما نصه : "فأبعد غايات كاتبنا اليوم في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف" انتهى. قال الزجاجي في حواشيه : هذا إنما أنكره على من اقتصر من الكتاب على تحسين الخط دون ما سواه من الأدب ورأى أنه قد تناهى في الكمال إذ حسن خطه، وهو لعمرى كما قال منكره على من كان هذا مذهبه، ورآه فخرا ورضي به مرتبة، لأنه إنما هو في ذلك الحال بمنزلة مزوق نقاش، وليست هذه من المنازل التي يرضى بها كاتب عاقل في نفسه، فأما حسن الخط فمحمود في الجملة، يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله عز وجل {أو أثارة من علم} قال الخط الحسن، وقال جل ذكره في الحكاية عن يوسف عليه السلام {اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم}، قال : كاتب حاسب وقال بعض المفسرين في قوله تعالى {يزيد في الخلق ما يشاء} هو الصوت الحسن، وقيل الخط الحسن، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخط الحسن يزيد الحق وضوحا" (84) وقال بعض العلماء :

(84) لم تنف على تخريجه.

"من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتاب إلا به"، وقيل : "اللسان أكثر هذرا، والقلم أبقي أثرا، والكتاب يقرأ في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، وقال بعض أذكيا الحساب : وزن القلم من حساب الجمل نفاع، وذلك أن الألف بواحد، واللام بثلاثين، والقاف بمائة، واللام بثلاثين، والميم بأربعين، ومجموع ذلك مائتان وواحد، وكذلك نفاع النون خمسون، والفاء ثمانون، والألف واحد، والعين سبعون، فذلك مائتان وواحد، فقد استوى حسابهما، وقد أكثر الناس في مدح الكاتب والقلم، وأتوا في ذلك بكل عجيب، فمن ذلك قول أبي تمام الطائي في الوزير محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات، وهو من أجود ما قيل في القلم والكاتب، وهو هذا :

لك القلم الأعلى الذي بشبات
لك الخلوات اللاء لولا نجيبها
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
له ريقة طسل ولكن وقعها
فصيح إذا استنطقته وهو راكب
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
أطاعته أطراف الرماح وقوضت
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت
وقد رفدته الخنصران وشددت (85)
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف
وقال القطامي (88) :

لك القلم الذي لم يجر يوما
ومبتسم على القرطاس بأسو
فما المقدار أعضب من شباه
بغاية منطق فكبا بعبي
ويجرح وهو ذو بال رضي
ولا الصمصام سيف المذحجي

(85) في (م) أنطقته بدل ناطقته.

(86) في الديوان "أطاعته أطراف القنا وتقرضت".

(87) في (ف) وقدته بدل رفدته.

(88) القطامي هو عمير بن شبيب من جشم أبو سعيد التغلبى الملقب بالقطامي، شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم وذكر له في "معاهد التنصيص" طائفة حسنة من أخباره توفي سنة 130 هـ 727 م "الأعلام" للزركلي ج 5 ص 88 وفيه مصادر ترجمته.

وقال أبو بكر بن دريد :

نحيل جليل الخطب أخرس ناطق يزف بنات اللب طوعا الى القلب
إذا اليد أصغت لتعمل غربه رأيت بنات الفكر تصغي إلى اللب
ونظر بعض الملوك الى جارية له تكتب كتابا فقال :

وزادت لدينا حظوة يوم أطرقت وبين أصبعيها (89) أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المدى وهو أعجف

قال ابن مقلة : الكتاب على أصناف خمسة : كاتب خط، وكاتب
لفظ، وكاتب عقد، وكاتب حكم، وكاتب تدبير، فكاتب الخط هو المورق
والمحرر، وكاتب اللفظ هو المرسل، وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي
يكتب للعمال، وكاتب الحكم هو كاتب القضاة ونحوهم ممن يتولى النظر في
الأحكام، وكاتب التدبير هو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته، وهؤلاء
الكتاب الخمسة يحتاج كل واحد منهم الى أن يتمهر في علم اللسان حتى
يعلم الإعراب ويسلم من اللحن، ويعرف المقصور والمدود، والفصل
والوصل، والمذكر والمؤنث، ويكون له بصر بالهجاء، فإن الخطأ في الهجاء
كالخطأ في الكلام، وليس على واحد منهم أن يعمق في علم النحو واللغة
إمعان المعلمين الذين صناعتهم وبضاعتهم ذلك، ولا إمعان الفقهاء الذين
أرادوا بالإغراق فيه فهم كلام الله تعالى واستنباط الأحكام والحدود
والعقائد بمقاييس كلام العرب ومجازاتها وحقائقها، إنما على الكاتب من
ذلك ما لا تسعه جهالته، ثم يكثّر بعد ذلك من معرفة ما يخص صناعته
من ممارسة رسائل الأئمة، كما في ضمن ريحانة الكتاب لابن الخطيب وغير
ذلك، قال ابن مقلة ونحن نذكر مراتب الكتاب على ما كانت عليه في
الزمن القديم، وأما اليوم فقد تغيرت عن رسمها المعلوم، ولكل دهر دولة
ورجال، ولكل حال إدار وإقبال انتهى.

وحاصل المراتب التي ذكرها إحدى عشرة مرتبة، كاتب الخط، وكاتب
اللفظ، وكاتب العقد، وكاتب المجلس، وكاتب العامل، وكاتب الجيش،
وكاتب الحكم، وكاتب المظالم، وكاتب الديوان، وكاتب الشرطة، وكاتب التدبير،
ولا نحتاج في هذا المحل إلا كاتب التدبير وكاتب الديوان وكاتب الجيش.

(89) في (نا) في بدل بين.

أما كاتب التدبير فهو أعظم مراتب الكتاب لأنه كاتب السلطان الذي يكتب أسرارته، ويحضر مجلسه، وهو الذي يدعى وزير الدولة المرجوع إليه في جميع أنواع الخدمة، وهذا أحوج الكتاب المذكورين الى أن تكون له مشاركة في جميع العلوم بعد إحكامه لما يحتاج إليه في صناعته، وينبغي أن يكون أكثر علمه التواريخ وأخبار الملوك والسير والأمثال والأشعار وعيون الأحاديث، وقال ابن رشيقي (90) في عمدته ويعرف المنازل القمرية وأعيان النجوم المشهورة، ومن ذلك معرفة حساب فصول السنة ودرجة الشمس من كل {برج} (91) مما ينقص الانسان جهله انتهى، وقال في الاقتضاب : ولا بأس أن يدخل في تضاعيف سطورهِ جسد الأشعار والأمثال، متمثلاً أو مقتضباً، ويصل بذلك حجتَهُ إذا حاور، وإنما يحسن ذلك في مكاتبة الأكفَاء ومن دونهم، ويكره ذلك في مخاطبة الملوك والوزراء إلا إذا علم أنهم يرغبون فيه، فإن الملوك الى هذه الأنواع من العلوم أميل، وهم بها ألهم وقلماء يميلون الى غير ذلك من العلوم، وبالجمله فينبغي لهذا الكاتب أن يعتني بتعلم الأشياء التي يعلم أن رئيسه يميل إليها ويحرص عليها، وأن يتجنب كل ما ينكره الملك وينافره فإن ذلك يحببه إليه ويحظى منزلته لديه، ويدعوه الملك الى الإيثار له والتقريب والإغضاء على ما فيه من العيوب، فقد روى أن زيادا الذي قيل إنه أخو معاوية عوتب في تقريبه لحارثة بن بدر الغداني وكان قد غلب على أمره حتى كان لا يحجب عنه شيئا من سره، ف قيل له : كيف تقر به وأنت تعلم استهتاره بشرب الخمر ؟ فقال : كيف باطراح رجل هو يسايرني مذ دخلت العراق ولا تصطك ركابي ركابه، ولا تقدمني فنظرت الى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا حجب عني الشمس في شتاء قط، ولا الروح في صيف قط، ولا سألته عن علم فظننت أنه يحسن غيره، انتهى. وإذا اجتمع للكاتب مع التفنن في العلوم والمعارف العفاف ونزاهة النفس عن القبائح فقد تناهى في الفضل وحاز غاية النبل إن شاء الله تعالى.

(90) ابن رشيقي أحد الفضلاء البلقاء صاحب التصانيف الملية، منها "العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيونه" قال ابن بسام في كتاب "الذخيرة" بلغني انه ولد بالمسيلة، وتادب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان توفي 406 هـ وقيل 456 هـ 1015-1063م "وفيات الأعيان" ج 1 ص 366 "شجرة النور الزكية" ج 1 ص 110..
(91) ما بين القوسين ساقط من (م) و (ش).

وأما كاتب الديوان فيحتاج مع ما قدمناه من الأوصاف الي أن يكون عارفا بأصول الأموال التي تحمل الي بيت المال، وأقسام وجوهها، وأحكام الأرضين، ووظائفها، وأملاك أهلها، وما يجوز للإمام أن يقطعه منها، ووجوه تفرقة الأموال وسبلها، وما يجوز في ذلك وما لا يجوز، وما جرت به العادة مما هو خارج عن أحكام الشريعة مبتدع في حكم الرياسة، ووجوه الأموال ثلاثة فيء، وصدقة، وغنيمة، فالفيء يقسم خمسة أقسام : أحدها ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين مما يوجد في بلاد الكفار بعد فتحها، مثل كنز النجير جان الذي وجد بعد فتح الأهواز وما جرى مجراه، والثاني ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين من أموال أهل البلاد الذين أجلاهم الرعب ولم يقاتلوا ولم يوجف عليهم بخيل ولا ركاب، والثالث الأرضون التي صالح أهلها عليها بشيء يؤدونه في كل عام، والرابع الأرضون التي فتحت عنوة وأقرت بأيدي أهلها وجعلوا غمالا للمسلمين فيها، وضرب عليهم فيها الخراج كما فعل عمر رضي الله عنه بالسواد، والخامس جزية أهل الذمة، وأما الزكاة فهي الصدقة الواجبة على المسلمين، وقد اختلف المسلمون في الأصناف التي تجب فيها الزكاة اختلافا يطول ذكره، وعلى من تجب الزكاة، وعلى من لا تجب، فينبغي لكاتب الديوان أن يعلم ذلك ويتفقه فيه، وأما الغنيمة فما غنمه المسلمون من بلاد الكفار أو عساكرهم.

وفي أحكام الديوان أمور كثيرة تخالف أحكام القضاة، ولهذا فصلت أحكام الديوان من سائر الأحكام، وذلك أن صاحب الديوان يحكم بالخطوط التي يجدها في ديوانه، ويلزم من نسبت إليه الأموال إذا عرفت والأحكام لا يفعلون ذلك ويمضي ضمان الثمار والغلات وسائر وجوه الجبايات ولا يمضي ذلك الفقهاء لأن تضمين الغلة قبل الحصاد ضرب من المخابرة التي نهى عنها، وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها من بيع الغرر، وبيع ما لا يملك وقد نهى عن ذلك كله، وأبواب الأموال من الجوالي وغيرها فيه أيضا خلاف لما توجبه الأحكام، لأن الجوالي مال على رقاب بأعيانها، ومتى مات الواحد منهم قبل أن يحل ما عليه أو أسلم بطل ما كان يلزمه، ووجوه الجبايات من الأسواق والعراض والطواحين على الأنهار التي لا ينفرد بملكها إنسان من المسلمين دون سائرهم مخالفة أيضا لما توجبه أحكام الشريعة، وجميع ذلك

جائز عند الكتاب على مذهب أحكام الخراج، قاله العلامة ابن السيد في الاقتضاب، ثم قال ولأجل هذا رأى قوم من الكتاب أن يجعلوا مكان تضمين الغلات {تضمين الأرض} (92)، وكانوا يتناولون في ضمان الارحاء أن ماءها ماء الخراج فيجعلون الجباية خراجا، وكذلك في الأسواق فإنهم كانوا يجعلون الجباية فيها لما كانت مشتركة بين المسلمين وأصحاب الدواوين كانوا يجعلون تاريخ سني الخراج بحساب الشمس لا بحساب القمر، لأن الشهور القمرية تنتقل بخلاف الشمسية، وكان كثير من الكتاب إذا ذكروا الحساب الشمسي يزيدون أن يقولوا : ويوافق ذلك من شهور العرب شهر كذا، أو شهر كذا، من سنة كذا من سني الهجرة إذا كان التاريخ عند الحكم بالسنين العربية دون العجمية، وأما كاتب الجيش فيحتاج بعد إتقان الحساب الى معرفة مقادير الأطماع أي الرواتب وأوقاتها وأربابها وضبطهم بالحلى، وكيف توخذ، ويعرف ما يتوفر منها إذا أسقط الأموات والغياب.

المقصد السابع في المكتوب إليه

هذا باب مهم يقع فيه الغلط كثيرا للكتاب لأنهم لا يبالون بمراتب المكاتبين، وهو أمر أكيد يحتاج الكاتب الى معرفة قدر المكتوب له عند الذي يأمره بالكتابة إليه، وما يليق به من التحلية والتكنية والأدعية، والفنون الأدبية التي تجرى بها المخاطبات بين الأكفاء والأعلى الى الأمثل أو الى الأدنى، على حسب ما تقتضيه مرتبة المخدم الذي يأمر الكاتب بالكتابة.

ومراتب المكاتبين ثلاثة : مرتبة من فوقك، ومرتبة من هو مثلك، ومرتبة من هو دونك، والمرتبة العليا تنقسم الى ثلاثة أقسام : فأعلاها مرتبة الخليفة ووزيره ومن كان نظير الوزير عنده، ثم مرتبة الأمراء ومن جرى مجراهم ممن هو دون الوزير، ثم مرتبة العمال وأصحاب الدواوين، والمرتبة الوسطى تنقسم الى ثلاثة أقسام أيضا : فأعلاها مرتبة الشريف من الأصدقاء والعالم، والثانية مرتبة الشيخ من الإخوان الذي يجب توقيره وإن لم يكن شريفا ولا عالما، والثالثة مرتبة الصديق إذا خلا من هذه الأحوال،

(92) ما بين القوسين ساقط من (ف) و (م) و (ش).

والمرتبة السفلى تنقسم الى ثلاثة أقسام أيضا : أعلاها من قرب محله من محلك، والثانية من لك رياسة عليه ووليته عملا هو من رعيته فيه، والثالثة مرتبة الحاشية ومن جرى مجراهم من الأولياء والخدم، ولكل طبقة من هذه الطبقات مرتبة في المخاطبة ومنزلة متى زيد عليها أو قصر به عنها وقع في الأمر الخلل وعاد بذلك بالضرر وأدى الى الهزء والمضاحك، وذلك أن الرئيس إذا قصر به عما يستحقه أو يرى نفسه أهلا لذلك أغضبه ذلك وأحنقه، والتابع إذا زيد على استحقاقه أطفاه ذلك وأبطره، إلا أن يكون قد فعل في الخدمة ما يقتضي التنويه رفعه عن تلك المنزلة ومثل هذا يرجع فيه الكاتب العالم الى مراعاة مقتضيات المقام.

ودليل ما ذكرناه في المرتبة العالية ما وقع لصلاح الدين يوسف بن أيوب أمير مصر والشام، حيث كتب لأmir المغرب يعقوب المنصور الموحي وخاطبه بأمر المسلمين دون أمير المؤمنين فغضب يعقوب فلم يساعده علي ما طلب، وقد تقدم هذا في راية يعقوب المنصور، ودليل ما ذكرنا في المرتبة السفلى ما ذكره المقرئ في نفح الطيب في ترجمة حرير بن عكاشة بعض أمراء الأندلس قال المقرئ : كان لحرير كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد، فأمره أن يكتب الى المامون بن ذي النون في شأن حصن دخله النصاري، فكتب الى أن قال : وقد بلغني أن الحصن الفلاني دخله النصاري إن شاء الله تعالى، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان، فإننا لله عن هذه المصيبة التي هدت قواعد المسلمين، وأبقت في قلوبهم حسرة الى يوم الدين انتهى فلما وصل الكتاب الى المامون ضحك حتى وقع على الأرض وكتب لابن عكاشة جوابه، وفيه وقد عهدناك منتقيا لأمرورك، نقادا لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجلف، وأسندت إليه الكتب عنك دون أن تطلع عليه، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ورائد عقله خطابه، وما أدري من أي شيء يتعجب منه، هل من تعليقه إن شاء الله بالماضي، أو من حسن تفسيره للقرآن ووضع مواضعه، أو من تورعه عن تأويله الا بتوقيف، أو من تهويله لما طرأ على من يخاطبه، أو من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد علي تهويله شيئا، ولو أن حقيرا يخفي عن علم الله تعالى لخفي هذا الحصن

ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام خارج عن سلك النظام، لا يعبره إلا لص فاجر، أو قاطع طريق، باعه أحد حراسه بعشرين ديناراً، ولعمري إنه لم يغب في بيعه ولا ربح مبتاعه، فليت شعري ما الذي أعظمه في عين هذا الكاتب الجاهل انتهى المراد منه الذي تعلق به الغرض، وقد أكمل المقرئ القصة فليَنظرها من أراد قال في الاقتضاب فينبغي للكاتب أن ينزل كل واحد من هذه الطبقات في مرتبته التي تليق به، على قدر منزلته منه، وعلى ما جرت به عادة الكتاب في زمانه، فإن العادة تختلف باختلاف الأزمنة، فيستحسن أهل كل زمان ما لا يستحسنه أهل زمان آخر.

ومن مقتضيات هذا المقصد، أنه يجب على الكاتب أن ينتبه في مخاطبات النساء، فإن في ذلك آداباً تجب مراعاتها، فمن ذلك أنه لا ينبغي للكاتب أن يبدأهن بدعائهن بالكرامة ولا بالسعادة لأن كرامة المرأة وسعادتها موتها، ولا يقال لإحداهن : قم الله نعمه عليك لأنهن يكرهن أن يكون شيء عليهن، ولا يقال لواحدة منهن بلغ الله أملي فيك، ولا كان هذا يقيني فيك، لاستقباح أن يكون شيء فيهن، ولا يقال لها جعلني الله فداك، لأن هذا يجري مجرى المغازلة، ولا قوله : كل شيء منك حسن، وبالجملة يجتنب كل لفظة يقع فيها الاشتراك ويمكن أن تتأول في العرف على ما يستقبح، فإن ذلك يعد من نبل الكاتب. «ومن ذلك ما حكى أن أعرابياً مدح زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد، فقال :

أزبيدة ابنسة جعفر طوبى لسائلك المشاب
تعطين من رجلك ما تعطي الأكف من الرغاب
فوثب إليه خدماها وهموا بضربه، فمنعتهم وقالت لهم : إنما أراد خيراً فأخطأ، وهو أحب ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه إذا قيل هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل» (93) والله سبحانه أعلم وأحكم.

(93) ما بين القوسين ماقط من (فا) و (شر).

خاتمة نافعة، جالبة، دافعة

فيها بعض المواعظ التي تختص بالملوك، وتكف من جماحهم عند السلوك، والمواعظ المنقولة في ذلك كثيرة جداً، كمواعظ الفضيل بن عياض (94) لأبي جعفر المنصور العباسي، ومواعظ الحسن البصري، ومواعظ ذي النون المصري (95)، ومواعظ العمري (96) للرشيد. وكانت المواعظ التي تصدر من هؤلاء السادات رضي الله عنهم شديدة الموقع في القلوب، لأنهم لا يبالون بأحد ولا يخافون في الله لومة لائم، وكان الأمراء والخلفاء يطلبون ذلك منهم، وربما دعوا أحداً منهم لأجل ذلك، فيهرب منهم فيأتونه لبيته ليلاً، فإذا أحس بهم أطفأ السراج فيلتمسونه في الظلام بأيديهم، فإذا وجدوه وعظهم على تلك الحالة كما وقع لأبي جعفر المنصور مع الفضيل بن عياض، فإن قلت إن مواعظ الملوك والأمراء اليوم لما فسد الزمان وأهله لا يظهر نفعها إلا إذا تجردوا عما هم فيه، وانخلعوا عنه بالكلية وذلك لا يمكن، فالجواب، أن هذا غير صحيح فإن الذي لا يمكن كله لا يترك كله، فإن الداء المتمكن كل التممكن العسير البرء يعالج ليخف ألمه، وتحد زيادته، وهذه فائدة ظاهرة.

وها نحن نذكر من هذا الدواء ما ترجى بركته، وتدخر ثمرته، ونقتصر من ذلك على النزر الكافي، والقدر المبارك الشافي، من ذلك ما روى عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه أنه قال : بعث إلي المنصور وإلى محمد بن طاووس (97) فدخلنا عليه وهو جالس على فرش نصت له، وبين يديه أنطاع قد بسطت، والجلالوزة قائمة بأيديهم السيوف، فأومأ إلينا فجلسنا فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال لابن طاووس : حدثني عن أبيك :

(94) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البصري شيخ الحرم المكي، من أكابر العبادة الصالحاء، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق، منهم الإمام الشافعي ولد بسمرقند، ونشأ بأبي ورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة توفي سنة 187 هـ 803 م من كلامه : من عرف الناس استراح* (الأعلام) للزركلي ج 5 ص 153، وفيه مصادر ترجمته.

(95) ذو النون المصري، ثوبان بن إبراهيم الأحمسي المصري، أحد الزهاد العبادة، من أهل مصر، هو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، ومقامات أهل الولاية، اتهم بالزندقة تـ 245 هـ 859 م (الأعلام) للزركلي ج 2 ص 102 ط 5 وبهامشه مصادر ترجمته.

(96) في حيلة أبي نعيم ج 8 ص 283 حلاه بقوله : ومنهم العابد العدوي الزاهد الهدوي عبد الله به عبد العزيز العمري ولم يذكر وفاته، في حين أنه ذكره في الجيوش : من مواعظ الرشيد، ثم ذكره ابن العربي في "محااضرة الأبرار، ومسامرة الأخيار" ج 1 ص 56. و (سير أعلام النبلاء) ج 8 ص 373 وفيه سنة وفاته 184 هـ 800 م.

(97) الذي عند ابن خلكان، في الوفيات أن المرسل إليه مع الإمام، هو عبد الله بن طاووس لا محمد بن طاووس، كما هنا، من ابن خلكان ج 2 ص 195.

فقال له نعم، حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تبارك وتعالى في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه" قال مالك : فضمنت ثيابي مخافة أن يصيبها دمه، فأمسك المنصور ساعة ثم قال : عظمي يابن طاووس : فقال أما سمعت يا أمير المؤمنين قول الله رب العالمين : { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل } { ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد } . قال مالك : فضمنت أيضا ثيابي مخافة أن يملأني دمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه، ثم قال : يابن طاووس ناولني هذه الدواة، فامسك عنه، ثم قال : ناولني ويحك الدواة، فامسك عنه ثم قال : ما منعك ان تناولني الدواة ؟ فقال له أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فقال المنصور حينئذ انصرفا، فقال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغ، قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله، وما زال عليه أثر الخير من هذه المقالة إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

ومن ذلك أيضا ما روى أن عمر بن عبد العزيز لما بويع بعث إلى الحسن البصري وقال له : اكتب لي صفة الإمام العادل الناجي من عذاب الله، بفضل الله، فكتب إليه : اعلم يا أمير المؤمنين ان الله تعالى جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لماشيتة أطيّب المراعي، ويبعد بها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده يسعى لهم صفارا ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم لما بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والامام العادل قائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعباله، فيبذر المال، وأفقر الأهل، وأجاع العيال، وشردهم، واعلم أن الله أنزل

الحدود ليزجر بها عن الفواحش، فكيف الحيلة إذا أتاها من يليها، وأنزل القصاص حياة للعباد، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم. واعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير المنزل الذي أنت به، يطول فيه ثواؤك ويفارقك عنده أحيائك، فاذكر الموت وما بعده، وقلة أشياعك وأنصارك عنده، وتزود ليوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واحكم بين عباد الله بسيرة السلف الصالح، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فتبوء بأوزارك وأوزارهم، وتحمل أثقالك مع أثقالهم، ولا تنظر الى قدرك اليوم، ولكن انظر الى قدرك غدا حين تقف بين يدي ربك في مجمع الملائكة والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، واعلم اني يا أمير المؤمنين وان لم أبلغ من حقك في عظتى ما بلغه أولوا النهى قبلي فلم آلك شفقة ونصحا، فاجعل كتابي إليك كمداوي حبيبته يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية، والصحة والسلام عليك ورحمة الله وبركاته انتهى.

ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهو أمير علي العراقيين في يوم شديد الحر، وبلال في بيته، وعنده الثلج، فقال له بلال : يا أبا عبد الله كيف ترى بيتنا هذا ؟ فقال : إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهي عنه، قال : فما تقول في القدر ؟ فقال : على جيرانك أهل القبور ففكر فيهم، فإن فيهم شغلا عن القدر، قال ادعوا الله لي ؟ قال : ما تصنع بدعائي وعلى بابك كذا وكذا من خلق الله، كل واحد يقول : إنك ظلمته، ودعاؤهم يرتفع قبل دعائي، فلا تظلم أحدا، فلا تحتاج الى دعاء أحد انتهى.

هذه المواعظ يجب أن تؤخذ بالقوة والشدة على النفس، بحيث لا يقع بها ميل الى رخصة، ولكن لا ينبغي أن تبلغ الى القنوط واليأس من رحمة الله العفو الغفور الرحيم، فإنه ما قيل شيء برحمة الله الا ضاق واتسعت الرحمة، لا سيما لهذه الأمة، نعم من طمع في رحمة الله فليرحم خليفة الله، فإنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : "الراحمون يرحمهم الله" (98)، وورد أيضا "من لم يرحم الناس منعسه الله من

(98) رواه البخاري.

رحمته" (99) وورد "أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (100) وفي حديث قدسي : ما يمنع من القنوط وما يدل على سعادة من رجاؤه برحمة الله منوط يقول مولانا تبارك وتعالى [يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيت بقرباب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقربابها مغفرة] (101).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه وفي 5 ربيع الأول عام 1283 هـ رزقنا الله خيره ووقانا شره آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. انتهى.

(99) رواه البخاري ومسلم والترمذي باللفاظ متقاربة.

(100) رواه البخاري ومسلم والترمذي باللفاظ متقاربة.

(101) رواه الترمذي.

تذكير :

ما هو أسفله مكرر وذلك بالجزء الأول ص 318

الإكرام ، وكان عزم على التوجه معنا لملاقاة السلطان ، ثم عرض ما منعه من ذلك فأقمنا عنده ثلاثة أيام ، ووجه معنا أخاه السيد عبد القادر وكتب لخدامه أولاد جامع أن يوجهوا معي عشرة من الخيل ، وقال لأخيه يعطيني البغلة التي عنده أركب عليها لأنها حسنة السير ويرجع هو على التي ركبت عليها واكلتاها للشيخ المذكور ، فلما بلغنا أولاد جامع ركب معي الخيل وذهبنا حتى وافينا السلطان برصانة على مرحلة من القصر ، وكان أراد التوجه ليربط على تطوان ، فلما جلست بين يديه وهو يسألني عن الأمور المتقدمة شيئا فشيئا ، وكنت أنا بفاس حاضرا لجميع ذلك من أوله إلى آخره ، فشرحت ذلك كله على حقيقته ، فوجدته كان يعتقد أن أهل فاس وأهل العصبية فيهم هم أصحاب الأموال والأصول والتجار ، مع أنه ليس كذلك ، وإنما أهل فاس وأهل العصبية منهم قوم يقال لهم الرماة لا يظهرون إلا في وقت السببة والفتنة ، وأما في وقت الأحكام فإنهم خامدون لا بال لهم ، فإذا كان وقت ظهورهم كان أهل الأموال والأصول تحت ذمتهم الإكرام...

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ونشكر
شكرا يؤذن بازدياد برك وبجزيل أمستنانك وسئلك بجاء داتك أن ترسل
سحائب صلواتك وتسليماتك وسوايغ رحماتك وبركاتك على روح سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم في الأرواح وعلى جسده في الأجساد وعلى
قبره في القبور ثم على أرواح آل بيته الطاهرين وأصحابه حماة الدين وعلى
أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل من رفع للعلم رمحا وأبدي به لدى
الظلماء صباحا.

وبعد

فقد طالعت كتاب الجيش العرمم الخماسي لمؤلفه العالم العلامة
التحرير الدراكة الفهامة البدر المنير سيدي أبي عبد الله محمد بن أحمد
الكنسوسي رحمه الله وقدر سره مع تحقيق شيخنا وقدوتنا أستاذ المحققين
الذي يعد ممن تلقوا راية العلم باليمين، عين أعيان قطره وفخر علماء عصره
سيدي أحمد بن يوسف الكنسوسي متعنا الله بطول بقائه ونفع المسلمين
بعلمه، وقد أضفى هذا التحقيق على الكتاب رونقا دلي على ما للمحقق من
قدم راسخة في العلم وتبحر واسع فيه.

أقول طالعت الكتاب المذكور فألفيته بحرا طاميا وكوكبا هاديا. لا
جرم أنه أنهل فأروى وجمع فأوعى وسيلقى لدى كل ذي لب ما يلقي
الحبيب من المحب ويحل من ذوي الفضل محلا لم يكن حل من قبل، فرأيت
على ما أنا عليه من الشغل المحتدم والفكر الغير منتظم أن أسطر هذه
السطور إقرارا لما لهذا السفر المسطور والعمل المبرور من مكانة علمية
فائقة.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل الجليل في ميزان الشيخين الجليلين
الجيد والحفيظ وأن يتغمده الأول بواسع رحمته وأن يطيل بقاء الثاني في
عافية وسرور إنه على كل شيء قدير.

د. الشيخ ولد حومة ولد بابانا العلوي
مراكش في الخامس من شهر رجب الحرام 1416

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الايمان الاكملان على سيدنا محمد اشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

إذا قلنا بان "الجيش العرمرم الخماسي" كتاب في تاريخ الدولة العلوية الغراء فإنه يعتبر عمدة لا بد منها في التعريف بالحقيقة التي شارك مؤلفه رحمه الله في أحداثها، وقدم شهاداته حولها، وتفاعلت مشاعره معها.

وبالإضافة الى كون "الجيش" كتاب في تاريخ المغرب السياسي، فإنه مؤلف متعدد المقاصد والمحتويات، فهو كتاب الملك والملوك وتدبير شؤون الرعية واستثباب الأمن وتوحيد البلاد، كتاب تفسير وحديث وفقه، وكتاب في الأبحاث اللغوية العميقة والمناظرات الأدبية البديعة والأوصاف البلاغية المثيرة.

وان مما أغنى مضمون الكتاب الشمولي، ويسر مناولته، وتم محاسنه، وجعله موثوقا به أكثر، تقديمه في طبعة منقحة جيدة، روجعت على مخطوطات خاصة ونسخ متداولة وغير متداولة، ولقد عززت هذه الطبعة كذلك بإيضاحات وتعليقات وترجمات وتخريج للأحاديث النبوية الشريفة، فاكتسب الكتاب رونقا ودقة وأهمية تناسب مقام الأبهة والعظمة التي سخر لها :

وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء

ان ما قام به استاذنا الجليل، سيدي احمد حفظه الله. يعد مفخرة للعلم والعلماء ومحط اعجاب لنا نحن طلبة العلم الابرار في ربوع هذه الديار، كهادته، وفقه الله، في احترام رأي الآخر لم يفرض على القارئ نظرة النص المعين الضيقة، ولو كان أساسها النسخة الأصلية التي احتفظ بها خلفا عن سلف، بل أحالنا رعاه الله على الخلافات الواردة في النسخ المختلفة التي عثر عليها، وأثبتها بكل أمانة، ودعانا لأعمال فكرنا وتحقيق الكتاب بأنفسنا وتكوين رأينا. لقد فتح لنا، جازاه الله خيرا، وبكل

موضوعية، فضاءات أوسع لقراءة كتاب "الجيش العرمرم الخماسي" من منطلقات جديدة.

نفعنا الله بثمره هذا المجهود القيم، وأتاب القائمين على هذا العمل كما هو أهله، وألهمنا الصواب في السر والعلن، والحمد لله رب العالمين.

(محمّد) عثمان فضلي
مراكش في ١٣ محرم ١٤١٧ / ٣١ ماي ١٩٩٦

فهرس الجزء الثاني

صفحة

- الراية الحمراء المشرقة اللون "مولاي عبد الرحمان" 3
- فصل في ذكر ما خص الله به السلطان المؤيد من المآثر والمفاخر 58
- الراية الخضراء المباركة الجليلة للمولى محمد بن عبد الرحمان 72
- بيعة المولى محمد من إنشاء صاحب الجيش 75
- ساقه الجيش العرمم 125
- السرية الأولى من القسم الأول في العدل 125
- السرية الثانية من القسم الأول في حسن السيرة 129
- السرية الثالثة من القسم الأول في حسن النظر 131
- السرية الرابعة من القسم الأول في ذكاء الفطنة 132
- السرية الخامسة من القسم الأول في المشورة 137
- السرية السادسة من القسم الأول في تدبير الحرب 140
- السرية السابعة من القسم الأول في جباية المال 145
- السرية الأولى من القسم الثاني في الجود 147
- السرية الثانية من القسم الثاني في الشجاعة 157
- السرية الثالثة من القسم الثاني في الحلم 161
- حكم الوزارة 173
- الوزير أبو العباس اليعمدي للمولى اسماعيل 174
- الوزير افاندي العربي قادوس للمولى محمد عبد الله 175
- الوزير الأكبر السي احمد للمولى سليمان 176
- الوزير محمد بن ادريس للمولى عبد الرحمان 178
- الوزير الطيب بن اليماني للمولى محمد بن عبد الرحمان 182
- الحجابة 188
- القهرمانه 188
- الكتابة 189
- المقصد الأول في معنى الكتابة 190
- المقصد الثاني في أول من كتب بالعربي 190
- المقصد الثالث في آلة الكتابة 193

199	- المقصد الرابع في المكتوب فيه
210	- المقصد الخامس في المكتوب به
212	- المقصد السادس في الكاتب
217	- المقصد السابع في المكتوب إليه
220	- الخاتمة

فهرس الاعلام بالجزء الثاني

صفحة	هامش	
حرف الألف		
3	1	- أحمد بن عبد المالك العلوي
8	7	- ابن قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن التاودي
61	56	- البوكيلي مولاي ابراهيم
90	8	- ادريس بن محمد العمراوي
110	15	- ابن داوود حفيد المعطي
116	18	- أحمد ادراق
117	21	- أحمد بن عبد السلام الجراوي
170	49	- أبو الوليد
156	36	- أحمد بن أبي خالد
حرف الشاء		
220	95	- ثوبان بن ابراهيم ذو النون المصري
حرف الحاء		
215	90	- ابو علي الحسن بن رشيق
حرف الخاء		
133	7	- خريم بن الأخرم
حرف السين		
117	20	- سعيد الغماري
حرف الصاد		
129	6	- صعصعة بن صوحان.

صفحة	هامش
حرف الطاء	
66	64 - الطيب بن كيران
حرف العين	
186	65 - عبد الواحد الضرير
195	72 - عبد الله بن محمد بن السيد البطلبوسي
198	74 - العربي المستاري
213	88 - عمير بن شبيب القطامي
220	97 - عبد الله بن طاووس
220	96 - عبد الله بن عبد العزيز العمري
66	67 - عبد الله بن الشيخ بن البراء
15	14 - عبد الهادي مولاي عبد الله بن الفقيه الحسني العلوي
15	15 - عبد الله الديماني
22	25 - عبد الوهاب القادري
61	55 - عبو بن العادل
66	62 - عبد القادر بن شقرون
67	68 - عبد الله العبدوسي
68	69 - العباس بن احمد بن التاودي
86	7 - العربي بن المعطي
90	9 - عبد الرحمن الشرفي
115	17 - عبد الوهاب أدراق
152	35 - عرابة بن اوس الحارثي
170	47 - عمر بن حبيب العدوي
175	53 - علي بن احمد المصباحي
179	55 - عبد القادر بن عبد الله الشبيهي

صفحة	هامش	
64	60	حرف الغين - الغربي الرباطي
220	94	حرف الفاء - الفضيل بن عياض
167	46	حرف القاف - قيس بن عاصم
16	16	حرف الهيم - محمد بن الطاهر الفيلاي
37	34	- محمد العربي الجامعي
37	36	- محمد الصفار التطواني
64	58	- محمد بن عباد
64	61	- محمد بن الأمير السلاوي
66	63	- محمد الهواري
66	65	- محمد بن عمر الزروالي
66	66	- محمد بن منصور
73	2	- محمد السعيد
117	25	- محمد بن علي المازري
120	27	- محمد التاملي
		- محمد بن أحمد بن رشد (تقدمت ترجمته في ج 1)
179	59	- محمد بن عبد السلام التونسي
184	60	- المعطي الزداغي المراكشي
38	38	- المهدي بن سودة المعروف بابن الطالب
116	19	- محمد بن عبد الملك بن زهر
38	37	- محمد البرودي الطنجي



اقتراح

اقترح بعض الاخوان أن أضع كلمة مختصرة "حول بدايتي العلمية" وحول مصدر بدايتها "نعم" الكلام في هذا الموضوع طويل الذيل اكتفي بقدر اجمالي يوضح مدلول هذا الاقتراح.

شاءت الأقدار الالهية عن هذه الناحية بدافع شوق كبير أن أشرع في أخذ العلم سنة 1926-1345 الى سنة 1941-1360 ثم تجردت للتدريس بأمر من بعض شيوخنا بجامعة ابن يوسف فصرت أعطي دروسا تطوعا الى أن انخرطت في سلك النظام سنة 1941-1360، ثم سميت عضوا بالمجلس العلمي سنة 1951-1371.

اما العلوم التي درستها على شيوخ الجامعة : النحو، التصريف، علوم البلاغة، المنطق علم الكلام، الفلك العروض، الأصول، الوضع ثم الفقه، الفرائض، الحديث التفسير.

الاجازة

عندي اجازات من السادات العلماء الأفاضل :

- 1- محمد بن الحاج عمر المراكشي الملقب بالكتيبة لسكناه بها
- 2- محمد بن الحسن الدباغ الحرييلي المراكشي شيخ الجماعة
- 3- علي بن عبد الرحمن السباعي المراكشي المفتي
- 4- الوزير محمد بن الحسن الحجوي المشارك المؤرخ
- 5- المشارك الحافظ الفيلسوف محمد الرافعي الجديدي
- 6- رئيس جامعة القرويين الصوفي الحسن مزور
- 7- صالح التونسي المدني اجتمعت به في داره بالمدينة
- 8- محمد الحافظ من الشيوخ الكبار بمصر اجتمعت به بالمسجد النبوي.
- 9- محمد فال الشنجيطي له في مريطانية نشاط كبير في نشر العلم.

وتراجم هؤلاء الشيوخ الأجلة مبسوبة في فهرستنا التي تظهر في القريب إن شاء الله.